«جويس القرن الحادي والعشرين» – The Times

حلقات زحل

ف.ج. زيبالد

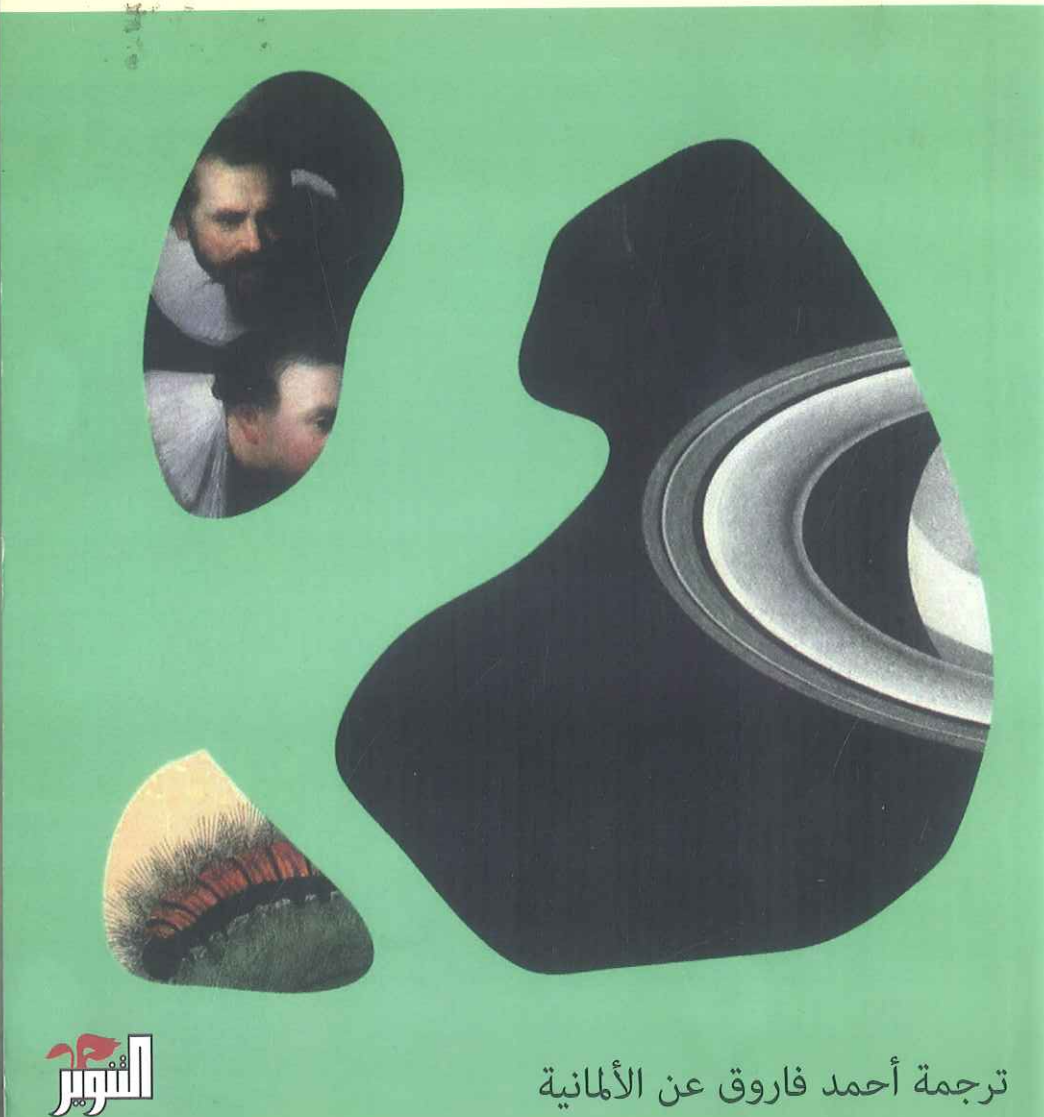

ترجمة أحمد فاروق عن الألمانية

التنوير

ف. غ. زيبالد

حلقات زحل

مزارات إنجليزية

الكتاب: حلقات زحل، مزارات إنجليزية
تأليف: ف. غ. زيبالد
ترجمة: أحمد فاروق

عدد الصفحات: 280 صفحة

رقم الإيداع بدار الكتب : 2019/3793

الترقيم الدولي : 978-977-828-028-9

الطبعة المصرية الأولى : 2019

هذه ترجمة مرخصة لكتاب

DIE RINGE DES SATURN
W.G. Sebald
Copyright © Eichborn AG, Frankfurt am Main, 1995.
"Herod's Temple" Photography Copyright © Alec Garrard
All rights reserved

جميع الحقوق محفوظة © دار التنوير 2019

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

مصر: القاهرة – 2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) – جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar – altanweer.com

لبنان: بيروت – بئر حسن – بناية قاسم فارس (سارة بنما) – الطابق السفلي
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar – altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar – altanweer.com

ف. غ. زيبالد

حلقات زحل

مزارات إنجليزية

ترجمة: أحمد فاروق

"The translation of this work was supported by a grant from the Goethe-Institut."

مقدمة المترجم

هذه ليست رواية عزيزي القارئ! إنه أدب رحلة من نوع خاص جدا، فالكاتب ف.غ. زيبالد دأب على مزج فنون السرد على طريقته، وفتح المجال لتيار الوعي الذي يختلط فيه الواقع بالحلم والحقيقة بالخيال وتنفتح فيه فجأة أبواب خفية في الذاكرة مع الحرص على أن تصاحب الفوتوغرافيا هذا النوع الفريد من النثر وتوثق له. وإن كان قد صنف كتابيه «أوستيرليتز» و«المغتربون» على أنهما روايتان، فقد ذيل «حلقات زحل» بعنوان فرعي هو مزارات إنجليزية. إنها رحلة على الأقدام تشبه تلك الرحلة التي يقوم بها كثيرون في أوروبا من معتنقي الكاثوليكية وأيضا من الباحثين عن الخلاص والتطهير إلى مزار القديس يعقوب في سانتياغو دي كومبوستيلا في أسبانيا. لكن الرحلة التي يقوم بها زيبالد على الساحل الشرقي لإنجلترا – وهي منطقة مقفرة وفقيرة شهدت لحظات ازدهار قصيرة في تاريخها – تفتح أبوابا واسعة للتأمل في واقعنا المأساوي، في منجزات الحضارة الإنسانية ووجهها الآخر المدمر. وهو أيضا مولع بالمصائر الغريبة للأشخاص، وبارع في الكشف عن صلات تكاد تكون غير مرئية بين العوالم المختلفة، فالرحلة عبر مقاطعة سافوك ستقودنا مثلا إلى الصين في القرن التاسع عشر وحرب الأفيون وأفول الإمبراطورية وسنتتبع خلالها قصة حياة جوزيف كونراد صاحب «قلب الظلام» الذي ربما أقام ذات يوم لفترة وجيزة في سافوك وسنتطرق أيضا لفظائع

الاستعمار البلجيكي في الكونغو ولحركة المقاومة الأيرلندية. وسنتعرف إلى مترجم «رباعيات الخيام» إلى الإنجليزية إدوارد فيتزجيرالد وطباعه الغريبة، وعلى أسرار صناعة الحرير الذي ربما تلف خيوطه الكتاب كما تلتف حول شرنقة دودة القز.

بعد الانتهاء من دراسته في ألمانيا انتقل زيبالد، المولود عام 1944، في منتصف الستينات للعيش في إنجلترا وعمل مدرسا للأدب الألماني في جامعة نوريتش بشرق إنجلترا. ولم يظهر نتاجه الأدبي إلا في نهاية الثمانينات ومطلع التسعينات من القرن الماضي وقد حظي باهتمام كبير في العالم الأنجلوساكسوني أي في إنجلترا والولايات المتحدة وخصوصا عبر تقديم سوزان سونتاغ لأعماله، قبل أن يحتفي به النقد الأدبي الألماني. خصوصية سرده وتناوله لموضوع الإرث النازي لألمانيا من منظور جديد، وهو علاقة المهجرين اليهود وخصوصا الأطفال بالبلد الذي وُلدوا فيه وكيفية تشكل ذاكرتهم ووعيهم والخلل الذي تتركه تجربة الاقتلاع من الجذور في الهوية وإحساسهم بالمكان الجديد، كل هذا أفسح له مكانة خاصة في الأدب العالمي. وخلال فترة شهرته القصيرة حصد العديد من الجوائز الأدبية في ألمانيا ومنها جائزة هاينريش هاينه وهاينريش بول وأصبح عضوا في الأكاديمية الألمانية للغة والشعر. في عام 2001 توفي في حادث سيارة، ويُقال أنه توفي جراء أزمة قلبية من وقع الصدمة، وهو ما يلائم الحس المرهف لكتابته.

بالطبع لا أرغب في حرمانك عزيزي القارئ من تكوين انطباعك الخاص عن «حلقات زحل» ولكنني وددت أن أقدم خلال هذه السطور القليلة للكاتب الذي يعد جديدا نسبيا على المكتبة العربية إذ لم تترجم له إلى الآن سوى رواية «المغتربون» التي صدرت أيضا عن دار التنوير.

أحمد فاروق

برلين في 24/ 9/ 2018

المحتوى

.1

في المستشفى- رثاء- رحلة تيه جمجة توماس براون- محاضرة التشريح- تحليق- كوينكوكس- كائنات خرافية- حرق الجثث

.2

عربة قطار الديزل- قصر مورتون بيتو- كزائر لسومرليتون- المدن الألمانية وسط ألسنة اللهب- أفول لويستفوت- كانيتفرستان- المصيف كما كان في الماضي- فريدريك فارار والحاشية الصغيرة للملك جيمس الثاني

.3

صيادو الشاطئ- التاريخ الطبيعي لأسماك الرنجة- جورج ويندهام لوسترانج- قطيع كبير من الخنازير- مضاعفة الإنسان- أوربيس تيرتيوس

.4

معركة خليج سول البحرية- حلول الليل- طريق محطة لاهاي- ماوريتسهاوس- شفينينغن- مقبرة القديس زيبالد- مطار سخيبول- اختفاء البشر- قاعة قراءة البحارة- معسكر ياسنوفاك على نهر السافا

.5

كونراد وكيزمنت- الصبي تيودور- المنفى في فولوغدا- نوفوفاستوف- حياة البحر والحياة العاطفية- عودة شتوية للوطن- قلب الظلام- بانوراما ووترلو- كيزمنت واقتصاد العبودية والقضية الأيرلندية- المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى والإعدام

.6

الجسر فوق نهر البلايث- قطار البلاط الصيني- ثورة التايبينغ وفتح إمبراطورية الصين- تدمير حديقة يوان مينغ يوان- نهاية الإمبراطور شيان-فينغ- الإمبراطورة الأرملة- أسرار السلطة- المدينة الغارقة- ألغيرنون المسكين

.7

مرج دانيتش- مارش أكرز، ميدلتون- طفولة برلينية- المنفى الإنجليزي- أحلام- تآلفات انتقائية، مراسلات- قصتان غريبتان جدًّا- عبر الغابة المطيرة

.8

حديث عن السكر- منتزه بولج- آل فيتزجيرالد- غرفة الأطفال في بردفيلد- تسلية إدوارد فيتزجيرالد الأدبية- عرض ظلال ساحر- فقدان صديق- نهاية الأعوام- الرحلة الأخيرة، مناظر طبيعية صيفية، دموع السعادة- دور دومينو- ذكريات أيرلندية- قصة الحرب الأهلية- حرائق، إفقار وانهيار- كاترينا دي سيينا- موضة صيد طيور الدراج والمشاريع التجارية- عبر الصحراء- أسلحة دمار سرية- في بلد آخر

.9

جبل الهيكل في القدس- شارلوت أيفس والفيكونت دو شاتوبريان-

مذكرات من وراء القبر- في مقبرة ديتشنغهام- منتزه ديتشنغهام- إعصار 16 أكتوبر 1987

.10

المتحف المغلق لتوماس براون - دودة القز Bombyx mori - أصل انتشار صناعة الحرير- نساجو الحرير من نوريتش- نماذج من الحرير. الطبيعة والفن- صناعة الحرير في ألمانيا- أعمال القتل- حرير الحداد

مذكرات من وراء القبر- في مقبرة ديتشنغهام- منتزه ديتشنغهام- إعصار 16 أكتوبر 1987

.10

المتحف المغلق لتوماس براون - دودة القز Bombyx mori ـ أصل انتشار صناعة الحرير- نساجو الحرير من نوريتش- نماذج من الحرير. الطبيعة والفن- صناعة الحرير في ألمانيا- أعمال القتل- حرير الحداد

«الخير والشر اللذان نعرفهما في مجال هذا العالم ينموان معًا من دون انفصام تقريبًا».

جون ميلتون، الفردوس المفقود

«يجب أن نغفر خصوصًا لهذه الأرواح التعسة التي قررت أن تخوض رحلة الزيارة على قدميها، وأن تقف على الشاطئ من دون أن تفهم فظائع القتال أو اليأس العميق لدى المهزومين».

جوزيف كونراد في رسالة بالفرنسية إلى مارغريتا بورادوفسكا

«تتكون حلقات زحل من بلورات ثلجية، وعلى الأرجح من جزيئات غبار سديمي، تدور حول الكوكب في مستوى خطه الاستوائي في مسارات دائرية. ومن المحتمل أن تكون عبارة عن كسور من قمر غابر، اقترب كثيرًا من الكوكب، ودُمر بفعل تأثير قوة المد. (حد روش)».

موسوعة بروكهاوس الألمانية

1

في أغسطس عام 1992 عندما قاربت أيام القيظ[1] نهايتها، انطلقتُ في رحلة على الأقدام عبر مقاطعة سافوك Suffolk في شرق إنجلترا أملًا في إمكانية الفرار من الفراغ المستشري داخلي بعد الانتهاء من عمل كبير. هذا الأمل تحقق أيضًا إلى حد معين، لأنه من النادر أن شعرت بنفسي طليقًا كما كنت آنذاك أثناء التجوال لساعات وأيام عبر هذه المناطق التي كانت لا تضم في أجزاء منها إلا عددًا قليلًا فقط من السكان. من ناحية أخرى، يبدو لي الآن أنه ربما يكون ثمَّت ما يبرر الاعتقاد الخرافي القديم بأن أمراضًا معينة تصيب النفس والجسد، يحلو لها أن تحل بنا في فترة بزوغ كوكبة الكلب الأكبر. وعلى أي حال فقد شغلني في الفترة اللاحقة على ذلك كلٌّ من ذكرى هذا التحرر الجميل وأيضًا هذه الكآبة المكبلة التي اعترتني في حالات عديدة بسبب آثار الدمار التي تعود حتى

(1) التعبير الألماني الأصلي هو: Hundetage أي أيام الكلب والمقصود أيام بزوغ كوكبة الكلب الأكبر، والإشكالي في هذا الأمر أن بزوغ كوكبة الكلب يرتبط في الثقافة الغربية بارتفاع درجة الحرارة وصعوبة التكيف معها والتعبير أيضا مرادف لتردي الأحوال، أي أنها بالأحرى أيام النحس، في حين أنه لا يوجد لبزوغ كوكبة الكلب الأكبر أو نجم الشعرى في الثقافات الشرقية مثل هذه الدلالات السلبية، بل على العكس بزوغ نجم الشعرى يعد لدى المصريين القدماء مثلا بشرى للفيضان. المترجم.

في هذه المنطقة النائية إلى أغوار الماضي. وربما لذلك نُقلت بعد عام بالضبط من تاريخ بدء رحلتي، إلى مستشفى نوريتش، عاصمة المقاطعة، في حالة أقرب إلى الشلل التام، حيث بدأتُ على الأقل في ذهني في تدوين الصفحات التالية. وأتذكر بدقة أنني وبعد نقلي إلى هناك، في الغرفة الواقعة في الدور الثامن من المستشفى، قد هيمن عليّ تصور بأن المساحات الشاسعة التي جُلْت عبرها في الصيف الماضي في سافوك قد تقلصت نهائيًا إلى نقطة وحيدة عمياء وصماء. وفعليًا لم يعد ثمَّت شيء مرئي من العالم، من موقعي في السرير، سوى قطعة لا لون لها من السماء في إطار النافذة.

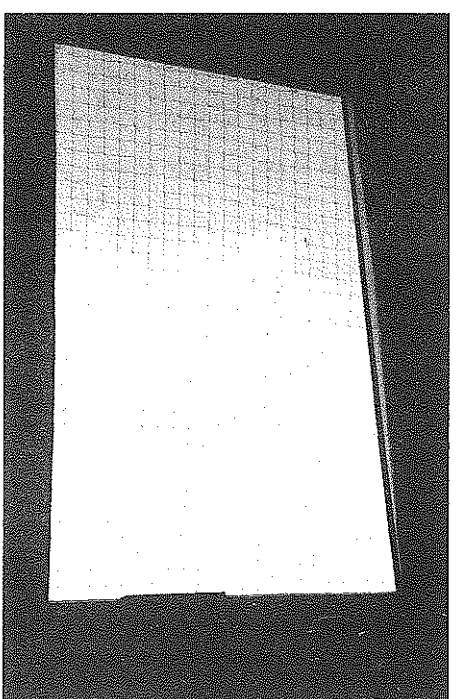

النافذة

عند حلول الغسق ازدادت حدة الرغبة التي تنامت داخلي مرارًا أثناء النهار، وكان من شأنها - كما كنت أخشى - أن تؤكد لي عبر نظرة من نافذة المستشفى المغطاة على نحو غريب بشبكة سوداء اختفاء الواقع إلى الأبد، لدرجة أنني تمكنت بعد التقلّب تارة على البطن وتارة أخرى على الجنب من الانزلاق من حافة السرير إلى الأرض والوصول على أربعٍ إلى الحائط، والوقوف رغم كل الآلام المرتبطة بهذه الحركة، عبر رفعٍ جسدي بجهد جهيد، على حافة النافذة. في الوضع المتشنج لكائن ينهض لأول مرة من الأرض المستوية، وقفت مستندًا إلى زجاج النافذة، وكان عليّ أن أفكر لا إراديًّا في مشهد غريغور سامسا[1] المسكين بأرجله الصغيرة المرتعشة المتشبثة بمسند المقعد، ناظرًا من غرفته إلى ذكرى غير واضحة، ذكرى الشيء المُحرِّر، الذي تمثل له ذات يوم في الماضي في النظر عبر النافذة، كما ورد في الرواية. وتمامًا كما لم يعد غريغور يتعرَّف بعينيه اللتين خبا بريقهما على شارع شارلوته الهادئ الذي عاش فيه لسنوات مع أهله، واعتبره قفرًا كئيبًا، هكذا بدت لي المدينة المألوفة التي امتدت من أفنية مداخل المستشفى إلى الأفق البعيد، غريبة تمامًا. لم أعد قادرًا على تصور أن ثمَّت شيء يتحرك داخل الأسوار القديمة المتداخلة في الأسفل، بل ظننت أنني أنظر من أعلى منحدر على بحر حجري أو حقل من الحصى تبرز منه الكتل الداكنة للجراجات متعددة الطوابق مثل كتل صخرية جليدية ضالة. في هذه الساعة الشاحبة من المساء لم يُر أي من المارة في محيط المكان، باستثناء ممرضة كانت تعبر للتو الحديقة البائسة الواقعة أمام المدخل في طريقها لبدء النوبة الليلية. تحركت سيارة إسعاف بضوء أزرق، منحرفة ببطء عند نواص عدة، من وسط المدينة باتجاه قسم الطوارئ. لم يصل صوت السرينة إليَّ هنا في

(1) غريغور سامسا بطل رواية «المسخ» لفرانز كافكا. المترجم.

الأعلى. كنت في العلو الذي أنا فيه محاطًا بما يكاد يكون صمتًا اصطناعيًّا تامًا. وحده التيار الهوائي الذي كان يعصف بالبر، كان يُسمع أزيزه في الخارج على النافذة وأحيانًا حتى عندما يهدأ الضجيج، يبقى صفيره الذي لا يخمد تمامًا في الأذن.

اليوم وأنا أبدأ في تبييض ملاحظاتي، بعد أكثر من عام على خروجي من المستشفى، يخطر لي لا إراديًّا أنه آنذاك، عندما نظرت من الطابق الثامن على المدينة الغارقة تدريجيًّا في الغسق، كان مايكل باركنسون لا يزال على قيد الحياة في بيته الضيق الواقع في طريق بورترسفيلد، وعلى الأرجح كان مشغولًا، كما في أغلب الأحيان، بإعداد حلقة دراسية أو بدراسته عن راموز[1] التي شغلته لسنوات عدة. كان مايكل في نهاية الأربعينيات، عَزَبًا، وكما أظن كان من أكثر الأشخاص الذين التقيتهم براءة. كان أبعد ما يكون عن المنفعة الشخصية، ولم يكن ثمَّت ما يؤرقه أكثر من القيام بواجبه، الأمر الذي أصبح منذ فترة أكثر صعوبة بسبب الأوضاع السائدة. لكن أكثر ما يميزه هو تحليه بقناعة يدعي البعض أنها تصل لحد الغرابة. وفي الزمن الذي يضطر فيه معظم الناس للتسوق باستمرار من أجل البقاء على قيد الحياة، لم يذهب مايك عمليًّا للتسوق إطلاقًا. وعامًا بعد عام منذ أن عرفته، كان يرتدي بالتناوب جاكتًا أزرق داكنًا وآخر بلون الصدأ، وإذا ما تآكلت الأكمام أو تفسخت عند المرفق، كان يمسك بنفسه بالإبرة والخيط ويخيطها برقعة جلدية. أجل، بل يقال إنه كان يرتق ياقات قمصانه المتآكلة. في عطلة الصيف كان مايكل يقوم برحلات على الأقدام مرتبطة بدراساته عن راموز عبر كانتوني فاليز وفود في سويسرا وأحيانًا عبر جبال الجورا وجبال سيفين. وفي أحيان كثيرة،

(1) شارل فرديناند راموز (1878 – 1947) كاتب وشاعر من سويسرا، يعد من أهم ممثلي الأدب السويسري المكتوب بالفرنسية. المترجم.

عندما كان يعود من مثل هذه الرحلات، أو عندما كنت أعبر عن إعجابي بجديته في أداء عمله، كان يبدو لي أنه قد وجد السعادة على طريقته في شكل من التواضع يكاد يكون حاليًّا غير متخيل. ثم قيل في مايو الماضي فجأة، إن مايكل الذي لم يرَه أحد منذ عدة أيام، قد وُجد ميتًا في سريره، راقدًا على جنبه ومتصلبًا تمامًا بوجه ملون ببقع حمراء على نحو غريب. وتوصل فحص الطب الشرعي إلى أنه تُوفي لسبب غير معلوم وهو تشخيص أضفت إليه لنفسي ما يلي: في الجانب المظلم والعميق من الليل. رعشة الفزع التي انتابتنا بعد وفاة مايكل التي لم يتوقعها أحد، طالت - على الأغلب أكثر من أي شخص آخر - جانين روزاليند داكينز المحاضرة في آداب اللغات الرومانسية التي كانت عزَبة أيضًا، أجل بل يجوز القول إنها لم تتحمل ألم فقدان مايكل الذي كانت تربطها به صداقة منذ الطفولة، لدرجة أنها نفسها قضت - بعد أسابيع قليلة من وفاته - جرّاءَ مرض دمر جسدها خلال فترة وجيزة. درست جانين داكينز، التي كانت تسكن في حارة صغيرة قريبة جدًّا من المستشفى، مثل مايكل في أوكسفورد. وخلال مسيرة حياتها طورت، إلى حدٍّ ما، علمًا خاصًا بها لدراسة الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر، يخلو من أي ادعاء فكري، وينطلق دائمًا من غرائب التفاصيل لا من الأمور الواضحة، وخصوصًا في ما يتعلق بغوستاف فلوبير الذي حظي لديها بأعلى تقدير وكانت تقتبس لي في مختلف المناسبات من مراسلاته المكوّنة من آلاف الصفحات، مقتطفات كانت تثير دهشتي مجددًا في كل مرة. وبخلاف ذلك كانت تدخُل أثناء عرضها لأفكارها في حالات تكاد تعد ولعًا مثيرًا للقلق، وتحاول بأكبر قدر من الاهتمام الشخصي أن تتحرى الأسباب وراء الشكوك الكتابية لدى فلوبير. الخوف من الخطأ، حسب قولها، هو ما كان يجعله يبقى أحيانًا أسابيع وشهورًا أسيرًا لأريكته، ويجعله يخشى أيضًا ألا

يستطيع من بعد ذلك أبدًا أن يخط ولو نصف سطر فقط، من دون أن يَشين ويحرج نفسه على أسوأ نحو. في تلك الفترة، قالت جانين، لم يتبدّ له فقط أن كل كتابة مستقبلية مستبعدة تمامًا، بل كان علاوة على ذلك على قناعة بأن كل ما كتبه عبارة عن سلسلة من الأخطاء والأكاذيب التي لا تغتفر بعواقب مجهولة. ادعت جانين أن شكوك فلوبير تعود إلى ما كان يظن أنه لاحظه من سفه هيمن فعليًّا على عقله وأخذ يزداد بلا توقف. وكأنه، كما قال ذات مرة، يغرق في الرمل. ربما لهذا السبب، كما ترى جانين، يحظى الرمل بأهمية كبيرة جدًّا في مجمل أعمال فلوبير. يغزو الرمل كل شيء. قالت جانين إنه كثيرًا ما يتكرر في أحلام اليقظة والنوم لدى فلوبير الزج بسحب غبار مخيفة، تتحرك بعدما أُثيرت فوق السهول القاحلة للقارة الإفريقية نحو الشمال عبر البحر المتوسط وشبه الجزيرة الإيبرية، حتى تتساقط في لحظة ما مثل الرماد على حديقة التويلري، أو على إحدى ضواحي روون أو على مدينة ريفية في قلب النورماندي، وتخترق أدق الثنايا. في حبة رمل في ذيل فستان إيما بوفاري، قالت جانين، رأى فلوبير كل الصحراء، وكل ذرة غبار كانت تزن عنده وزن جبال الأطلس. كثيرًا، ما تحدثت مع جانين في آخر النهار عن رؤية فلوبير للعالم وذلك في مكتبها الذي تناثر فيه هذا الكم من مذكرات المحاضرات والرسائل والمؤلفات بمختلف أنواعها، بحيث كان المرء يظن أنه يقف وسط طوفان من الأوراق. وعلى المكتب وهو المنطلق الرئيس أو نقطة التجمع للتكاثر المدهش للأوراق، تكونت بمرور الوقت تضاريس ورقية حقيقية بجبال ووديان، وعند الحواف بدت مثل الكتلة الجليدية عندما تصل إلى البحر، وتتفتت وتشكل على الأرض رواسب متحركة جديدة. قبل أعوام اضطرت جانين للانتقال إلى طاولات أخرى. لكن هذه الطاولات التي مرت بعمليات تراكم مماثلة كانت تشبه ما يمكن تسميته بالعصور اللاحقة

في تطور الكون الورقي لجانين. لقد اختفت السجادة أيضًا تحت طبقات الورق العديدة، أجل لقد بدأ الورق يصعد مجددًا من الأرض التي كان يتساقط عليها باستمرار من ارتفاع متوسط، ليرتقي الجدران التي كانت مغطاة حتى الحافة العلوية للباب بأوراق ووثائق مثبتة بدبابيس في طرف واحد منها، وبعضها مثبت بعضه فوق بعض. أيضًا على الكتب الموجودة في الأرفف، وحيثما كان ذلك متاحًا، كانت ثمَّت أكوام من الورق، وكل هذا الورق كان يجمع في لحظة الغسق انعكاس الضوء المتلاشي، مثلما هي الحال عندما ينعكس ضوء الثلج على الحقول تحت السماء الحالكة المظلمة كالحبر. كان آخر مكان تجلس فيه جانين للعمل هو مقعد منقول إلى منتصف مكتبها تقريبًا، وكان المرء يراها جالسة عليه، عندما يمر أمام بابها المفتوح دائمًا. وتكون إما منحنية إلى الأمام وتكتب على مسند للكتابة تضعه على ركبتيها، وإما مستندة إلى الوراء وتائهة في أفكارها. وعندما قلت لها بالمناسبة إنها تشبه وسط أوراقها ملاك الميلانخوليا المتسمر بلا حراك وسط آلات الدمار كما في لوحة ألبرشت دورير، أجابتني أن الفوضى الظاهرية في أشيائها تُمثل في الحقيقة شيئًا أشبه بالنظام المكتمل أو الطامح للكمال. وفعليًّا كانت عادة ما تعرف على الفور كيف تجد ما كانت تبحث عنه في أوراقها أو كتبها أو رأسها. كانت جانين أيضًا هي من أشارت عليّ مباشرة بالجرّاح أنتوني بيتي شو الذي كانت تعرفه من أوساط أوكسفورد، عندما بدأت بعد خروجي من المستشفى في أبحاثي عن توماس براون، الذي مارس الطب في نوريتش في القرن السابع عشر وخلف وراءه مجموعة من الكتابات، لا يوجد لها مثيل تقريبًا. آنذاك كنت قد وقعت في الموسوعة البريطانية على مقال جاء فيه أن جمجمة براون قد حُفظت في متحف مستشفى نورفوك ونوريتش. وبقدر ما بدت لي هذه الفرضية صحيحة لا ريب فيها، فإن محاولاتي

لرؤية الجمجمة في هذا المكان الذي كنت أرقد فيه قبل فترة وجيزة كمريض كانت أقل نجاحًا. لأنه لم يكن هناك أحد من بين السيدات والسادة العاملين في إدارة المستشفى الحاليَّة يعلم شيئًا عن وجود مثل هذا المتحف. وعندما طرحت سؤالي الغريب، لم يقتصر الأمر على النظر إليَّ نظرة خالية من أي تفهم فحسب، بل تولد لديّ انطباع أن بعضًا ممن سألتهم، اعتبروني شخصًا مزعجًا غريب الأطوار. لكن في العصر الذي كان يُبنى فيه ما يسمى بالمستشفيات العامة في إطار التحديث العام للمجتمع، كان من المعروف أنه يوجد في كثير منها متحف، أو بمعنى أدق بيت رعب تُحفظ فيه المواليد المبتسرة أو المشوهة خلقيًّا والرؤوس والأعضاء المتضخمة وأشياء أخرى مشابهة في محلول الفورمالين في برطمانات زجاجية لأغراض الإيضاح الطبي أو أحيانًا تكون متاحة للعرض للجمهور العام. لكن بقي التساؤل أين ذهبت هذه الأشياء؟ في ما يخص مستشفى نوريتش وغياب جمجمة براون، لم أستطع الحصول على أيِّ معلومة من قسم التاريخ المحلي في المكتبة المركزية التي دُمرت منذ تعرضها لحريق. ولم أحصل على التوضيح المنشود إلا عبر أنتوني باتي شو الذي تعرفت إليه من خلال جانين. وحسب مقال أرسله لي باتي شو ونُشر أيضًا في Journal of Medical Biography، فإن توماس براون قد دُفن بعد وفاته في يوم عيد ميلاده السابع والسبعين في عام 1682 في كنيسة سان بيتر مانكروفت الرعوية، حيث رقدت رفاته حتى عام 1840. عندئذ تعرض نعشه للتلف وتكشّفت محتوياته جزئيًّا أثناء التجهيز لنقل الرفات إلى الموضع الذي يوجد به هيكل الكنيسة تقريبًا. إثر هذا الحادث انتقلت جمجمة براون وشعرة من رأسه إلى ملكية الطبيب رئيس الكنيسة لابوك، الذي أورث الرفات حسب وصيته لمتحف المستشفى، حيث كانت معروضة تحت ناقوس زجاجي مصمم خصيصى لها وسط كل

غرائب التشريح حتى عام 1921. وقتها فقط استُجيب لمطالب أبرشية بيتر مانكروفت المتكررة باستعادة جمجمة براون، وتقريبًا بعد مرور مئتين وخمسين عامًا على الجنازة الأولى، أُقيمت جنازة ثانية مع كل الطقوس الاحتفالية. في دراسته الشهيرة عن طقوس حرق الموتى ودفن الرماد في الأواني الخاصة بذلك التي تجمع بين علم الآثار والميتافيزيقا، قدم براون نفسه أفضل تعليق على الرحلة الملحمية التي خاضتها جمجمته في الموضع الذي كتب فيه: إنها لمأساة وفُحش أن تُنبش جثتك من القبر. إلا أنه يضيف: لكِنْ مَن مِنا يعرف مصير رفاته ومَن يدري كم مرة سيُدفن.

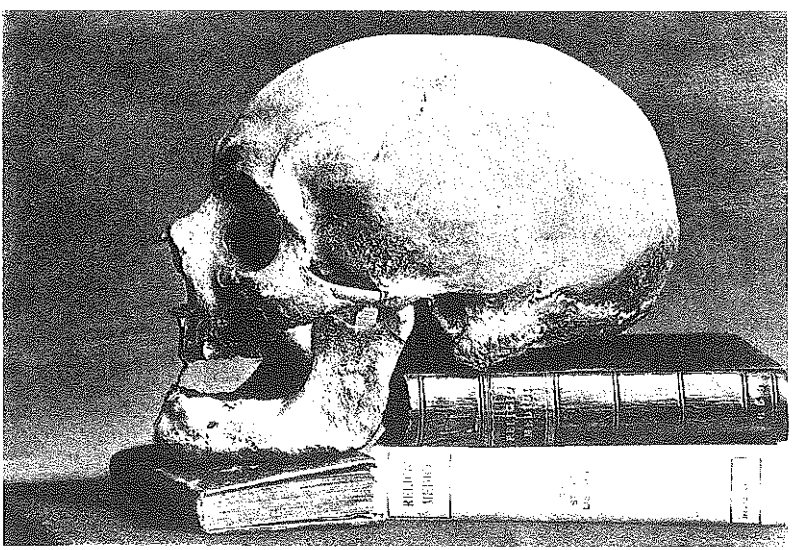

جمجمة براون

وُلد توماس براون في 19 أكتوبر 1605 كابن لتاجر حرير. لا يُعرَفُ الكثير عن طفولته، وفي السيَر التي تصف حياته لا تكاد توجد أيضًا أي معلومات عن نوع الدراسة الطبية التي تلت دراسته للماجستير في جامعة أوكسفورد. المؤكد هو أنه درس خلال الفترة من سن الخامسة

والعشرين إلى الثامنة والعشرين في الأكاديميات البارزة آنذاك في الطب البشري في مونبيليه وبادوا وفيينا، وأنه في نهاية المطاف وقُبيل عودته إلى إنجلترا قد حصل على درجة الدكتوراه في الطب من جامعة لايدن. في يناير عام 1632 وأثناء إقامته في هولندا، وفي وقت كان براون متعمقًا فيه أكثر من ذي قبل في أسرار الجسم الإنساني، أُجريت في «بيت الميزان Waaggebouw» في أمستردام عملية تشريح علني لجثة المحتال أدريان أدريانتسون الشهير بأريس كيندت الذي شُنق قبلها ببضع ساعات بتهمة السرقة. ورغم أنه لا يوجد أي دليل واضح على حضور براون، فمن المحتمل جدًّا ألا يكون قد فاته الإعلان عن عملية التشريح هذه وأنه قد شهد الحدث المثير الذي خلَّده رامبرانت بتصويره لنقابة الجراحين، خصوصًا وأن محاضرة د. نيكولاس تولب التي كانت تعقد سنويًّا في عزِّ الشتاء لم تكن فقط مثار اهتمام كبير لطبيب ناشئ، بل كانت تاريخًا مهمًّا في تقويم نقابة الجراحين التي اعتبرت أنها خرجت من الظلمة إلى النور. مما لا شك فيه أن التمثيلية المقامة أمام جمهور من الطبقات العليا دفع ثمن حضورها، تدور من ناحية حول استعراض مُفاده أن العلم الحديث لا يخشى شيئًا في سعيه الحثيث للبحث، ولكن من ناحية أخرى، ورغم نفي ذلك، فإنها تدور حول الطقس القديم الخاص بتشريح إنسان، وحول الانتهاك الجسدي للمجرم حتى بعد الموت الذي كان لا يزال متضمنًا في سجل العقوبات الموقعة. يؤيد الطابع الاحتفالي لتشريح الميت الذي يمكن قراءته من لوحة رامبرانت أن محاضرة التشريح في أمستردام لا تقف فقط عند حدود المعرفة الأدق بالأعضاء الداخلية البشرية – فالجراحون كانوا في أفضل هيئة، بل إن د. تولب يعتمر قبعته – كما أن حفلة رمزية بمعنًى ما كانت تقام بعد إنهاء عملية التشريح. إذا وقفنا اليوم في متحف ماوريتسهاوس Mauritshuis أمام لوحة التشريح لرامبرانت

التي تبلغ مساحتها مترين ونصفًا في مترين ونصف تقريبًا، فإننا عندئذ سنكون في موضع هؤلاء الذين وقفوا آنذاك في بيت الميزان وتابعوا عملية التشريح وسنظن أننا نرى ما رأوه: في المقدمة جثمان أريس كيندت المخضّر الشاحب المسجّى بعنقه المكسور وصدره المنتفخ البارز بشكل مفزع في ظل التخشب الموتي. لكن يظل السؤال مطروحًا إن كان أحد قد رأى هذا الجثمان في الحقيقة، ففن التشريح الناشئ حديثًا آنذاك لم يكن يهدف في نهاية المطاف إلى إخفاء الجسد الآثم. المميز لنظرات زملاء الدكتور تولب هو أنها ليست موجهة لهذا الجسد في حد ذاته، بل تعبر بدقة من فوقه لتتجه إلى أطلس التشريح المفتوح الذي يتقلص فيه الحضور الجسدي المقزز إلى رسم توضيحي، مخطط لجسم الإنسان، كما تخيله هاوي التشريح الشغوف رينيه ديكارت الذي قيل إنه كان حاضرًا أيضًا في صباح ذاك اليوم من شهر يناير في بيت الميزان. فمن المعروف أن ديكارت قد درس في أحد الفصول الأساسية لتاريخ الخضوع أن علينا أن نغض البصر عن اللحم غير المفهوم وأن ننظر إلى الماكينة الموضوعة بداخلنا، إلى هذا الشيء الذي يمكننا فهمه فهمًا تامًّا، وأن نجعله باستمرار مفيدا للعمل، وفي حين حدوث عطل محتمل، فإما أن يكون إصلاحه ممكنًا أو يجري التخلص منه.

يتناسب هذا الإقصاء الغريب للجسد المعروض بوضوح للفرجة مع تبين أن قرب لوحة رامبرانت الشهيرة من الواقع – إذا ما أمعنا النظر فيها بدقة أكبر – هو قرب ظاهري فحسب. على عكس كل ما هو معتاد لا تبدأ عملية التشريح المعروضة بفتح البطن وإزالة الأحشاء التي تعد أسرع الأعضاء تهيئا للتحلل، بل بتشريح اليد المذنبة (وهذا أيضًا قد يشير إلى ضرب من ضروب العقاب). ولهذه اليد قصة غريبة، فهي ليست فقط غريبة في نسبتها وتناسبها مقارنة مع اليد الأقرب لعين الرائي، بل هي

أيضًا تشريحيًا معكوسة تمامًا. والأوتار المكشوفة التي كان يفترض، حسب وضع الإبهام، أن تكون للكف الأيسر، هي لظهر اليد اليمنى. إذًا فالأمر هنا لا يعدو أن يكون سوى مجرد تركيب مدرسي محض لصورة مأخوذة من الأطلس، تحولت بسببه اللوحة التي يمكن القول إنها رُسمت لتحاكي الواقع، وتحديدًا في بؤرة الاهتمام بها أي حيث يوجد التشريح، إلى تصميم فاشل جدًّا. على الأرجح، من الصعب أن يكون رامبرانت قد أخطأ. وعلى ما يبدو لي فإن خرق التصميم متعمَّدٌ. فاليد غير المتناسقة مع الشكل هي الإشارة إلى السلطة التي تتجاوز أريس كيندت. والرسام يتماهى معه هو، مع الضحية، وليس مع النقابة التي كلفته باللوحة، وهو الوحيد الذي ليست له هذه النظرة الديكارتية، هو الوحيد الذي يشعر به، بهذا الجثمان المخضر المنطفئ، ويرى الظل في الفم نصف المفتوح وفوق عيني الميت.

من أي منظور تابع توماس براون عملية التشريح وماذا رأى، إن كان فعليًّا وكما أعتقد، قد حضر ضمن جمهور هذا المسرح التشريحي في أمستردام. لا يوجد أي دليل يشي بذلك. ربما كان الدليل هو هذا البخار الأبيض، الذي ادعى براون أنه يتصاعد من مغارة جسد فُتح لتوّه، كما ورد في تدوينة متأخرة له عن الضباب الذي خيم على أجزاء واسعة من إنجلترا وهولندا في السابع والعشرين من نوفمبر 1647، في حين أن غيوم هذا البخار، وحسبما يقول براون في الوقت نفسه، تحيط بمخنا خلال حياتنا عندما ننام ونحلم. إنني أتذكر بوضوح كيف كان وعيي محاطًا بهذه الغلالات من البخار، عندما رقدتُ بعد العملية التي أُجريت لي في ساعات متأخرة من الليل في غرفتي في الطابق الثامن من المستشفى. تحت التأثير الرائع للمسكنات التي كانت تقوم بدورتها داخلي، كنت أشعر في سريري ذي القضبان الحديدية أنني مسافر بالمنطاد، يمرق بخفة

عبر جبال السحب الآخذة في التراكم من حوله. أحيانًا كانت الملاءات الفضفاضة تتوزع وكنت أنظر عبرها إلى الآفاق النيلية اللون وأسفلها إلى القاع، حيث أدركت بلا فكاك التربة في سوادها، وفي الأعلى، في قبة السماء كانت النجوم نقاطًا ذهبية ضئيلة ومتناثرة في منطقة مقفرة. تسللت إلى أذني عبر الفراغ المدوي أصوات الممرضتين اللتين كانتا تقيسان لي النبض وتبللان لي الشفتين بإسفنجة صغيرة ذات حمرة وردية مثبتة في عود صغير، ذكرتني بالمصاصة المكعبة الشكل المصنوعة من حلوى النوغا التي كان يمكن شراؤها في الماضي في احتفالات الأسواق السنوية. كاتي وليزي هو اسم هاتين الكائنتين اللتين حلّقتا حولي، وأظن أنني نادرًا ما كنت على هذا القدر من السعادة التي كنت فيها في تلك الليلة تحت رعايتهما. لم أفهم شيئًا من أحاديثهما معًا عن مجريات الحياة اليومية. كنت أسمع فقط أصواتًا تعلو وتخفت، أصواتًا طبيعية مثل تلك التي تخرج من حناجر الطيور، رنين وصفير مكتمل، موسيقى شبه ملائكية، غناء أشبه بغناء الحوريات. فقط بقي في ذاكرتي جزء بسيط وغريب جدًّا مما قالته كاتي لليزي وليزي لكاتي. كان للأمر علاقة بعطلة في جزيرة مالطة وقد زعمت كاتي أو ليزي أن أهل مالطة وفي احتقار غير مفهوم للموت، لا يقودون سياراتهم على الجانب الأيسر أو الأيمن من الطريق، بل على الجانب الظليل منه. ولم أدرك ثانية أين أنا إلا عند الفجر مع انتهاء النوبة الليلية للممرضات. بدأت أشعر بجسدي، بالقدم التي أصابها الخدر، وبموضع الألم في ظهري، ورصدت جلبة الأطباق في الممر التي بدأ بها يوم العمل في المستشفى. ورأيت، عندما أنار ضوء البكور الأول الأعالي، كيف غمر شريطٌ ضوئيٌّ مكثفٌ هذه القطعة من السماء التي تأطُرُها نافذتي، وغالبًا بطاقة ذاتية. آنذاك اعتبرتُ هذا الأثر الأبيض أمارة طيبة، لكنني أخشى الآن مع استرجاع ما جرى، إنها كانت

بداية تصدع رافقني منذ ذلك الحين طيلة حياتي. فالطائرة التي في مطلع الممر الجوي لم تكن مرئية لا هي ولا الركاب الذين هم داخلها. إن خفاء وعدم فهم ما يحركنا، هو في النهاية أيضًا بالنسبة لتوماس براون الذي كان يرى أن عالمنا هو مجرد ظل لعالم آخر، لغز عصي على الحل. لقد حاول باستمرار بالفكر والكتابة تأمل الوجود على الأرض، وكذلك التأمل في الأشياء التي تهمه جدًّا مثل المجال الكوني من موقع مشاهد من الخارج، أجل، بل يمكننا أن نقول بعين الخالق. ومن أجل الوصول إلى هذه المنزلة من السمو اللازمة لذلك، كانت ثمَّت وسيلة واحدة تتمثل في تحليق عالٍ باللغة محفوف بالمخاطر. مثله مثل غيره من كتاب القرن السابع عشر ينقل براون معه دائمًا كامل معارفه، كنوز هائلة من الاقتباسات وكل أسماء الشخصيات النافذة السابقة عليه. ويشطح به الخيال بعيدًا في استخدام الاستعارات والأمثولات، ويكوّن جملًا أشبه بمتاهات تمتد أحيانًا لتصل لأكثر من صفحة أو صفحتين، وتشبه في بذخها مواكب الآلام والجنازات. صحيح أنه لا ينجح دائمًا بسبب هذه الحمولة الهائلة في أن يرتفع عن الأرض، لكن عندما ينتقل مع كامل حمولته لدوائر أعلى وأعلى من نثره ويصبح مثل سمامة تحلّق فوق تيارات الهواء الدافئة، عندئذ يتملك القارئ المعاصر أيضًا شعور بأنه يسبح في الهواء. وكلما ازدادت المسافة، أصبحت الرؤية أوضح. وبأكبر وضوح ممكن يبصر القارئ أدق التفاصيل. يشبه الأمر النظر عبر منظار معكوس، وعبر ميكروسكوب. ومع ذلك يقول براون: فإن كل معرفة محاطة بظلمة لا يمكن اختراقها. ما ندركه هو فقط مصابيح متفرقة في قاع الجهل، في مبنى العالم المغطى بظلال قاتمة. إننا ندرس نظام الأشياء، لكننا - حسب براون - لا ندرك مكنونها. لذلك ينبغي لنا أن نكتب فلسفتنا بتواضع (فقط بحروف صغيرة)، باختصارات واختزالات

الطبيعة الزائلة، ففيها وحدها يوجد بريق الأبدية. ووفاء لمقصده يرسم براون ضمن التنوع اللانهائي للأشكال، نماذج تتكرر عودتها من حين لآخر، مثل الشكل المسمى كوينكوكس في دراسته عن حديقة قوروش، والمكون من نقاط الارتكاز الأربعة لمربع منتظم والنقطة التي يتقاطع عندها قطراه.

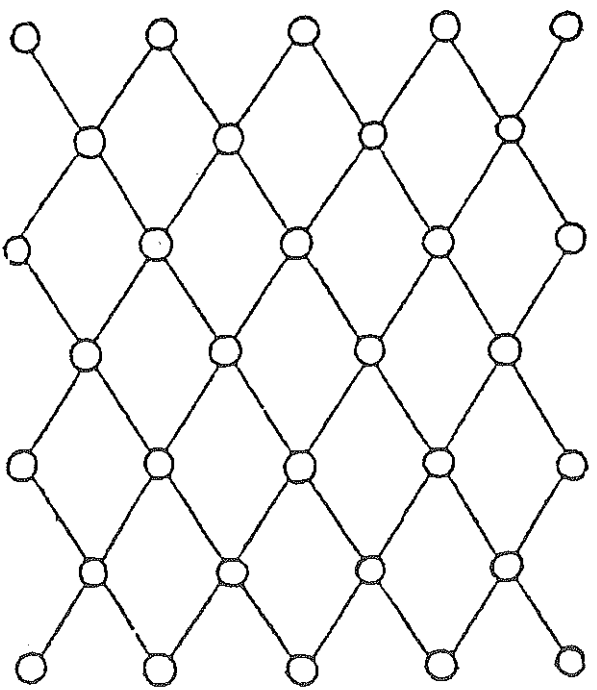

Quid Quincunce ſpecioſius, qui, in quam cunq; partem ſpectaueris, rectus eſt. Quintilian:

عثر براون في كل المواد الحية والميتة على هذا التركيب، في أشكال

بلورية معينة، وفي نجوم البحر وقنافذ البحر، وفي العظام الفقرية للثدييات والسلاسل الظهرية للطيور والأسماك وعلى جلد أنواع عديدة من الثعابين وفي آثار ذوات الأربع التي تتحرك للأمام بشكل متقاطع، وفي بنية أجسام اليساريع والفراشات وديدان القز والعث وفي جذور السرخس المائي وقشور بذور عباد الشمس وأشجار الصنوبر وفي داخل البراعم الصغيرة لأشجار البلوط. وسيقان نبات الكنباث، وفي الأعمال الفنية للبشر، في الأهرامات المصرية أو في ضريح الإمبراطور أغسطس، وكذلك أيضًا حديقة الملك سليمان المزدانة بنظام بأشجار الرمان والزنابق. أشياء كثيرة لا نهاية لها يمكن جمعها هنا، حسبما يقول براون، ويمكن بلا نهاية أن تبين بأي يد أنيقة تمارس الطبيعة هندستها، لكن - هكذا يختم مؤلَّفَه بتعبير جميل - عنقود القلائص النجمي وهو كوينكوكس السماء يهبط الآن خلف الأفق: والآن حان وقت إغلاق بوابات المعرفة الخمس، لسنا راغبين في تشويش أفكارنا بخيالات النوم صانعين أسلاكًا من خيوط العنكبوت وبرايَ من البساتين اللطيفة.

وبعيدًا عن ذلك تمامًا، يضيف متأملًا أن أبقراط في ملاحظاته عن الأرق لم يتحدث إلا قليلًا جدًا عن المفعول العجيب للنباتات، بحيث لم يعد المرء يتجرأ على الحلم بالفردوس، خصوصًا وأن الواحد منا ينشغل في الممارسة العملية في المقام الأول بالظواهر الشاذة، التي تبرزها له الطبيعة، سواء في شكل أدران مرضية، أو من خلال الكم الهائل من الاختراعات الذي يكاد أن يضاهي هذه الأدران في طبيعتها المريضة، الذي يملؤون به كل موضع خال في أطلسهم بمختلف أنواع الغرائب. في الحقيقة تسعى أيضًا دراستنا الحالية للطبيعة من ناحية إلى وصف نظام كامل يعمل وفقًا لقوانين معينة، ومن ناحية أخرى ينصب مع ذلك اهتمامنا على تفضيل المخلوقات التي تتميز بأشكالها الغرائبية وسلوكها

المضحك. ووفقًا لذلك احتل مراتب الشرف في موسوعة حياة الحيوان لبريم[1] كل من التمساح والكنغر والمدرّع وحصان البحر والبجع وفي يومنا هذا تظهر على الشاشة جيوش من البطاريق التي تقف طوال عتمة الشتاء من دون حراك وسط العواصف الثلجية في القطب الجنوبي وبين قدميها البيضة التي وضعتها في الفصول الأدفأ. لا شك أن المرء يفضل في مثل هذه البرامج المسماة Nature Watch أو Survival التي تعتبر بشكل خاص على درجة كبيرة من الثراء المعرفي، مشاهدة وحش ما خلال عملية التكاثر في قاع بحيرة بيقال[2]، على مشاهدة شحرور مألوف. كذلك كان توماس براون ينشغل مرارًا عن دراسة خط التماثل في رمز الكوينكوكس بتتبعه الفضولي لظواهر منفردة والعمل على علم أمراض شامل. ومن ضمن ذلك أنه كان يحتفظ في مكتبه لوقت طويل بطائر واق أوراسي لأنه كان يريد أن يكتشف كيف أمكن هذا الطائر الفريد من نوعه في كل أنحاء الطبيعة، الغريب حتى في مظهره، أن يصدر صيحة تماثل أعمق نغمات آلة الباسوون. وفي مؤلفه الوجيز Epidemica Pseudodoxia أو أخطاء شائعة الذي انشغل فيه بتبديد الأحكام المسبقة والأساطير، يتناول خليطًا من الكائنات الحقيقية من جانب والخرافية من جانب آخر مثل الحرباء والسمندل والنعامة والغريفين والعنقاء والباسيليسك والحصان وحيد القرن والحية ذات الرأسين. صحيح أن براون يدحض وجود الكائنات الخرافية في معظم الأحيان، لكن المخلوقات العجائبية المشوهة التي نعرف أنها موجودة فعليًّا، تتيح على نحو ما إمكانية أن تكون تلك

---

(1) موسوعة حياة الحيوان لمؤلفها إدموند بريم (1824 – 1884) هي موسوعة مصوَّرة نُشرت أول مرة في ألمانيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكانت مكونة من ستة أجزاء، وأكمل الباحثون العمل عليها لتصدر لاحقا في القرن العشرين في 13 جزءاً. المترجم.

(2) بحيرة عذبة في سيبيريا، تعد الأقدم والأعمق في العالم. المترجم.

الوحوش المختَلَقة لم تأتِ من العدم. على أي حال يتبين من وصف براون أن تصوّر تحولات الطبيعة اللانهائية والمتجاوزة لكل حدود العقل أو تصوّر الكائنات الخرافية التي ابتدعتها أفكارنا قد بهرته مثلما بهرت بعد ثلاث مئة عام خورخي لويس بورخيس محرر الطبعة الكاملة من كتاب الكائنات الخيالية Libro de los seres imaginarios الذي صدر للمرة الأولى في بوينيس أيريس عام 1967. ويوجد بين هذه الكائنات الخيالية المرتبة في هذا الكتاب ترتيبًا أبجديًّا؛ كما لاحظتُ منذ فترة قصيرة، الكائن المسمى «بالداندرس Baldanders»، أي سريع التحول الذي قابله «سيمبليسيوس» بطل رواية «مغامرات سيمبليتسيسيموس تويتش[1]» في الجزء السادس من قصة حياته. يقف سريع التحول كتمثال وسط الغابة، بمظهر بطل ألماني قديم، ويرتدي لباس جندي روماني ومريلة سوابية. وكما يقول، فإن أصله من الجنة وكان طوال الوقت وكل الأيام موجودًا مع سيمبليسيوس بشكل خفي، ولا يستطيع تركه إلا إذا عاد سيمبليسيوس إلى الأصل الذي جاء منه. ثم يتحول سريع التحول أمام عيني سيمبليسيوس حسب الترتيب إلى كاتبٍ يكتب السطور التالية:

أنا الأول والآخر وموجود في كل الأماكن

ثم إلى شجرة سنديان ضخمة، ثم إلى خنزيرة، ثم إلى قطعة سجق محمّر، ثم إلى روث، ثم إلى مرج برسيم، ثم إلى وردة بيضاء، ثم إلى شجرة توت، وإلى سجادة حرير. ومثلما هي الحال في عملية الآكل والمأكول المستمرة هذه، يرى براون أن لا شيء مكتوبًا له البقاء. يلقي الدمار بظله على كل شكل جديد. فتحديدًا لا يسير تاريخ كل فرد أو تاريخ

(1) هي أول رواية مغامرات في باللغة الألمانية كتبها هانس ياكوب كريستوفل فون غريملسهاوزن (1622 – 1676) أحداثها مستوحاة من حرب الثلاثين عامًا. المترجم.

كل جماعة وتاريخ العالم على منحنًى جميل ومستمرٍ في التحليق لأعلى، بل إلى طريق يقود بعد بلوغ خط الزوال السماوي إلى أسفل حيث الظلام. علمُ براون الخاص عن الاختفاء في الغموض مرتبط ارتباطًا لا ينفصم باعتقاده أنه في يوم البعث، عندما تكتمل كل الثورات الأخيرة، سيظهر كل الممثلين على خشبة المسرح لإكمال وصنع كارثة هذا العمل العظيم.

Ich bin der Anfang und das End
und gelte
an allen Ortyen.

Manoha gilos, timad, iſaſer, ſale, lacob, ſalet, enni nacob idil dadele neuaco ide eges Eli neme meodi eledid emonatan deſi negogag editor goga naneg eriden, hohe ritatan auilac, hohe ilamen eriden diledi ſiſac uſur ſodaled auar, amu ſaliſononor macheli retoran; Vlidon dad amu oſſoſſon, Gedal amu bede neuavv, alijs, dilede ronodavv agnoh regnoh eni tatæ hyn lamini celotah, iſis toloſtabas oronatah aſſis tobulu, V Viera ſaladid egriovi nanon ægar rimini ſiſac, helioſole Ramelu ononor vvindeliſhi timinitur, bagoge gagoe hananor elimitat.

من رواية مغامرات سيمبليسيوس

فالطبيب، الذي يرى نمو وتفشي الأمراض داخل الأجساد، يدرك الفناءَ أفضلَ من إدراكه لازدهار الحياة. ويبدو له أن المعجزة تكمن في استمرار بقائنا ولو لمجرد يوم واحد. وكما يكتب، فلم تنمُ بعدُ عشبة مضادة لأفيون الزمن المنصرم. تُظهر شمس الشتاء كيف يتلاشى الضوء

في الرماد، وكيف يحاصرنا الليل بسرعة. ساعةً بساعةً يجري الحساب، حتى الزمن نفسه يشيخ. الأهرام وأقواس النصر والمسلات هي أعمدة من جليد منصهر. وحتى هؤلاء الذين استطاعوا أن يجدوا لأنفسهم مكانًا وسط نجوم السماء، لا يستطيعون الاحتفاظ بمجدهم للأبد. فالنمرود ضاع في كوكبة الجبار وأوزوريس في كوكبة الكلب. لم تعمر ثلاث شجرات بلوط أطول من عمر أكبر السلالات الحاكمة. وضع الاسم على عمل ما، لا يضمن الحق في الذكرى، فمن يدري، قد يكون الاختفاء بلا أثر هو بالذات مصير الأعمال الأفضل. تتفتح بذور الخشخاش في كل مكان وعندما يغمرنا البؤس فجأة كما الثلج في يوم صيفي، ستتمنى ساعتها أن نكون منسيين. في مثل هذه الدوائر تدور أفكار براون، وربما تستمر هكذا بلا توقف في مؤلفه الجدلي الصادر عام 1658 تحت عنوان Hydriotaphia حول أواني رماد الموتى التي عُثر عليها آنذاك في حقل بالقرب من المزار الديني والسينغهام في نورفوك[1]. بالاستعانة بمختلف المصادر التاريخية ومصادر التاريخ الطبيعي يستفيض براون ويطيل في الحديث عن الأمور التي نقوم بها، عندما يستعد واحد منا للذهاب إلى مثواه الأخير. بداية بملحوظات عن مقابر طيور الكركي والأفيال وخلايا الدفن لدى النمل وعادة النحل إجراء جنازة لموتاها مع إخراجها من الخلية، ويصف بعد ذلك طقوس الدفن لدى شعوب عديدة وصولًا إلى النقطة الخاصة بالدين المسيحي الذي يدفن الجثمان الخاطئ بكامله ويخمد بذلك نهائيًا نيران حرق الجثث. وردًا على إرجاع هذه الممارسة التي تكاد تكون شبه عالمية في عصور ما قبل المسيحية إلى جهل الكفار بالحياة المنتظرة في الآخرة، يتخذ براون شهادة من صمت أشجار التنوب والسرو والطقسوس والأرز والأشجار الأخرى دائمة الخضرة، التي من

(1) تعود أواني الدفن هذه إلى العصر الروماني. المترجم.

أغصانها كانت تُشعل في الأغلب نيران حرق جثث الموتى كعلامة على الأمل الأبدي. وبخلاف ذلك يقول براون - على عكس كل الظنون عامة - إن حرق إنسان ليس أمرًا صعبًا. فبومبيوس أُحرق بقارب قديم فحسب، وأما ملك قشتالة فيُقال إنه قد تمكن دون حطب من إشعال نيران جلية بعدد أكبر من العرب[1]. أجل والآن - هكذا يضيف براون - لو كان الحمل على عاتق إسحق كافيًا لمحرقة، فسيكون باستطاعة كل منا أن يحمل حطب محرقته[2] على كتفيه. ومرارًا وتكرارًا يعود بالتأمل إلى ما تم الكشف عنه في منطقة الحفريات في هذا الحقل في والسينغهام. المثير للدهشة، حسبما يقول براون، هو كم الوقت الذي ظلت فيه هذه الأواني الفخارية الرقيقة سليمة على عمق قدمين تحت الأرض، فيما مرت فوقها سكاكين المحاريث والحروب، وبينما انهارت وتهاوت بيوت كبيرة وقصور وأبراج تبلغ عنان السماء. بدقة تُفحصُ الرفات المتبقية من الحريق في هذه الأواني، الرماد والأسنان المنفردة، وبقايا العظام التي تلفها جذور النجيل الباهتة مثل إكليل، والعملات المخصصة لملاح

---

(1) لا يحدد توماس براون في حديثه أي ملك من ملوك قشتالة هو المقصود ولكن الإشارة هنا إلى فترة محاكم التفتيش التي تلت طرد العرب من الأندلس وملاحقة من تبقى من المسلمين واليهود والتشكيك في إيمان من تحولوا إلى المسيحية للاعتقاد بأنهم يمارسون دينهم في الخفاء وقد أقيمت المحارق على نطاق واسع. أما بالنسبة لبومبيوس الكبير (106 - 48 ق.م.) القائد العسكري الروماني وغريم يوليوس قيصر، فلا يوجد في المصادر ما يشير إلى أنه مات محترقًا في قارب، لقد اغتيل على ظهر سفينته بأوامر من حاشية الملك الطفل بطليموس الثالث عشر، سعيًا لإرضاء يوليوس قيصر وبعد أن قطعت رأسه ووضعت على رأس حربة لتقديمها إلى يوليوس قيصر، أُحرق باقي جثمانه على الشاطئ. المترجم.

(2) الإشارة إلى الإصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين في العهد القديم، الآية 6 «فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على إسحق ابنه وأخذ بيده النار والسكين....» المترجم.

العالم الآخر[1]. بحرص يسجل براون أيضًا ما يعرفه بخلاف ذلك عما يوضع للموتى كعدة وزينة. مزيج من النوادر يشملها الكتالوج الذي ألفه بنفسه: سكين ختان يشوع بن نون، خاتم محبوبة الشاعر بروبيرتيوس، جنادب وسحالي من العقيق، سرب من النحل الذهبي، أحجار أوبال أزرق، أبازيم أحزمة فضية، أمشاط، ملاقيط ودبابيس من الحديد وبوق وقيثارة فم[2] من النحاس الأصفر، صدرت عنها آخر الأنغام أثناء الرحلة عبر المياه السوداء. لكن القطعة الأروع كانت من آنية رماد رومانية من مقتنيات الكاردينال دي فاريزه، عبارة عن كوب زجاجي سليم تمامًا، وفاتح اللون وكأنه قد صُنع لتوه. مثل هذه الأشياء المحمية من تيار الزمن تصبح في تصور براون رمزًا لما وعد به النص المقدس من عدم قابلية الروح الإنسانية للفناء، وهو الأمر الذي كان الطبيب البشري يشكك فيه ربما في سره، رغم معرفته برسوخ معتقده المسيحي. ولأن أثقل أحجار الميلانخوليا تتمثل في الخوف من نهاية لا أمل فيها لطبيعتنا، يبحث براون عن آثار القدرة الغامضة للتحول التي كثيرًا ما درسها لدى اليساريع والفراشات. مزقة القماش الحرير البنفسجية من آنية رماد باتروكليس[3] التي تحدث عنها براون، ماذا تعني إذًا يا ترى؟

---

(1) الإشارة هنا إلى خارون، ملاّح العالم السفلي في المثيولوجيا الإغريقية، الذي ينقل الأموات مقابل عملة توضع في أفواههم. المترجم.

(2) آلة موسيقية صغيرة تتكون من مزمار معدني مرن على طرف واحد من الإطار المعدني المقوس، والطرف الثاني مستدق منحن إلى الأمام على زاوية قائمة، يمسك العازفون الإطار المعدني بأسنانهم ويجعلون المزمار يهتز بضرب الطرف المدبب باليدين. تصدر القيثارة نغمات مختلفة بتغيير حجم وشكل تجويف الفم. المترجم.

(3) من شخصيات الإلياذة كان صديقا مقربا من أخيل، وقُتل في حروب طروادة وانتقم له أخيل. المترجم.

2

كان يومًا ملبدًا بسحب دانية عندما نزلتُ إلى الساحل في أغسطس 1992 بعربة قطار الديزل الملطخة حتى زجاج نوافذها بالسخام والشحم. آنذاك كانت تتنقل بين نورتش ولويستوفت. جلس الركاب القلائل الآخرين في الظلام تقريبًا على المقاعد البنفسجية المهترئة، في اتجاه السير، وبعيدين بقدر الإمكان بعضهم عن البعض، ولفهم صمت مطبق وكـأنهم لم ينطقوا أبدًا بكلمة طوال حياتهم. معظم الوقت دارت عجلات العربة التي تأرجحت في غير ثقة فوق القضبان في الفراغ، لأن الطريق باتجاه البحر يزداد انزلاقا. فقط من حين لآخر، عندما يشتغل المحرك بضربة واحدة مفاجئة تهز جسم القطار كله، كنا نسمع لبعض الوقت صوت طحن التروس، إلى أن نعود لمواصلة السير كما في السابق على وقع القرع المنتظم للعربة، مارين بأفنية خلفية وتجمعات لحدائق صغيرة ومقالب للركام ومخازن، وبالأهوار الممتدة على مشارف الضاحية الشرقية. عبر براندال وحدائق براندال وباكنهام وكانتلي، حيث يوجد معمل لتكرير السكر بمدخنة تنفث أبخرتها في نهاية طريق مسدود وسط حقل أخضر وكأنها باخرة راسية على مرفأ، يسير خط القطار بمحاذاة نهر بير، حتى يعبره عند ريدهام، ثم يتخذ منحنًى واسعًا باتجاه سهل ممتد في الجنوب الشرقي حتى شاطئ البحر. بخلاف أكواخ منفردة لحراسة الحقول تظهر بين الفينة والأخرى، لا يُرى هنا سوى الحشائش وأعواد البوص المتمايلة، وبعض أشجار الصفصاف الغارقة لأسفل بعض

الشيء، ومبانٍ متداعية ومنهارة من الطوب لها شكل مخروطي تبدو مثل شواهد على حضارة بائدة، وما تبقى من عدد لا يحصى من مضخات وطواحين الرياح التي دارت أشرعتها عبر مروج الأهوار في هالفرغيت وفي كل مكان على الساحل، حتى توقفت واحدة تلو الأخرى في العقود التالية على الحرب العالمية الأولى.

قال لي شخص ممن عايشوا في طفولتهم وجود طواحين الهواء، إنه يصعب علينا الآن تصوّر أن كل واحدة من هذه الطواحين البيضاء كانت تبدو في الماضي وسط الطبيعة مثل بريق الضوء في عين مرسومة. وعندما انطفأ هذا البريق انطفأت معه على نحو ما المنطقة بأسرها. ويكمل قائلًا: أحيانًا أعتقد، عندما أنظر إلى المنطقة، أن كل شيء قد مات. بعد ريدهام توقفنا في هاديسكو وهيرينغفليت، وهما قريتان موزعتان على مساحة واسعة ويصعب رؤية أي شيء منهما. نزلت في المحطة التالية التابعة لقصر سومرليتون الريفي. وواصلت عربة القطار ذات المحرك السير في الحال واختفت لمسافة في المنحنى المتموج قليلًا، وهي تجر وراءها غلالة من الدخان الأسود. لم يكن في المكان مبنى محطة، فقط مجرد

مظلة في الهواء الطلق. سرت بطول الرصيف الخالي، على الجانب الأيسر من الأهوار التي يبدو أنها لا تنتهي، وعلى الجانب الأيمن، وخلف سور حجري منخفض أجمات وأشجار حديقة القصر. لا شخص هنا يمكنك سؤاله عن الطريق. في الماضي كانت الأمور مختلفة عن الآن، هكذا قلت لنفسي وأنا أعلق حقيبة الظهر على كتفي وأعبر الجسر الخشبي فوق القضبان، فبالتأكيد كان تقريبًا كل شيء يحتاج إليه قصر مثل سومرليتون من أجل إكمال الممتلكات وكل ما هو مطلوب شراؤه من خارج المكان من أجل الحفاظ على الوضعية الاجتماعية التي لم تكن أبدًا مضمونة تمامًا، يصل في عربة البضائع بالقطار البخاري ذي الطلاء الأخضر الزيتوني إلى هذه المحطة - تجهيزات من كل نوع، البيانو الجديد، الستائر، والقيشاني الإيطالي، وصنابير الحمام، مراجل البخار، والمواسير الضرورية للصوبات الزراعية وتوريدات المشاتل التجارية وصناديق نبيذ الراين والبوردو، وآلات جز الحشائش، وعلب كبيرة بها مشدات للبطن من ألياف عظم الحوت وتنانير داخلية من لندن. والآن لا شيء هنا، ولا أحد، لا ناظر محطة يرتدي طاقية العمل البراقة، ولا خدمَ ولا حوذية ولا ضيوف مدعوين ولا حفلات صيد، ولا رجال يرتدون معاطف التويد التي لا تبلى ولا نساء يرتدين فساتين السفر الأنيقة. لحظة رعب، هكذا يجول بخاطري، ينقضي بعدها عصر كامل. في يومنا هذا صارت سومرليتون مثلها مثل كثير من بيوت النبلاء الريفية متاحة للجمهور الميسور ماليًّا. لكن هؤلاء لا يأتون بعربة قطار الديزل، بل يدخلون بسياراتهم عبر المدخل الرئيس. وبالطبع فإن كل خدمات الزوار مصممة لأجلهم. لكن إذا وصل أحد مثلي إلى محطة القطار، فعليه مبدئيًّا كي لا يقوم بنصف دورة حول المكان، أن يتسلق السور مثل لص وأن يعافر الأغصان المتشابكة حتى يعبر إلى الحديقة. مثل عِبرة نادرة من

تاريخ التطور الذي يستحضر أطواره السابقة أحيانًا بنوع من السخرية من الذات، أثّر فيّ أنني رأيت أثناء خروجي من بين الأشجار نموذج قطار مصغر ينفث بخاره عبر الحقول ويجلس فيه عدد من الناس، ذكروني بالكلاب التي ترتدي الثياب أو بكلاب البحر في السيرك. وفي مقدمة القطار الصغير جلس لورد سومرليتون الحالي، المسؤول عن خيول جلالة الملكة، كسائق للقطار ورئيس للحيوانات المدربة. انتقلت ضيعة سومرليتون التي كانت في أواخر القرون الوسطى في حوزة عائلتي فيتز - أوسبيرت وجيرنغان، عبر القرون إلى سلسلة من العائلات سواء من خلال الزواج أو صلة الدم. لقد انتقلت من آل جيرنغان إلى آل وينتوارث، إلى آل غارني ومن آل غارني إلى آل آلان، ثم إلى آل أنغويش الذين انتهت سلالتهم في عام 1843. في العام نفسه كان اللورد سيدني غودولفين أوزبورن، الذي تربطه صلة قرابة بعيدة بالسلالة المنقرضة ولم يرغب في الإرث، قد باعَ كلَّ المنطقة لشخص يدعى السير مورتون بيتو. وبيتو هذا ينحدر من أصول متواضعة لكنه كوّن نفسه عصاميًّا بدءًا من العمل كعامل بناء بسيط، وكان قد بلغ لتوه عامه الثلاثين عندما حصل على ضيعة سومرليتون. لكنه كان يعد من أهم رجال الأعمال والمضاربين في عصره. لقد وضع معايير جديدة من جميع النواحي في تخطيط وتنفيذ مشروعات فخمة في لندن، من بينها منشأة سوق هانغرفورد وبناء نادي الإصلاح Reform Club وعمود نيلسون وعدد من مسارح وست - إند. علاوة على ذلك فقد حقق خلال فترة وجيزة جدًّا ثروة هائلة من خلال إسهامه المالي في توسيع خطوط السكك الحديدية في كندا وأستراليا وإفريقيا والأرجنتين وروسيا والنرويج، بحيث كان عليه أن يتوج صعوده إلى طبقات المجتمع العليا بإنشاء مقر إقامة ريفي يفوق بمراحل كل ما سبقه من حيث أسباب الراحة والفخامة. وبالفعل أنجز مورتون بيتو

خلال سنوات قليلة المبنى الذي كان يحلم به: قصر أميري على الطراز المسمى بالأنغلو - إيطالي بتجهيزات داخلية كاملة في محل البيت الإقطاعي القديم الذي هُدم. في عام 1852 نُشرت في مجلة Illustrated London News والمجلات الأخرى المهمة تقارير غاية في الإسهاب عن ضيعة سومرليتون التي اشتُرِيَت حديثًا، واشتهرت على ما يبدو بأن الفواصل ما بين داخل المبنى وخارجه تكاد تكون غير ملحوظة، فالزوار لم يستطيعوا تحديد أين تنتهي الطبيعة وأين يبدأ ما هو مِن صُنع الإنسان. فالصالونات تتبعها حدائق شتوية والقاعات الواسعة تتلوها شرفات. كانت ثمَّت ممرات تتلاقى عند مغارة تغطيها نباتات السرخس مع نافورة ترشرش الماء باستمرار. وممرات الحديقة المظللة بتكعيبات تتقاطع تحت قبة مسجد باهرة. ونوافذ قابلة للإسقاط تفتح القاعة على الخارج، في حين تظهر المناظر الطبيعية على الجدران ذات المرايا في الداخل. وصوبات زجاجية للنخيل والنباتات الاستوائية والحمضيات، والنجيل الذي يشبه ثوبًا مخمليًّا أخضر، وكسوة طاولات البلياردو وباقات الورود في الغرف الصباحية وغرف الراحة وفي مزهريات المايوليكا في الشرفة، وطيور الجنة والدُراج الذهبي على أوراق الحائط الحريرية، والحساسين في الأقفاص والبلابل في الحديقة، وزخارف السجاد وروضة الزهور التي تسيجها أغصان شجيرات الزان، كل هذه الأشياء كانت ألوانها تتفاعل على نحو يستحضر وهم التناغم التام بين ما ينمو في الطبيعة وما هو مصنوع. المنظر الأروع، كما ورد في وصف معاصر لتلك الفترة، هو لسومرليتون في ليلة صيفية، عندما يشع ويبرق من الداخل ضوء البيوت الزجاجية الفريدة المحمولة على أعمدة ودعائم من الحديد الزهر التي تبدو بمظهرها الرقيق وكأنها تسبح في الهواء. عدد لا يحصى من مصابيح أرغاند، يحترق الغاز السام في لهبها الأبيض بأزيز خافت،

وتنشر بفضل عواكسها المفضضة ضوءًا ساطعًا جدًّا يشبه الضوء الذي ينبض به تيار الحياة على أرضنا. حتى كولريدج وهو في غفوة الأفيون، لم يكن ليتخيل مشهدا أكثر سحرًا من هذا لأميره المغولي قوبلاي خان. والآن تخيل، هكذا يستطرد الكاتب، أنك خلال حفل ليلي قد صعدت مع شخص مقرب لك جدًّا برج أجراس سومرليتون ووقفتما في شرفته العلوية، حيث لامسكما جناح طائر ليلي مرَّ لتوه خافقًا بلا صوت! ومن الجادة الكبيرة تهب نسمة حاملة إليكما رائحة زهور الزيزفون العطرة الآخاذة، وفي الأسفل تريان الأسطح شديدة الانحدار المغطاة بألواح من الإردواز الأزرق الداكن، والمساحات السوداء المستوية من النجيل في انعكاس البيوت الزجاجية التي تسطع بيضاء كالثلج. وعلى مسافة أبعد في الحديقة بالخارج تتحرك ظلال أشجار الأرز اللبنانية، وفي حديقة الأيائل تنام الحيوانات الخجولة بعين مفتوحة، ووراء الأسوار الخارجية وفي مواجهة الأفق تمتد الأهوار وتدور أشرعة طواحين الهواء مع الريح.

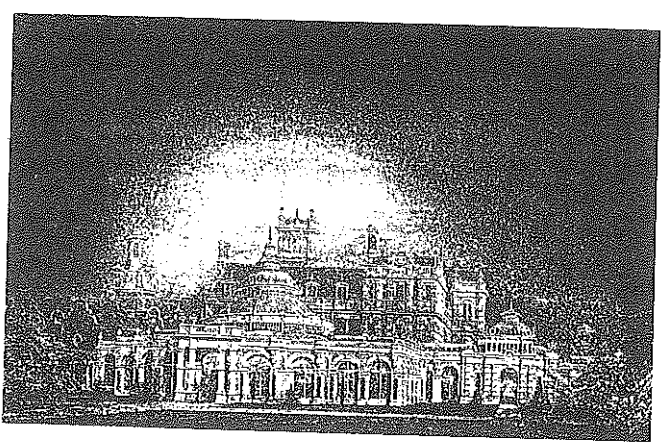

لم يعد قصر سومرليتون يترك على الزائر الحالي هذا الانطباع بأنه قصر شرقي أسطوري. فالممرات الزجاجية وصوبة النخيل التي كانت

قبتها تضيء الليالي في الماضي، قد احترقت بعد انفجار غازي عام 1913 وهُدمت بعد ذلك. وكان الخدم الذين حافظوا على كل شيء، مديرو المنزل والحوذية والسائقون والبستانية والطباخات والخياطات والوصيفات، قد سُرّحوا منذ فترة. الآن تبدو أجنحة القصر غير مستعملة ومغبرة. بهتت الستائر المخملية وحاجبات الضوء ذات اللون الأحمر النبيذي. وتآكل تنجيد الأثاث. والسلالم والممرات التي يعبر المرء منها أصبحت مكدسة بأشياء لا نفع منها ولم تعد مستعملة. في صندوق سفر مصنوع من خشب الكافور، سافر به ربما أحد سكان القصر إلى نيجيريا أو إلى سنغافورة، توجد مطرقات كروكيت وكرة خشبية، ومضارب غولف، وعصي بلياردو ومضارب تنس، ومعظمها صغيرة وكأنها كانت لأطفال أو أنها قد تقلصت بمرور السنين. على الجدران تعلقت قدور نحاسية وقصاري، وسيوف لفرسان الهوصار، وأقنعة إفريقية، ورماح، وتذكارات صيد من رحلات السافاري، ولوحات زنكوغرافية ملونة لمعركة في حرب البوير – معركة بيترس هيل ولوحة نقش بارز لمنطقة ليديسميث في جنوب إفريقيا: منظر بانورامي من منطاد مراقبة. وبعض البورتريهات لأفراد العائلة رسمها فنانون لهم علاقة بالحداثة، على الأغلب في الفترة ما بين 1920 و1960، وعليها وجوه الشخصيات المرسومة بلون الجص وقد تخللتها بقع قرمزية وبنفسجية بشعة. وفي المدخل يوجد دب محنط يزيد طوله على ثلاثة أمتار، ينظر مثل شبح أحناه الكرب إلى فرائه المصفر الذي أكله العث. في الحقيقة لا يعرف المرء أحيانًا عندما يزور القاعات المفتوحة للجمهور من قصر سومرليتون، إن كان في مقر إقامة ريفي في سافوك أو في مكان ناء جدًّا تقريبًا خارج الحدود على ساحل بحر الشمال أو في قلب القارة السمراء. كما لا يتبين أيضًا في أي عقد أو قرن نحن، لأن عصورًا كثيرة تراكمت هنا ولا تزال مستمرة بعضها إلى جنب البعض.

عندما تجولت في عصر يوم في أغسطس مع مجموعة الزائرين القليلين الباقين عبر قاعة سومرليتون، وجدتني أفكر بالضرورة مرارًا في محل رهنيات أو محل للسلع المستعملة. لكن هذا العدد الكبير من الأشياء المكدسة التي تنتظر بشكل ما عبر أجيال يوم المزاد، هي التي اجتذبتني لهذه الممتلكات المكونة من الكثير من الأشياء العبثية.

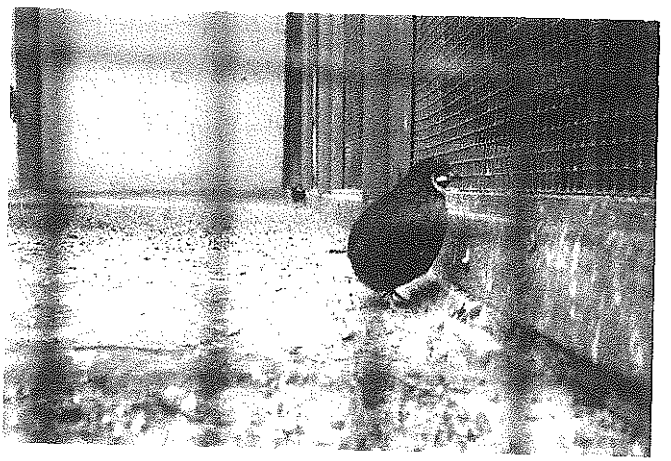

لا بد أن قصر سومرليتون كان منفرًا في زمن رجل الأعمال الكبير والنائب البرلماني مورتون بيتو، هكذا فكرت، عندما كان كل شيء جديدًا تمامًا، من القبو إلى السطح ومن أدوات المائدة إلى المراحيض، ومُنسَق ليتناسب بعضه مع بعض حتى أدق التفاصيل، وكله دون هوادة بذوق جيد. وكم يبدو لي هذا البيت الإقطاعي جميلًا الآن وهو يقترب بصورة غير ملحوظة من حافة الانهيار والخراب الزاحف في صمت. من ناحية أخرى شعرت بالانقباض عندما خرجت من الجولة في القصر إلى الهواء الطلق، ورأيت في أحد أقفاص الطيور التي كانت معظمها مفتوحة، طائر سمان وحيد من النوع الأزرق الآسيوي، كان على ما يبدو يعاني حالة من الخرف - كان يسير دائمًا بحذاء السياج الأيمن لقفصه جيئة وذهابًا وفي

كل مرة قبل أن يعود، يهز رأسه وكأنه لا يفهم كيف تورط في هذا الوضع الميؤوس منه.

وعلى النقيض من البيت الذي يقترب تدريجيًّا من التداعي، كانت الحدائق المحيطة به، حاليًّا، وبعد قرن من عصر ازدهار سومرليتون، في ذروة تطورها. صحيح أن أحواض الزهور كانت في الماضي أكثر زهوًا ومعتنى بها أكثر، إلا أن الأشجار التي زرعها مورتون بيتو تملأ الأجواء فوق الحديقة وأشجار الأرز التي كانت آنذاك محل إعجاب الزائرين، وامتدت بعض أغصانها لتغطي ما يقرب من ربع فدان إنجليزي، أصبح لها في الأثناء عالمها الخاص. كان ثمَّت أشجار سيكويا تربو في طولها على الستين مترًا، وأشجار جميز نادرة، كانت فروعها الخارجية متدلية على النجيل، وتلك التي لامست الأرض منها كانت تثبت جذورها لتنمو من جديد في دورة مكتملة. يمكن للمرء أن يتصوّر بسهولة أن هذه الأنواع من أشجار الدلب تنتشر على الأرض مثل الحلقات ذات المركز المشترك في الماء، وأنها من خلال غزوها لمحيطها بهذه الطريقة تضعف تدريجيًّا ويلتحم بعضها ببعض وتموت من الداخل. بعض الأشجار الأفتح لونًا تتهادى على مستوى السحب فوق الحديقة. وبعضهاالآخر كان ذا خضرة داكنة قاتمة. تنمو قمم الأشجار بعضها فوق ببعض مثل الشرفات، وإذا لم يدقق المرء النظر قليلًا، فسيبدو المنظر وكأن المرء أمام جبال تغطيها غابة ضخمة. لكن متاهة أشجار الطقسوس الواقعة وسط المنطقة المليئة بالأسرار في ضيعة سومرليتون، قد بدت لي الأكثر كثافة وخضرة. وقد تُهتُ فيها تمامًا، ولم أجد مخرجًا إلا عندما قمت بعمل علامة في الرمل الأبيض بكعب حذائي عند كل ممر تبين أنه خاطئ. بعد ذلك وفي إحدى الصوبات الطويلة المبنية بحذاء السور الحجري لحديقة المطبخ، دخلت في حديث مع وليم هيزل، البستاني الذي يشرف حاليًّا على حدائق

سومرليتون بمعاونة بعض العمال غير المدربين. عندما تبين له من أي بلد أنا، بدأ يحكي لي أنه خلال آخر سنواته في المدرسة وخلال فترة التأهيل المهني اللاحقة لم يهيمن شيء على تفكيره مثلما فعلت الحرب الجوية على ألمانيا التي انطلقت عام 1940 من ستة وسبعين مدرجًا للطائرات في إيست أنغليا. وتقريبًا لم يعد من الممكن إيجاد مصطلح يصور حجم هذه العملية. فقد استهلك الأسطول الجوي الثامن خلال ألف وتسعة أيام من الهجمات المستمرة مليارَ غالون من الغازولين وألقى سَبعَ مئة واثنين وثلاثين ألف طن من القنابل، وفُقدت خلالها ما يقرب من تسعة آلاف طائرة وخمسين ألف رجل. كل مساء كنت أرى أسراب قاذفات القنابل تمر فوق سومرليتون، وليلةً بليلةً كنت أتخيل قبل النوم اشتعال النيران في المدن الألمانية واستعار لهيب الحرائق العاصفة في السماء، والناجين وهم يتقلبون وسط الحطام والركام. في أحد الأيام - واصل هيزل حديثه - شرح لي اللورد سومرليتون وهو يساعدني على سبيل التسلية في تقليم الكرمة بهذه الصوبة، الاستراتيجية المتبعة للحلفاء في هجومهم الشامل. وأحضر لي خريطة كبيرة مجسمة لألمانيا، عليها كل أسماء الأماكن التي كنت أعرفها من نشرات الأخبار. كانت مكتوبة بخط غريب وتظهر إلى جانبها صور رمزية للمدن. وحسب عدد السكان تقل أو تزيد رموز أسطح المنازل وأسوار القلاع والأبراج. وفي حالة الأماكن المهمة، يظهر أيضًا شعار المدينة مثل كاتدرائية كولونيا، ومبنى رومر في فرانكفورت، وتمثال رولاند في بريمن. كانت صور المدن بحجم طابع بريد وتبدو مثل قلاع فرسان رومانسية. وفعلا كنت أتصور الرايخ الألماني آنذاك بلدا قروسطيا غاية في الغموض. مرارًا وتكرارًا درست على الخريطة المناطق المختلفة من الحدود البولندية إلى الراين ومن السهول الخضراء الواطئة في الشمال، إلى جبال الألب ذات اللون البني الداكن التي يغطي

الثلج والجليد بعض مناطقها دائمًا وأبدا. وتهجيت أسماء المدن التي شاع نبأ دمارها: براونشفايغ وفورتسبورغ وفيلهلمسهافن وشفاينفورت وشتوتغارت وبفورتسهايم ودورين ومدن أخرى عديدة. بهذه الطريقة حفظت خريطة البلد عن غيب. بل يمكن القول إنها حُفرت بداخلي. على كل حال أحاول منذ ذاك الوقت أن أعرف كل شيء له علاقة بالحرب الجوية. بل تعلمت بعض الألمانية، عندما ذهبت مطلع الخمسينات إلى لونهيبرغ مع قوات الاحتلال، من أجل أن أتمكن من قراءة ما كتبه الألمان أنفسهم من تقارير عن الحرب الجوية وعن حياتهم في المدن المدمرة. ولدهشتي سرعان ما تبين لي طبعًا أن بحثي عن مثل هذه التقارير لم يفض إلى شيء. على ما يبدو لم يكتب أحد آنذاك عن هذا الأمر أو تذكّره. وحتى عندما كنت أسأل الناس بشكل شخصي، كان وكأن كل شيء قد مُحي من رؤوسهم. لكنني لا أستطيع حتى اليوم أن أغمض عيني من دون أن أرى تشكيلات قاذفات لانكستر وهاليفاكس والليبراتور وما يسمى بالحصون الطائرة وهي تطير إلى ألمانيا عابرة بحر الشمال وتعود في الفجر وهي متفرقة بعضها عن البعض. في بداية إبريل 1945، قبل نهاية الحرب بفترة وجيزة – قال هيزل وهو يكنس براعم الكرم المقلمة – كنت شاهدًا على سقوط طائرتين من طراز ثاندربولت من سلاح الجو الأمريكي على سومرليتون. كان يوم أحد جميلًا. وكان عليّ أن أساعد أبي في إصلاح عطل طارئ ببرج الأجراس الذي كان في حقيقة الأمر خزان مياه. وعندما انتهينا من العمل، صعدنا إلى الشرفة العلوية التي يمكنك منها أن ترى كل المنطقة الواقعة خلف الساحل. لم نكد أن نلتفت، حتى قام الطياران العائدان من دورية، من باب الغرور المحض، بخوض نزال جوي فوق ضيعة سومرليتون. تمكنّا من التعرف بوضوح على وجهي الطيارين خلف زجاج الكابينة. زأرت محركات الطائرتين فيما تطارد إحداهما

الأخرى، أو تطيران معًا جنبًا إلى جنب وسط أجواء الربيع الباهرة، حتى تلامست أطراف أجنحتهما خلال اندفاعة. كان الأمر يبدو مثل لعبة ودية، قال هيزل، وعندها سقطتا، على الفور تقريبًا.

وعندما اختفتا وسط أشجار الحور البيضاء والصفصافات، شعرت بأنني متوتر تمامًا في انتظار وقوع الانفجار. لكن لم تتصاعد ألسنة لهب ولا سحب دخان. لقد ابتلعهتما البحيرة في صمت. ومرت سنوات حتى انتُشلتا. إحدى الطائرتين كان اسمها بيغ ديك والثانية ليدي لوريلاي. أما الطياران الضابطان راسل ب. جاد من فرساي/ كنتاكي ولويس س. دافيس من أثينا/ جورجيا، أو ما تبقى من رفاتهما، فقد دُفن في التربة هنا.

بعدما ودعت وليام هيزل، احتجت لساعة كاملة للذهاب من سومرليتون إلى لويستوفت سيرًا على الأقدام بطول الطريق الزراعي ومرورًا بسجن بلنَدستون الكبير الذي يبرز فوق الأرض المستوية مثل مدينة محصنة، ويقضي فيه على الأغلب نحو ألف ومئتي سجين عقوبتهم. كانت الساعة السادسة مساء عندما وصلت إلى ضواحي لويستوفت. عبر صفوف المباني الطويلة في الشوارع التي كان علي أن أمر بها، لم أرَ

كائنًا حيًّا، وكلما اقتربت من المركز، شعرت بالانقباض مما رأيت. لقد كنت ربما قبل خمسة عشر عامًا آخر مرة في لويستوفت. كان ذلك في أحد أيام يونيو وكنت مع طفلين على الشاطئ وتهيأ لي أنني أذكر أنها كانت مكانًا متخلفًا بعض الشيء، لكنه بخلاف ذلك لطيف جدًّا. لكن ما بدا لي غير مفهوم الآن أثناء دخولي إلى لويستوفت هو كيف تداعت وتدهورت إلى هذا الحد خلال فترة قصيرة نسبيًّا. بالطبع كنت أعرف أن انهيار لويستوفت لم يتوقف منذ الأزمات الاقتصادية الحادة والكسادات التي وقعت في الثلاثينيات. لكن حوالي عام 1975، عندما بدأت حفارات البترول تتزايد في بحر الشمال، كانت ثمَّت آمال في تحول نحو الأفضل، آمال تضخمت أكثر وأكثر في عصر الرأسمالية الواقعية للبارونة مارغريت ثاتشر، حتى انهارت في حمى المضاربات إلى لا شيء. مثل حريق تحت الأرض، ثم مثل نار تشتعل في الهشيم انتشر الخراب، وأُغلقت ترسانات ومصانع، الواحد تلو الآخر، حتى لم يتبقَّ شيء يقال عن لويستوفت سوى أنها تقع في أقصى نقطة شرقية في الجزر البريطانية. والآن تجد في بعض الشوارع نحو نصف عدد البيوت معروض للبيع، وأصحاب الشركات ورجال الأعمال والأشخاص العاديين يغرقون أكثر فأكثر في ديونهم، وأسبوعًا تلو الآخر يشنق عاطل عن العَمل أو شخص أشهر إفلاسه نفسه. ربع السكان أميين، وليس ثمَّت نهاية مرتقبة للبؤس المستشري باستمرار. ورغم معرفتي بكل هذا، فلم أكن مستعدًّا لهذه الكآبة التي تلف المرء في الحال في لويستوفت. فأن تقرأ في تقارير الصحف عما يسمى بؤر البطالة السوداء شيء، وأن تمشي في ليلة مظلمة عبر صفوف البيوت بواجهاتها المشوهة وحدائقها الأمامية الغريبة شيء آخر. وعندما تصل إلى وسط المدينة، لا تجد شيئًا سوى صالات قمار ومحلات يانصيب (البينغو)، ومكاتب رهان، ومحلات فيديو وحانات تخرج من فتحة أبوابها رائحة

بيرة مرة، ومحال للسلع الرخيصة ونُزل مشبوهة تحمل أسماء مثل *Ocean Dawn* أو *Beachcomber* أو *Balmoral* أو *Layla Lorraine*. لم يكن من السهل تخيل المصطافين أو مندوبي المبيعات الذين ربما قد ارتادوا مثل هذه الفنادق، ولا تخيل أن فندق فيكتوريا، الذي صعدت درجات سلّمه المؤدي إلى المدخل والمطلي بلون أزرق بحري، لا يزال ينطبق عليه الوصف الذي كُتب عنه في دليل سياحي نُشر بعد مطلع القرن العشرين بقليل، وهو أنه فندق على الكورنيش بمواصفات ممتازة. وقفت لفترة في الردهة الخالية، بل تجولت في الأروقة المهجورة في وسط الموسم - إن كان يمكن الحديث بالأساس عن موسم في لويستوفت - قبل أن أعثر على شابة مذعورة، أعطتني بعد بحث عبثي في سجل الاستقبال مفتاحًا ثقيلًا للغرفة معلقًا في ميدالية على شكل ثمرة كمثرى خشبية. لفت انتباهي أن لباسها يعود إلى موضة الثلاثينيات، وأنها تجنبت النظر إلي. دائمًا ما كانت نظرتها للأرض أو كانت تخترقك وكأنك لست موجودًا. وهذه الشخصية المذعورة هي نفسها من أخذت طلبي عندما جلست في المساء في صالة الطعام الكبيرة بمفردي، وهي التي جلبت لي بعدها بقليل سمكة كانت بالتأكيد مدفونة منذ أعوام في ثلاجة التجميد، انبعجت أسنان شوكتي في جلد السمكة المصفح المغطى بالبقسماط والمحترق بنار الشواء في بعض المواضع. حقًّا لقد تطلب الأمر مني جهدًا كي أنفذ إلى داخل هذا الشيء الذي تبين في النهاية أنه عبارة فقط عن هذه القشرة الخارجية الصلبة التي تغلفه، بحيث بدا منظر طبقي بعد هذه العملية بشعًا. واكتسب صوص الترتار الذي أخرجته بالضغط على كيس بلاستيكي صغير لونًا رماديًّا في الطبق بسبب البقسماط المتفحم، أما السمكة نفسها أو ما يفترض أنه يمثلها، فكان نصفها مهروسًا تحت البِسلّة الإنجليزية الخضراء وبقايا بطاطس الشيبس التي تلمع بفعل الدهون. لم أعد أعرف

كم بقيت في صالة الطعام المكسوة جدرانها بورق حائط أحمر نبيذي، إلى أن هُرعت السيدة المشوشة التي تقوم وحدها على الأغلب بكل الأعمال في الفندق، قادمة من الخلفية التي تتكاثف ظلالها أكثر فأكثر، لترفع الأطباق وأدوات المائدة. ربما أتت مباشرة بعد أن وضعتُ أدوات المائدة جانبًا، أو ربما بعد ذلك بساعة. أتذكر فقط البقع القرمزية التي رأيتها تبرز على رقبتها عبر فتحة البلوزة، عندما انحنت على طبقي. عندما اختفت ثانية في صمت، وقفتُ وذهبت إلى الشباك نصف الدائري المطل على البحر. في الخارج امتد الشاطئ في منطقة ما بين العتمة والنور، ساكنًا بلا حراك، لا في الجو ولا في البر ولا في الماء. وحتى الأمواج البيضاء كالثلج التي ارتطمت بالخليج، بدت لي ساكنة.

عندما غادرت فندق «فكتوريا» في الصباح التالي حاملًا حقيبة ظهري على كتفي، كانت لويستوفت بسمائها الخالية من السحب قد بُعثت للحياة مجددًا. مرورًا بحوض الميناء، الذي قبعت فيه عشرات القوارب الخارجة

من الخدمة أو العاطلة عن العمل مربوطة بالحبال، سرتُ باتجاه الجنوب إلى شوارع المدينة المكتظة نهارًا بالسيارات والمشبعة بعوادم البنزين الزرقاء. عند مبنى المحطة الرئيسة التي لم ترمم ولو لمرة واحدة منذ بنائها في القرن الماضي، مرقت من أمامي فجأة سيارة سوداء لنقل الموتى بين سيارات أخرى. جلس داخلها موظفان من مكتب دفن الموتى بسمت جاد، السائق والشخص الجالس بجانبه، وخلفهما في صندوق السيارة وداخل النعش، رقد - حسَب ما هو مفترض - شخصٌ فارق الحياة منذ فترة غير طويلة، مرتدٍ بذلة يوم الأحد، ورأسه على وسادة صغيرة، مغلق الجفنين، بيدين متشابكتين، وبوز الحذاء يشير لأعلى. تذكرت وأنا أنظر إلى سيارة نقل الموتى هذا الحرفي الشاب من توتلينغن[1] الذي التحق في أمستردام قبل سنوات بعيدة بموكب جنازة لتاجر معروف، واستمع أثناء دفنه بخشوع وتأثر لعظة الدفن باللغة الهولندية التي لم يفهم منها كلمة واحدة. وكان قبلها قد أعجب بحسد بزهور الزنبق والمنثور والنجمة التي تزين نوافذ بيت التاجر، والصناديق والبالات والبراميل المليئة بالسكر والتوابل الأُرز المملوكة لهذا السيد التي وصلت للميناء من الهند الشرقية، ومنذ ذلك الحين، صار كلما سأل نفسه، لماذا لم يحقق شيئًا خلال تجواله في الدنيا، كان دائمًا يتذكر هذا التاجر من أمستردام، الذي رافقه إلى مثواه الأخير، ويتذكر بيته وسفينته الفخمة وقبره الضيق. وفيما تدور هذه القصة في رأسي توجهت خارجًا من هذه المدينة التي

(1) قصة من «حكايات الرزنامة» لمؤلفها يوهان بيتر هيبل (1760 - 1826) بعنوان «كانيتفرستان» وتدور حول شاب قروي ألماني لا يفهم الهولندية يزور أمستردام وكلما سأل عن شيء يقال له «كانيتفرستان» أي لا أفهم ما تقول وهو يظن أن «كانيتفرستان» شخص يمتلك بيتا جميلا وبضائع كثيرة في الميناء، ثم يسير في جنازة ويسأل عن صاحبها فيجيئه الرد أيضًا «كانيتفرستان» فيرضى بحاله قانعًا بأن الدنيا لا تدوم لأحد.

تعاني في كل أرجائها من آثار القحول الزاحف تدريجيًّا، تلك المدينة التي لم تكن خلال فترة ازدهارها أحد أهم موانئ الصيد في المملكة المتحدة فحسب، بل كان يشاد بها خارج البلاد باعتبارها أفضل منتجع صحي. آنذاك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أُنشئ تحت إشراف مورتون بيتو على الضفة الأخرى لنهر ويفني ما يسمى بالمدينة الجنوبية التي ضمت سلسلة من الفنادق استطاعت أن تلبي متطلبات الأوساط اللندنية الراقية وإلى جانب الفنادق أُنشئت قاعات ومقصورات وكنائس ومعابد صغيرة لكل الطوائف، ومكتبة وقاعة للبِلياردو ومقهى للشاي على شكل معبد وخط ترام بمحطة فخمة ومتنزه واسع وجادات وملاعب للبولينغ العشبي، وحدائق نباتات ومسابح للمياه العذبة ومياه البحيرات، كما أُسست جمعيات واتحادات لتجميل المدينة. وكما جاء في وصف معاصر لهذه الفترة فإن لويستوفت قد بلغت خلال هذه الفترة الوجيزة جدًّا المرتبة الأعلى في التقدير من قبل الرأي العام وامتلكت كل المرافق اللازمة لمنتجع يتمتع بشهرة واسعة. وبحسب المقال فإن من يجول ببصره أسفل البنايات التي أُنشئت عند الشاطئ الجنوبي، سيلحظ بوضوح في رونقِ وكمالِ ما أُنجز هنا، الأثرَ الإيجابي لوجود عقل مدبر يعمل حتى أدق التفاصيل وفقًا لخطة شاملة. ودرة التاج في هذا المشروع النموذجي من جميع النواحي تتمثل في المرفأ الممتد لأكثر من أربع مئة متر في بحر الشمال، ويقال إنه الأجمل في كل الساحل الشرقي. فوق سطح الممشى المصنوع من ألواح الماهوغني الإفريقي تنتصب مباني المرفأ البيضاء التي تضاء عند حلول الظلام بمصابيح الغاز. ويوجد فيها إلى جانب قاعات أخرى، قاعة للقراءة وللحفلات الموسيقية مزودة بمرايا عالية تكسو الجدران. وحسبما قال لي جاري فريدريك فارار الذي تُوفي قبل عدة أشهر، كان يُقام بها في نهاية سبتمبر حفل سنوي

خيري مع اختتام سباق القوارب برعاية أحد أعضاء العائلة المالكة. وكما حكى لي ذات مرة فإنه قد وُلد عام 1906 في لويستوفت، وجاءت ولادته متأخرة كثيرًا عن موعدها المحدد. وهناك أيضًا ترعرع في كنف ورعاية أخواته الثلاث: فيوليت وإيريس وروز، إلى أن أُرسل في مطلع عام 1914 إلى ما يسمى بالمدرسة الإعدادية بالقرب من فلور في مقاطعة نورثهامبتونشير. يقول فريدريك فارار مسترجعًا ذكرياته: آلام الفراق الصعب، التي دهمتني لوقت طويل هناك، خصوصًا قبل النعاس وأثناء ترتيب أشيائي، تحولت في صدري إلى نوع من الكبرياء الشاذ، عندما وجب علينا في ذات ليلة في مطلع العام الدراسي الثاني أن نقف في الساحة الغربية للمدرسة ونستمع إلى خطبة وطنية من ناظر مدرستنا حول خلفيات الحرب التي اندلعت خلال العطلة ومغزاها الأسمى. وبعد نهاية الخطبة، قال فارار، بقي في ذاكرتي إلى يومنا هذا تلميذ عسكري اسمه فرانسيس براون نفخ في البوق إيذانًا بانتهاء الخطابة. ما بين عامي 1924 و1928 درس فريدريك فارار الحقوق في كامبريدج ولندن، وذلك بناء على رغبة والده الذي كان موثقًا للعقود وكان لفترة طويلة أيضًا قنصلًا للدنمارك والإمبراطورية العثمانية. وتبعًا لذلك قضى - كما يقول أحيانًا بشيء من الإحباط - أكثرَ من نصف قرن في مكاتب المحاماة وساحات المحاكم. ونظرًا إلى أن القضاة في إنجلترا يبقون في العادة في مناصبهم حتى عمر متقدم، لم يتقاعد فريدريك فارار إلا عام 1982 عندما اشترى البيت في جوارنا ليهب نفسه هناك تمامًا لزراعة الورود وزهور البنفسج النادرة. ولست هنا في حاجة إلى القول إن زهور السوسن (إيريس) كانت أيضًا من زهوره المفضلة. على مدى عقد كامل استزرع فريدريك فارار بالاستعانة بعامل يساعده يوميًّا، حديقة تضم عشرات التنويعات من الزهور المعتنى بها. وكانت من أجمل حدائق المنطقة. وبعدما أصيب

بسكتة دماغية أصابته بوهن شديد، كثيرًا ما كنت أجالسه فيها وأصغي لحكاياته عن لويستوفت وعن الماضي. وفي هذه الحديقة أيضًا كانت نهاية فريدريك فارار. كان ذلك في يوم بديع في مايو، عندما أشعل خلال جولته الصباحية النار في روبه المنزلي، بالقداحة التي يحملها في جيبه دائمًا. وعثر عليه مساعده في الحديقة بعد ساعة وقد سقط مغشيًّا عليه بحروق بالغة في كل أنحاء جسده، في موضع بارد وشبه ظليل من الحديقة، حيث انتشرت زهور بنفسج اللابرادور ذات البتلات الضئيلة المائلة أكثر للسواد التي شكلت شبه مستعمرة كاملة. وقضى فريدريك فارار في اليوم نفسه متأثرًا بجراحه. وأثناء الجنازة في المدفن الصغير في فارمينغهام إيرل، تذكرت عازف البوق الصغير فرانسيس براون الذي نفخ في البوق ليلًا في صيف عام 1914 في فناء مدرسة في نورثهامبتونشير، وفي مرفأ لويستوفت الأبيض الذي امتد آنذاك بعيدًا داخل البحر. حكى لي فريدريك فارار أنه في مساء الحفل الخيري، كان السكان العاديون الذين لا يسمح لهم بالطبع بحضور مثل هذه الفاعليات يخرجون بمئات القوارب والمراكب إلى قمة المرفأ لكي يشاهدوا من منصاتهم المتمايلة بخفة التي تنجرف أحيانًا قليلًا مع الأمواج، كيف تدور الطبقة الأرقى في دوائر على أنغام الأوركسترا، وتتهادى مثل فيض ضوئي فوق الماء المظلم كالليل الذي تغطيه غالبًا في هذه الفترة الخريفية سحب من الضباب. قال لي فريدريك ذات مرة: إذا ما نظرت اليوم إلى ذاك الزمن، فإنني أرى كل شيء خلف غلالات بيضاء متهادية: أرى المدينة من ناحية البحر، والفيلات الممتدة حتى الشاطئ في الأسفل والمحاطة بالأشجار والأجمات، وضوء الصيف والشاطئ الذي مررنا به ونحن بصدد العودة من إحدى النزهات إلى البيت، وأبي ورجل أو رجلين آخرين وقد شمروا سراويلهم، وأمي وحدها تحمل مظلة، وأخواتي وقد ضممن تنانيرهن،

وفي الخلف الخدم ومعهم الجحش الذي وجدت لنفسي مكانًا على ظهره بين السلتين المعلقتين عليه. وذات مرة، قال فريدريك فارار، حلمتُ بهذه الصورة وبدت لي عائلتنا مثل الحاشية الصغيرة للملك جيمس الثاني[1] في منفاه على ساحل لاهاي.

(1) الملك جيمس الثاني (1633 – 1701) ملك إنجلترا، أطاحت به «الثورة المجيدة» عام 1688 بسبب استبداده ومعتقده الكاثوليكي. المترجم.

3

على بعد ثلاثة إلى أربعة أميال من لويستوفت يسير الساحل في منحنٍ واسع يميل قليلًا باتجاه الداخل. من طريق المشاة الذي يمر هناك عبر الكثبان العشبية والمنحدرات الواطئة، يمكن في كل ساعة من النهار والليل وفي كل فصل من فصول السنة، رؤية سقيفات منصوبة تشبه الخيام أسفل الشاطئ المنبسط المفروش بالحصى، وهي مصنوعة من قضبان وحبال وأقمشة أشرعة ومشمع. تمتد في صف طويل وعلى مسافة متساوية تقريبًا بعضها من بعض بحذاء البحر.

يبدو الأمر وكأن آخر من تبقى من أحد الشعوب الرُحَّل قد حط الرحال هنا في الطرف الأقصى من الأرض انتظارًا للمعجزة المبتغاة منذ الأزل التي تبرر عند تحققها لاحقًا كل الحرمان والتيه. لكن الحقيقة طبعًا هي

أن هؤلاء المخيمين في العراء لم يأتوا إلى هذا الشاطئ من بلاد وصحارٍ بعيدة، بل هم أناس من أهل المنطقة القريبة، يقومون - وفقًا لعادة قديمة - من أماكن صيدهم بمراقبة البحر الذي يتغير باستمرار أمام أعينهم. والغريب أن عددهم يظل دائمًا نوعًا ما ثابتًا. وسرعان ما يحل شخص آخر محل أي شخص يغادر المعسكر، بحيث لم يطرأ عبر سنوات أي تغيير - على الأقل ظاهريًّا - على جماعة الصيادين التي تقضي النهار في نعاس وتسهر الليل، وربما يعود هذا الأمر إلى أبعد مما تقوى عليه الذاكرة. ونادرًا ما يحدث أن يتواصل صياد مع جاره، رغم أن أبصارهم جميعًا شاخصة باتجاه الشرق، ويرون جميعًا في الأفق ظهور غسق الليل وانبلاج الفجر، ورغم أنهم جميعًا تحركهم، حسبما أعتقد، المشاعر المبهمة ذاتها، فإن كل منهم منعزل بنفسه ولا يعتمد إلا على نفسه وعلى عُدته القليلة كالمطواة مثلًا، أو الترمُس أو الراديو الترانسيستور الصغير، الذي لا تكاد يسمع منه سوى خروشات، وكأن الصخور التي ترتد مع الأمواج تتجاذب أطراف الحديث. لا أظن أن الرجال يجلسون طوال النهار والليل على البحر، من أجل ألا تفوتهم الساعة التي تمر فيها أسماك الميرلانجيس وتصعد أسماك الفلاوندر على سطح البحر وتسبح أسماك القد الأطلسي باتجاه الشاطئ، كما يدّعون. إنهم يريدون البقاء هنا في مكان يكون فيه العالم من ورائهم ولا يوجد أمامهم سوى الفراغ. وبالفعل يكاد الصيد من هذا الشاطئ يكون معدوما حاليًّا. والقوارب التي كان الصيادون يخرجون بها من الشواطئ قد اختفت منذ أن أصبح العمل غير مجزٍ، وانقرض الصيادون أنفسهم، ولا أحد يهتم بإرثهم. هنا وهناك تقع عين المرء على مقابر للسفن، تتداعى فيها القوارب التي لا صاحب لها وفي الهواء المالح يعلو الصدأ بكرات الأسلاك التي كانت تُجر بها القوارب إلى البر في الماضي. في الخارج في أعالي البحار يتواصل الصيد في الوقت

الحالي، مع أن الغنيمة تقل باستمرار، بغض النظر عن أن ما يتم صيده لا يصلح إلا لصنع دقيق السمك. آلاف الأطنان من الزئبق والكادميوم والرصاص وجبال من الأسمدة والمبيدات تصبها الأنهار عامًا بعد عام في بحر الشمال. وجزء كبير من المعادن الثقيلة والمواد السامة الأخرى تترسب في المياه الضحلة في منطقة دوغربانك، حيث يولد ثلث الأسماك بتشوهات وعاهات غريبة. وكثيرًا ما يرى المرء أمام الساحل وعلى امتداد عدد كبير من الأميال المربعة، حقول طحالب سامة تصل إلى عمق ثلاثين قدمًا، تنفق داخلها الحيوانات البحرية بأعداد هائلة.

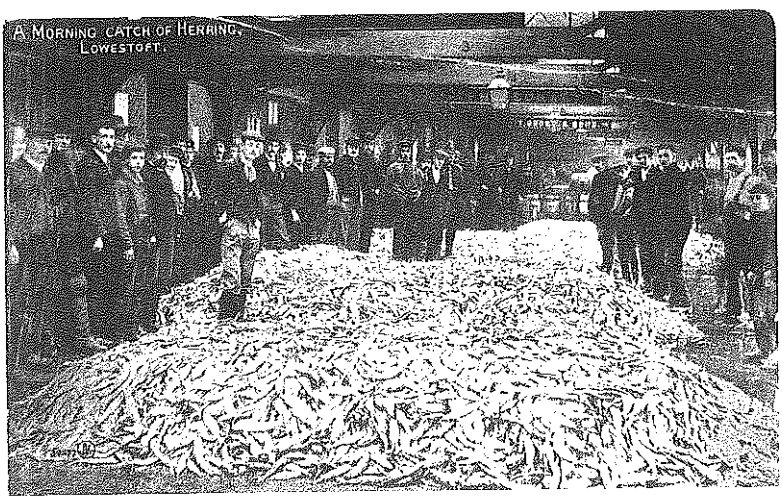

بعض من الأنواع الأكثر ندرة من أسماك موسى والشبوط والأبراميس تشهد تحولًا غرائبيًّا حيث تنمو لدى الإناث بشكل متزايد أعضاء تناسلية ذكرية، وتؤدي الطقس المرتبط بتكاثرها باعتباره مجرد رقصة موت هي الوجه الآخر لتصورنا الذي نشأنا عليه عن التكاثر الذاتي والتوالد المثير للدهشة في الحياة العضوية. وليس من قبيل العبث أن أسماك الرنجة كانت دائمًا بشكل خاص مادة تعليمية محببة للطبقات الدنيا، كونها تمثل

الشعار الرئيس لما يسمى بعدم قابلية الطبيعة للفناء من حيث المبدأ. إنني أتذكر بدقة أحد تلك الأفلام القصيرة التي كان تتخللها خطوط متعرجة سوداء وكان المدرسون يستعيرونها في الخمسينيات من مركز الفيلم في البلدية، وقد ظهر فيه قارب من فيلهلمسهافن كان يحاول المرور بين الأمواج الداكنة التي أخذت تعلو حتى بلغت طرف الصورة الأعلى. كانت الأحداث تجري في ظلمة قاحلة. الأبيض الناصع لم يكن مصدره إلا أجسام الأسماك التي تراكمت في أكوام على سطح القارب والملح الذي كانوا يخلطونها به. في ذكرياتي عن هذا الفيلم المدرسي أرى الرجال في لباسهم المشمع الأسود اللامع وهم يعملون كالأبطال وسط الأمواج العاتية التي تضرب القارب، وأرى صيد الرنجة كمسرح نموذجي لمعركة الإنسان مع سطوة الطبيعة. مع قرب انتهاء الفيلم عندما تتجه السفينة إلى ميناء المنشأ، تخترق أشعة شمس الغروب السحب وتنشر بريقها فوق البحر الذي أصبح في تلك الأثناء هادئا. يعزف أحد البحارة - وقد اغتسل لتوه ومشط شعره - الهارمونيكا. يقف القبطان ممسكًا بعجلة القيادة وينظر - بإحساس كبير بالمسؤولية - إلى الأفق. وأخيرًا تفريغ الحمولة والعمل في القاعات حيث تُنظف أسماك الرنجة بأيادٍ نسائية، ثم تُصنف حسب الحجم وتُعبأ في براميل. وتنقل عربات بضائع السكك الحديدية هذا الرحالة البحري النشط (هكذا ورد في الكُتيب المصاحب للفيلم الذي أُنتج عام 1936، الذي استطعتُ الحصول عليه منذ فترة طويلة) إلى الأماكن التي يَلقَى فيها مصيره النهائي على الأرض. ثم أقرأ في موضع آخر في كتاب التاريخ الطبيعي لبحر الشمال الصادر في فيينا عام 1857 أن ملايين عديدة من أسماك الرنجة تصعد في أشهر الربيع والصيف من قاع البحر المظلم وتتراكم بعضها فوق بعض في طبقات لكي تضع بيضها عند السواحل وفي المياه الضحلة. وفي عبارة مصحوبة

بعلامة تعجب ورد أن كل واحدة من إناث أسماك الرنجة تضع سبعين ألف بيضة، وإذا تكاثرت جميعها دون عائق، فسرعان ما سينتج عن ذلك، وفقًا لحسابات بوفون، كميات من الأسماك تعادل حجم الكرة الأرضية عشرين مرة. وتثبت السجلات أيضًا بشكل متكرر أعوامًا كانت فيها حرفة صيد الرنجة مهددة بالانهيار بسبب طوفان الأسماك الكارثي الذي أغرق الشواطئ. أجل، بل ورد أن أسرابًا هائلة من أسماك الرنجة قد جرفتها الريح والأمواج إلى السواحل وألقت بها إلى البر، حيث غطت مسافة تمتد على الشاطئ لعدة أميال، وبعمق بضعة أقدام. ولم يتمكن السكان في المناطق المحيطة إلا من جمع كميات ضئيلة من حصاد الرنجة هذا في السلال والصناديق. وفسدت الكمية الباقية خلال أيام لتظهر من خلالها الصورة المفزعة لطبيعة تختنق بفائضها. من ناحية أخرى حدث مرارًا أن تجنبت أسماك الرنجة أماكنها المعهودة وأُفقرت تبعًا لذلك مناطق بأكملها على الشريط الساحلي. وإلى اليوم ليس ثمَّت ما يحدد بشكل موثوق أي طرق تسلكها أسماك الرنجة عبر البحار. ثمَّت افتراض بأن الطرق التي تتجول فيها الرنجة تحددها علاقات الضوء والرياح، أو مغناطيسية الأرض أو تغير خط تساوي درجات حرارة الماء، لكن في نهاية المطاف تبين أن كل هذه التخمينات غير سديدة، لذلك ليس بإمكان صيادي الرنجة دائمًا سوى الاعتماد على المعرفة المستندة إلى الأساطير التي نُقلت إليهم أو على ملاحظاتهم الشخصية. مثلًا أن هذه الأسماك التي تتحرك بانتظام على شكل وتد ترسل عند زاوية سقوط معينة لأشعة الشمس انعكاسًا نابضًا باتجاه السماء. كذلك تعد أيضًا الآلاف المؤلفة من قشور الأسماك الطافية فوق سطح الماء، التي تتوهج في النهار مثل صفيحات من الفضة وتبدو في الليل أحيانًا مثل الثلج أو الرماد، علامة أكيدة على وجود الرنجة. وإذا ما رؤي سرب الرنجة، يكون صيده غالبًا

في الليل، وتحديدًا، كما ورد في كتاب التاريخ الطبيعي لبحر الشمال، في شباك طولها مئتا قدم، وتَسَعُ نحو ربع مليون سمكة. تُصنع هذه الشباك من الحرير الإيراني الخشن، وتُصبغ بالأسود، حيث إن اللون الفاتح يؤدي حسب الخبرة إلى هروب أسماك الرنجة. ولا تنغلق الشباك على غنيمة الصيد، بل تبقى في الماء مثل جدار تحاول الأسماك بلا أمل أن تتخطاه، إلى أن تعلق خياشيمها بالشباك، لكي تختنق من بعد ذلك خلال عملية سحب الشباك التي تستغرق نحو ثماني ساعات. لذلك تكون الغالبية العظمى من أسماك الرنجة ميتة عند إخراجها من الماء. كان مؤرخو التاريخ الطبيعي السابقين مثل م. دي لاسيباد M. de Lacépède يميلون إلى فرضية أن أسماك الرنجة تموت بمجرد إخراجها من الماء سواء بسبب إصابتها بنوع ما من الكسور أو لأي سبب آخر. وقد أدت هذه الصفات التي نسبها العلماء المختصون بالطبيعة لأسماك الرنجة من جانب آخر إلى اكتساب إفادات شهود العيان عن أسماك الرنجة التي تظل باقية على قيد الحياة خارج الماء أهمية خاصة وذلك لفترة طويلة. ولهذا فإن من المؤكد مثلًا أن مبشرًا كنديًّا اسمه بيير ساغارد قد رأى على ظهر قارب للصيد بالقرب من ساحل نيوفاوندلاند كومة من أسماك الرنجة ترتعش لفترة طويلة وأن سيدًا يدعى نويكرانتس من شترالزوند في ألمانيا قد سجّل بدقة شديدة الرعشات الأخيرة لسمكة رنجة أُخرجت من المياه قبل ساعة وسبع دقائق (توقيت موتها). كذلك شهد مفتش في سوق للسمك في روان الفرنسية يدعى نويل مارينير ذات يوم باندهاش حركة بضع من أسماك الرنجة وذلك بعد ساعتين أو ثلاث من إخراجها من الماء، وهو ما دعاه لدراسة قدرة هذه الأسماك على البقاء على قيد الحياة عن كثب، من خلال قطعه لزعانفها وتشويهها بطرق أخرى. مثل هذا الإجراء المستلهم من فضولنا المعرفي هو ما يمكن تسميته بالمبالغة

القصوى في تاريخ معاناة نوع مهدد دائمًا بالكوارث. فما لا تفترسه أسماك القديد والأسماك المتشبثة خلال طور التفريخ، ينتهي به الحال في بطن ثعبان بحري أو قرش قطي أو قد أطلسي أو واحد من كثيرين من صيادي الرنجة الذين نعد نحن أنفسنا من بينهم. ففي حوالي عام 1670 اشتغل أكثر من ثَمانِ مئة ألف من الهولنديين وأهالي جزر فريزيا، وهو عدد لا يستهان به من إجمالي عدد السكان، في صيد الرنجة فحسب. وبعد ذلك بمئة عام قُدر عدد الأسماك التي صِيدت سنويًّا بستين مليار سمكة. ونظرًا للكميات التي يصعب تخيلها، ومن أجل تهدئة خواطرهم ارتكن علماء التاريخ الطبيعي إلى الفكرة القائلة بأن الإنسان مسؤول عن جزء ضئيل جدًّا من الإفناء المتواصل في دورة حياة الرنجة، وفيما عدا ذلك ارتكنوا أيضًا إلى فرضية أن التركيب الفسيولوجي للأسماك يحميها من الإحساس بالخوف والألم الذي يُلم بأجساد وأرواح الحيوانات ذات التكوين الأعلى رتبة في صراعها مع الموت. لكننا في الحقيقة لا نعرف شيئًا عن أحاسيس سمك الرنجة. كل ما نعرفه هو أن هيكله مكون أكثر من مئتين من الغضاريف والعظام المختلفة والمركبة بصورة غاية في التعقيد.

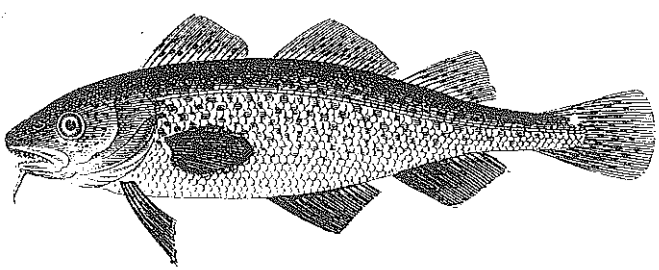

ظاهريًّا يبدو لافتًا في سمك الرنجة زعنفته الذيلية القوية والرأس النحيل والفك السفلي البارز قليلًا والعين الكبيرة التي تسبح في بؤبوها الأبيض المائل للفضي حدقة سوداء. لظهر الرنجة لون أخضر يميل

للزرقة. أما القشور على الجانبين وعلى البطن فتبرق كل واحدة منها على حدة بدرجة من البرتقالي المُذهب، لكنها في مجملها تعطي لمعانًا معدنيًّا ناصع البياض. وإذا وُضعت الأجزاء الخلفية في الضوء تسطع بلون أخضر داكن على درجة لا مثيل لها من الجمال. وإذا فارق سمك الرنجة الحياة تتغير ألوانه. يصبح الظهر أزرق وتغشى الحمرة الخدود والخياشيم بسبب الدم. ومن خصائص سمك الرنجة بالمناسبة أيضًا أن جسمه الميت يبدأ في اللمعان في الهواء. تبلغ هذه الطاقة الضوئية، التي تشبه الضوء الفسفوري لكنها مختلفة عنه تمامًا، ذروتها بعد أيام قليلة من الموت. ثم تخبو بمجرد أن تبدأ السمكة في التحلل. لفترة طويلة، بل أظن ليومنا هذا لا يزال السر وراء بريق أجسام الأسماك الميتة مجهولًا. في حوالي عام 1870 عندما كان العمل جاريًا في كل مكان على مشروعات من أجل إضاءة شاملة لمدننا..

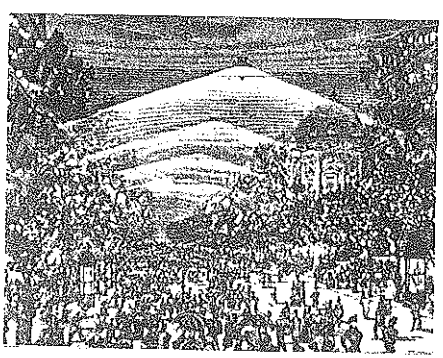

يقال إن عالمين إنجليزيين يدعيان هيرنغتون Herrington ولايتبون Lightbown وهما اسمان مناسبان لموضوع بحثهما، قد قاما بدراسة هذه الظاهرة الطبيعية الغريبة أملًا في أن يشتقوا من المادة المضيئة التي تنتج من أجسام الرنجة الميتة صيغة لتوليد مصدر ضوئي عضوي قادر على تجديد نفسه باستمرار. ولم يكن فشل هذه الخطة الغرائبية، كما قرأت

مؤخرًا في كتاب متخصص في تاريخ الضوء الصناعي، سوى انتكاسة لا تكاد تستحق الذكر في عملية القضاء المستمر على الظلمة.

كنت قد خلفت صيادي الشاطئ وراء ظهري منذ فترة، عندما وصلت عند أول الظهيرة إلى بحيرة بيناكر برود Benacre Broad ذات الماء المسَوْس الواقعة خلف شاطئ من الحصى بين لويستوفت وساوثولد. والبحيرة محاطة بإكليل أخضر من الشجيرات النفضية التي تموت تدريجيًّا بسبب التآكل المستمر للساحل من ناحية البحر. المؤكد هو أنها مسألة وقت فقط حتى يُخترق الشاطئ المفروش بالحصى في ليلة عاصفة لكي يتغير وجه المنطقة بأسرها. لكن في هذا اليوم الذي جلست فيه على الضفة الهادئة هناك، كان يمكن لي أن أظن أنني أنظر إلى الأبدية. تبددت غلالات الدخان التي تحركت في الصباح باتجاه البر، كانت قبة السماء خالية وزرقاء، ظل كل شيء ساكنًا في الهواء الطلق وبدت الأشجار وكأنها مرسومة، ولم يطر حتى طائر واحد فوق الماء ذي اللون البني المخملي. كان الأمر وكأن العالم قد زحف تحت ناقوس زجاجي، إلى أن أتت كتل من السحب الكثيفة من الغرب وألقت ببطء ظلًّا رماديًّا على الأرض. ربما كانت هذه الظلال الكابية هي التي جعلتني أتذكر مقالًا قمت بقصه من جريدة إيسترن ديلي برس عن وفاة الرائد جورج ويندهام لو سترانج الذي كان يقيم في البيت الإقطاعي الحجري الكبير في هانستيد على الجانب الآخر من البحيرة.

وكما جاء في المقال خدم لو سترانج أثناء الحرب الأخيرة في كتيبة مضادات الدروع التي حررت معسكر بيرغن بيلزن في عام 1945، لكنه عاد من ألمانيا مباشرة بعد وقف إطلاق النار، لكي يتولى إدارة ضياع أخي جده في مقاطعة سافوك، وقد أدارها، حسبما عرفت من مصدر آخر، على الأقل حتى منتصف الخمسينيات بصورة مثالية. وفي ذاك الوقت

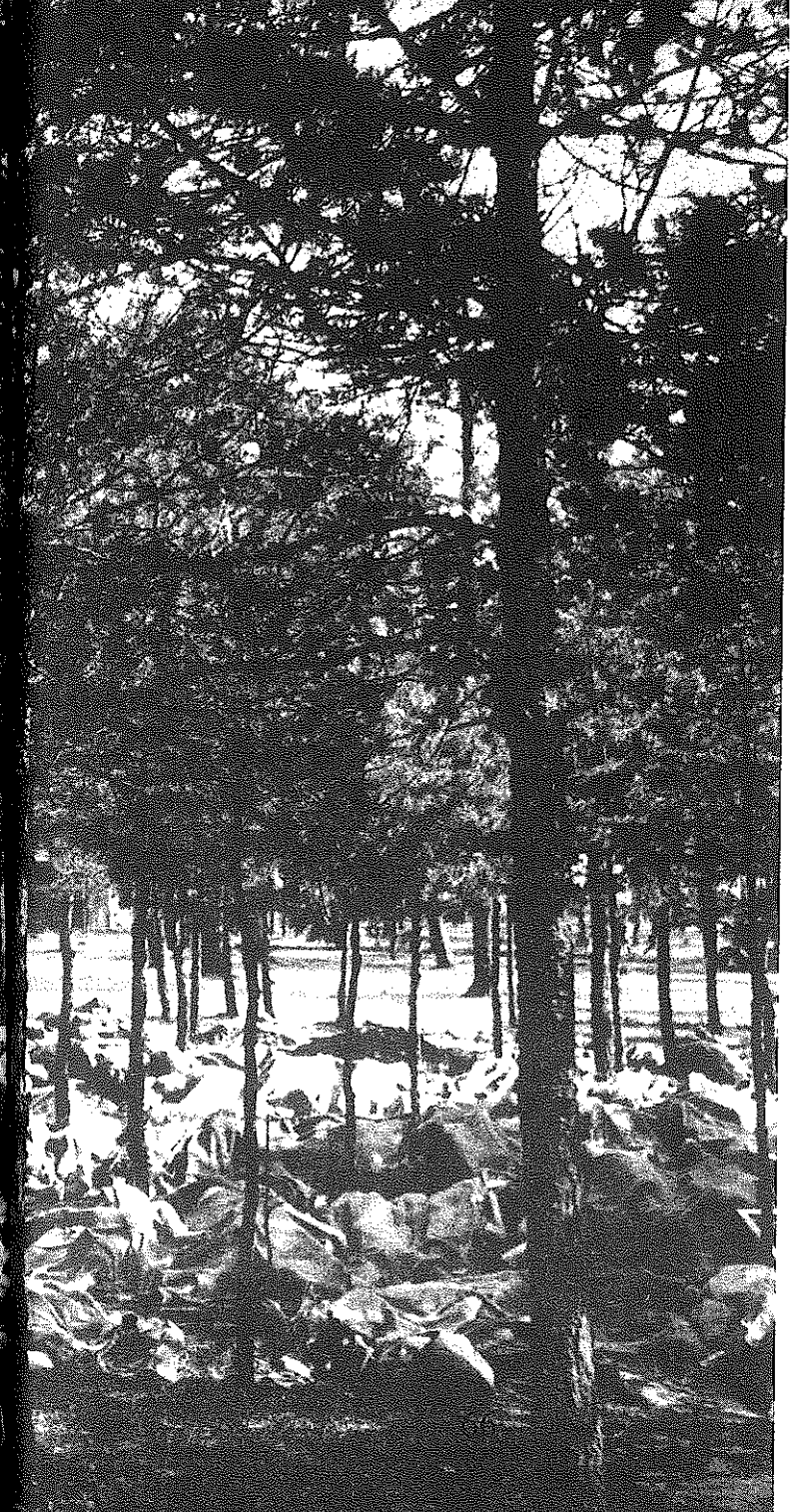

أيضًا وظّف لوسترانج مدبرة المنزل التي أورثها في النهاية كل ثروته، أي أراضيه في سافوك وعقارات في وسط مدينة برمنغهام تقدر بملايين الجنيهات. ووفقًا لتقرير الصحيفة عيّن لوسترانج مدبرة المنزل هذه وهي شابة بسيطة اسمها فلورنس بارنس من بلدة بيكلس بشرط واضح وهو أن يتناولا وجبات الطعام التي تعدها له معًا، ولكن مع الحفاظ على الصمت المطلق. ووفقًا لإفادات السيدة بارنس نفسها للصحيفة فإنها قد حافظت بإخلاص على الاتفاق الذي أبرماه في الماضي، حتى بعدما بدأ أسلوب حياة السيد لو سترانج يتغير. ومع أن السيدة بارنس كانت لا تدلي إلا بتصريحات غاية في التحفظ على الأسئلة الملحّة التي طرحها الصحفي، لكن أبحاثي التي بدأتها منذ ذاك الحين قد أظهرت أن لوسترانج أخذ منذ أواخر الخمسينيات يطرد تدريجيًّا خدم بيته وكذلك المزارعين والبستانية والإداريين، وأنه منذ ذلك الوقت قد عاش في البيت الحجري الكبير وحيدًا مع طاهيته الصموتة، وتبعًا لذلك أُهمِلَت الضيعةُ كلها بما فيها الحدائق والمنتزه بشكل واضح وتداعت، وغطت أطراف الحقول البور شجيرات برية وأحراش.

وبغض النظر عن الملاحظات النابعة من مراقبة الأحداث الفعلية، كانت ثمَّت حكايات عن الرائد لوسترانج يتداولها الناس في القرى المجاورة لأملاكه، وربما لا يجدر تصديقها إلا في نطاق محدود. وتستند هذه الحكايات على أمور قليلة تم تداولها عبر السنين في شكل إشاعات خرجت من أعماق المنتزه إلى العلن وشغلت على نحو خاص السكان الذين يعيشون في المحيط الضيق للمنطقة. وهكذا سمعت مثلًا في حانة في هانستيد أن لوسترانج في أواخر عمره - لأن ملابسه قد بليت تمامًا، ولم يعد يرغب في اقتناء ملابس جديدة - كان يتجول مرتديًا ملابس من عصور أقدم، كان يخرجها عند الحاجة من صناديق في سندرة بيته. وكان

Housekeeper Rewarded for Silent Dinners

A wealthy eccentric has left his vast estate to the housekeeper to whom he hardly spoke for over thirty years.

Major George Wyndham Le Strange (77), a bachelor, collapsed and died last month in the hallway of his manor house in Henstead, Suffolk which had remained virtually unchanged since Georgian times.

During the last war, Le Strange had served in the 63rd Anti-Tank Regiment which liberated the concentration camp at Belsen on 14 April 1945. Immediately after VE-Day, he returned to Suffolk to manage his great uncle's estates.

Mrs. Florence Barnes (57), employed by Le Strange in 1955 as housekeeper and cook on condition that she dined with him in silence every day, said that Le Strange had, in the course of time, become a virtual recluse but she refused to give any details of the Major's eccentric way of life.

Asked about her inheritance, she said that, beyond wanting to buy a bungalow in Beccles for herself and her sister, she had no idea what to do with it.

ثمَّت أناس يدَّعون أنهم رأوه مرتديًا معطفًا بلون أصفر كناري أو عباءة حِداد بنفسجية باهتة من قماش التفتة بها الكثير من الأزرار والعُرَى. وقيل أيضًا إن لوسترانج الذي كان يحتفظ دائمًا بديك مستأنس في غرفته، أصبح فيما بعد مغرمًا بكل أنواع الطيور من الدجاج الغيني والتدرج والحمام والسمان ومختلف أنواع طيور الحدائق والطيور المغردة التي تتجول حوله على الأرض أو تطير حوله في الجو. وذات مرة في الصيف حكى بعضهم أن لوسترانج قد حفر مغارة في حديقته مكث فيها لأيام ولياٍل على غرار ما فعل القديس جيروم في الصحراء. أما الأمر الأكثر غرابة فكان حسب ظني تلك الأسطورة التي أطلقها العاملون لدى متعهد الدفن في رنتهام والقائلة بأن بشرة الرائد الفاتحة قد تحوّلت عند مماته إلى اللون الأخضر الزيتوني، وعيناه الرماديتان اكتسبتا دكنة قاتمة، وشعره الناصع البياض تحول إلى الأسود الفاحم. إلى يومنا هذا لا أدري ماذا أقول عن مثل هذه القصص. المؤكد أن المنتزه بكل ما عليه من منشآت قد بيع في مزاد في الخريف الماضي إلى رجل هولندي، وأن فلورنس بارنس مدبرة المنزل الوفية للرائد لوسترانج، تعيش كما كانت تنوي مع أختها جيميما في فيلا في مسقط رأسها بيكلس.

على بعد ربع ساعة إلى الجنوب من بيناكر برود، حيث يضيق الشاطئ ويبدأ ساحل جرفي، تنتشر عشرات الأشجار الميتة مبعثرة، لا بد أنها سقطت منذ أعوام من فوق منحدرات كوفهايث. بدا الخشب الخالي من اللحاء الذي بهت لونه من الماء المالح ومن الريح والشمس مثل عظام نوعٍ من الكائنات الحية يفوق حتى الماموث والديناصورات ضخامة وقد قضى هنا قبل زمن بعيد على هذا الشاطئ المنعزل. يلف طريق المشاة حول هذا المِتراس الطبيعي مارًّا عبر منحدر من نبات الرتم باتجاه قمة الجرف الطيني ويمرُّ هناك على مسافة محدودة من الحافة المهددة دائمًا

بالانهيارات، عبر نباتات السرخس التي يصل أطولها إلى كتفي. في الخارج يرافقني في البحر الباهت قارب شراعي، وتحديدًا بدا لي كأنه ظل واقفًا بلا حراك وكأنني أنا نفسي ظللت في كل خطوة أراوح مكاني إلا قليلًا، مثل هذا القائد الشبحي الخفي لهذا المركب الذي لا يتحرك.

لكن تدريجيًّا تباعدت نباتات السرخس بعضها عن البعض وأفسحت مجالًا لرؤية حقلٍ ممتدٍ يقود إلى كنيسة كوفهايث. هناك خلف سياج مكهرب تجمع على الأرض البنية التي نمت فوقها بعض شجيرات البابونج النحيلة قطيع خنازير يقارب عدده المئة. عبرتُ فوق السلك واقتربت من واحد من هذه الحيوانات الثقيلة النائمة بلا حراك. عندما انحنيت عليه، فتح ببطء عينه الصغيرة المحاطة برموش فاتحة اللون ونظر إليَّ متسائلًا، مررتُ بيدي على ظهره المغطى بالغبار الذي اقشعر بسبب الملامسة غير المعتادة، وربتُّ على خطمه ووجهه ودلكتُ له هذا التجويف خلف أذنه، حتى تأوه مثل إنسان ابُتلي بمعاناة لا نهاية لها. وعندما نهضتُ، عبَّر عن رضوخه التام بإغماض عينيه ثانية. جلست لفترة طويلة على الأرض العشبية بين السياج المكهرب وحافة المنحدر. انحنت أعواد النجيل القليلة المُصفرّة أمام الريح القادمة. أظلمت السماء بشكل ملحوظ. زحفت كتل السحاب لتنتشر فوق البحر الذي صارت تقطعه الآن خطوط بيضاء. والقارب الذي ظل بلا حراك لفترة طويلة، اختفى فجأة. كل هذا ذكرني بحكاية يقصها القديس مرقس رواي الإنجيل من منطقة الجدريين وتأتي مباشرة بعد القصة الأقل شهرةً عن تسكين العاصفة فوق بحيرة طبرية. وبقدر ما تُعدُّ صورة التلاميذ القليلي الإيمان الذين يوقظون سيدهم الغافل بلا همٍّ عندما تضرب الأمواج قاربهم، مُناسِبةً للتعاليم الكنسية المدرسية، يصعُبُ في المقابل فهم المغزى وراء قصة مجنون الجدريين. أنا نفسي لا أتذكر أن هذه القصة قد قُرأت لنا في حصة الدين أو في القداس، ناهيك بأن نكون قد ناقشناها. امتلك هذا المجنون الهائج، الذي قيل عنه أنه جاء إلى يسوع الناصري من المقابر حيث كان يسكن، قوةً خارقة، بحيث لم يكن بإمكان أحد أن يقيده. لقد قطع كل السلاسل وحطم كل القيود. وكان - كما كتب مرقس - على الدَّوامِ، ليلًا ونهارًا،

في القُبورِ وفي الجِبالِ، يَصيحُ ويُهَشِّمُ نَفْسَهُ بالحِجارَة. وعندما سئُل عن اسمه أجاب: اسمي جوقة لأننا كثيرون وتوسل للسيد ألا يرسلهم خارج البقعة. لكن السيد أمر الأرواح الشريرة أن تدخل في قطيع الخنازير التي كانت في المرعى. والخنازير التي يقول رواي الإنجيل أن عددها ناهز الألفين، تواثبت من الجرف واختنقت في البحر. لقد تساءلت أثناء جلوسي قبالة بحر الشمال، إن كان المغزى وراء هذه القصة الوحشية متعلقًا بقصة شاهد ذي مصداقية؟ وإن كان هذا صحيحًا، ألا يعني ذلك أن سيدنا المسيح قد ارتكب خطأ بغيضًا أثناء إبرائه لمجنون الجدريين؟ أم أننا نقف هنا أمام مجرد أمثولة ألفها مرقس عن أصل النجاسة المزعومة للخنازير. وهو ما سيقودنا إذا ما فكرنا بشكل سليم، إلى أننا كبشر دائمًا ما نُسقِط أفكارنا المريضة على كائن آخر نعتبره أدنى منا منزلة ولا يستحق سوى الهلاك؟ وأثناء ما جال ذلك بذهني رأيت طيور السنونو تحلق فوق البحر. وفيما كانت تطلق باستمرار صيحاتها الخافتة، كانت تقطع مجال طيرانها بسرعة لا تدركها الأبصار. في الماضي، أيام الطفولة، عندما كنت في ساعات المساء أشاهد هذه السنونوات من قاع الوادي الظليل وهي تحلق بأعداد كبيرة قبل حلول الظلام، كنت أتخيل أن تماسُك العالم رهينٌ فقط بدورانها في الفضاء. بعد ذلك بأعوام كثيرة قرأت في نص بعنوان «تلون، أوكبار، أوربيس تيرتيوس» كُتب عام 1940 في سالتو أورينتال في الأرجنتين عن إنقاذ بضعة طيور لمسرح روماني. حلقت السنونوات فقط في المستوى الذي امتد من الارتفاع الذي جلست عنده إلى الفراغ. لم ترتفع واحدة منها أعلى من ذلك ولا هبطت لأسفل باتجاه الماء. وعندما كانت تأتي كالطلقة باتجاه الشاطئ، كان بعضها يختفي مباشرة تحت أقدامي وكأن الأرض قد ابتلعتها. تقدمت إلى حافة المنحدر ورأيت أنها قد حفرت أعشاشها في الطبقة الطينية العليا من المنحدر، بعضها بجانب

البعض. كنت أقف إذًا فوق أرض مليئة بالثقوب، يمكن لها أن تنهار في أي لحظة. رغم ذلك، رجعت برأسي قدر الإمكان لتنغرس في القفا، مثلما كنا نفعل في الماضي ونحن واقفون فوق سطح خلية النحل الصفيح كاختبار للشجاعة، ووجهت نظرتي إلى سمت الرأس، وتركتها تنزلق على قبة السماء وعدت بها من الأفق مرورًا فوق الماء حتى وصلت إلى الشاطئ الواقع على بعد نحو عشرين مترًا في الأسفل. أثناء تغلبي على الشعور بالدوار الذي أخذ يتصاعد داخلي، متنفسًا ببطء، واتخاذي خطوة للوراء، تراءى لي أنني رأيت على الشاطئ شيئًا باهت اللون يتحرك بشكل غريب. انحنيت لأنظر من فوق الحافة وقد غمرني هلع مفاجئ. رأيت زوجين من البشر يرقدان في قاع المنحدر، هكذا ظننت، رجل فرد جسمه فوق جسد آخر لا مجال لرؤية شيء منه سوى الساقين المثنيتين المُشرعتين للخارج. وفي لحظة الرعب التي دامت دهرًا، وعبرت خلالها هذه الصورة بذهني، تهيأ لي أن رجفة اعترت قدمي الرجل، كتلك التي تعتري شخصًا أُعدم لتوه. على كل حال لقد أصبح الرجل ساكنًا الآن، والمرأة كانت أيضًا بلا حراك. رقدا هناك مثل حيوان رخو هلامي ضخم لفظه البحر، وحش بحري ثنائي الرأس متعدد الأطراف دفعت به الأمواج من أعالي البحار، هو آخر هذا النوع من الوحوش، وهو يقترب من نهايته مع الأنفاس الأخيرة التي يلفظها بهدوء من فتحات أنفه. وقفتُ ثانية وقد ملأني الرعب وشعرت بقدر كبير من عدم الثقة وكأنني أنهض للمرة الأولى في حياتي من الأرض. وابتعدت عن هذا المكان الذي أصبح مخيفًا بالنسبة لي وهبطت المنحدر متخذًا الطريق المنزلق قليلًا تجاه الشاطئ الذي يمتد جنوبًا. أمامي في الأفق جثمت مدينة ساوثولد Southwold، بعدد قليل من البيوت وبعض مجموعات من الأشجار المتفرقة، وفنار أبيض كالثلج تحت سماء قاتمة. قبل أن أصل إلى هناك بدأت أولى قطرات المطر تهطل.

استدرت ونظرت إلى الطريق الخالي الذي جئت منه ولم أعد أعرف إن كنت قد رأيت الوحش البحري الشاحب عند سفح منحدر كوفهايث في الحقيقة أم فقط في خيالي. تذكري لعدم اليقين الذي شعرت به آنذاك أعادني مجددًا للمؤلَف الأرجنتيني السالف الذكر الذي يهتم في الأساس بمحاولاتنا اختلاق عوالم من الدرجة الثانية والثالثة. يحكي الراوي كيف أنه كان يتناول العشاء مع شخص اسمه بيوي كاساريس في بيت ريفي في شارع جاونا Gaona عام 1935 وأنهما انهمكا بعد هذا العشاء في حديث مسهب حول تأليف رواية مخالفة للحقائق الواضحة ومن المفترض أن تتورط في تناقضات عديدة على نحو يمكِّن عددًا قليلًا من القرّاء – عددًا محدودًا جدًّا من القرّاء – من إدراك ما هو مكنونٌ في الحكي من واقع وحشي من جهة أو تافه عديم المعنى تمامًا من جهة أخرى. وفي نهاية الممر المؤدي إلى الغرفة التي جلسنا فيها معًا، هكذا يستطرد المؤلف، عُلقت مرآة بيضاوية شبه معتمة، كانت مصدرًا لنوع من القلق. شعرنا أننا مراقبان من هذا الشاهد الصامت وهكذا اكتشفنا – ففي عمق الليل لا مفر

من مثل هذه الاكتشافات – أن في المرايا شيء مفزع. ووفقًا لذلك تذكر بيوي كاساريس أن أحد هراطقة أوكبار قد أوضح أن الشيء المثير للرعب في المرايا وبالمناسبة أيضًا في فعل الجماع يكمن في أن كليهما يسهم في مضاعفة أعداد البشر. سألت بيوي كاساريس، هكذا يقول المؤلف، عن أصل هذه الجملة التي يبدو أنها مأثورة، فقال إنها ترد في الموسوعة الأنغلو – أميركية في مقالها عن أوكبار. لكن هذا المقال، حسبما يتبين من باقي أحداث الحكاية، غير موجود في الموسوعة المذكورة أو أنه موجود فقط في نسخة اشتراها بيوي كاساريس قبل أعوام، ويزيد عدد صفحات جزئها السادس والعشرين أربع صفحات على النسخ الأخرى من طبعة عام 1917 المشبوهة. وبهذا يظل غير واضح إن كان ثمَّت وجود لبلد يسمى أوكبار، وما إذا كان وصف هذا البلد المجهول شبيهًا بمشروع الموسوعيين عن تلون، التي خُصص الجزء الأساسي من النص المذكور للحديث عنها، حيث يتعلق الأمر بالوصول مع مرور الوقت إلى واقع جديد عبر اللاواقع المحض. فالتركيب المتاهي لتلون، حسبما يرد في إضافة لاحقة في عام 1947، على وشك محو العالم المعروف. لقد دخل تعبير تلوّن الذي لم يكن أحد يتقنه من قبل إلى المدارس وبالفعل غطى تاريخ تلون كل ما عرفناه في السابق أو ظننا أننا نعرفه. وبالفعل تتبين من خلال علم التأريخ المزايا التي لا مراء فيها لماض متخيل. جرى تغيير كل فروع العلوم تقريبًا والتخصصات التي لم يجر تغييرها، تقبع في انتظار التجديد. غيرت سلالة متفرقة من الزهاد وسلالة المخترعين والموسوعيين ومؤلفي المعاجم من تلون وجه الأرض. ستختفي كل اللغات – حتى الإسبانية والفرنسية والإنجليزية – من الكوكب. سيصبح العالم تلون. لكن هذا، يقول المؤلف في الختام، لا يهمني، فأنا أواصل على مهل في سكينة بيتي الريفي تنقيح ترجمة تجريبية على نهج فرانشيسكو دي كيفيدو لكتاب «الدفن في الأواني الفخارية» لتوماس براون (لا أنوي نشرها).

4

انقشعت السحب الممطرة عندما خرجتُ بعد العشاء للقيام بجولة أولى عبر شوارع وأزقة المدينة. بدأت العتمة تحل بين صفوف البيوت المصنوعة من الآجر. وحده الفنار بكابينته الزجاجية ذات الوميض وجد امتدادًا له في الضوء المتلاشي تدريجيًّا من الأرض.

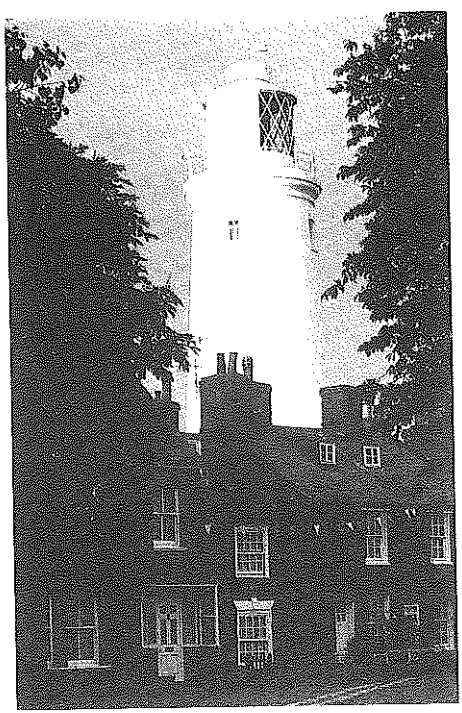

منهك القدمين، كما كنتُ، جراء المسافة الطويلة التي قطعتها قادمًا من لويستوفت، جلستُ سريعًا على دكة في الرقعة العشبية الواسعة المسماة «غَنَهيل» Gunhill ونظرت بعيدًا لأتأمل البحر الساكن، الذي برزت الظلال من أعماقه الآن. اختفى آخر المتنزهين ليلًا، وشعرت بنفسي في مسرح خاوٍ، ولم أكن لأعجب لو انفتحت ستائره أمام عيني فجأة وظهر على مقدمة المسرح مثلًا 28 مايو 1672، هذا اليوم المشهود الذي ظهر فيه الأسطول الهولندي من وسط الضباب العالق فوق البحر أمام هذا الساحل، مخلفًا ضوء الصباح الساطع وراءه، وفاتحًا النيران على السفن الإنجليزية التي تجمعت في خليج ساوثولد. غالبًا ما هُرع سكان ساوثولد آنذاك إلى المدينة عندما سمعوا أولى طلقات المدافع، وتابعوا المسرحية الغريبة من الشاطئ. احتماءً من بريق الشمس الباهر وضعوا أياديهم فوق أعينهم، ولا بد أنهم رأوا السفن وهي تتحرك هنا وهناك في تخبط واضح، ورأوا أشرعتها تنتفخ بالريح الشمالية الشرقية الخفيفة ثم تنتكس ثانية أثناء القيام بمناورة صعبة لتعديل الوجهة. على الأغلب لم يروا بشرًا من على هذا البعد، ولا حتى قادة البحريتين الهولندية والإنجليزية الواقفين على منصات القيادة. لاحقًا عندما حمي وطيس المعركة وعندما انفجرت مخازن البارود وأتت النيران على بعض أجسام السفن المطلية بالقار حتى سطح الماء، غلَّف دخان زاحف لاذع بلون أصفر مائل للسواد الخليج بأكمله، ما حال دون أي متابعة لسير المعركة. وإذا كانت التقارير عن المعارك التي حسمت فيما يوصف بميادين الشرف غير موثوق فيها من قديم الزمن، فإن الرسوم التي تصوّر المعارك الحربية الكبرى هي بلا استثناء محض خيال. وحتى رسامو المعارك المشاهير مثل ستورك أو فان دير فيلده أو دي لوتربورغ الذين درستُ بدقة عدة لوحات لهم في متحف غرينتش، عن معركة خليج سول، لا يستطيعون رغم مقاصدهم الواقعية

الملحوظة إيصال انطباع حقيقي عما يجري في سفن مترعة عن آخرها بالعتاد والرجال، عندما تنهار صواريها وأشرعتها المحترقة..

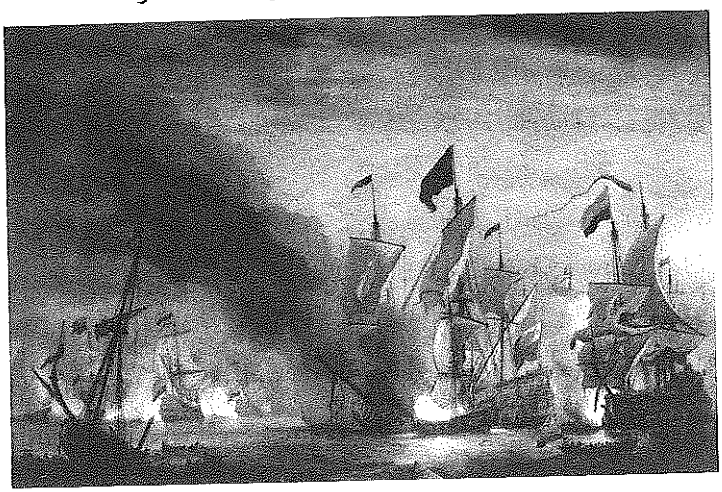

أو عندما تضرب طلقات المدافع الطابق الأوسط للسفينة وهو مكتظ بحشود ضخمة من الأجساد البشرية. فقط على متن السفينة رويال جيمس التي أُضرمت فيها النيران بالاستعانة بسفينة حارقة، لقي نحو نصف الطاقم المكون من ألف شخص حتفه. فيما لم ترد معلومات كثيرة عن غرق هذه السفينة ثلاثية الصواري. ويزعم شهود عيان عديدون أنهم رأوا قائد الأسطول البريطاني إيرل أوف ساندوتش الذي كان يزن ما يقرب من ثلاثة قناطير وهو يشير بإيماءات يائسة وقد حاصرته أخيرًا ألسنة اللهب في مؤخرة السفينة. الأكيد هو أن جثته المنتفخة قد جُرفت إلى الشاطئ بالقرب من هاريتش بعد ذلك ببضعة أسابيع. تمزقت خياطة زيه العسكري وتفتقت العُرَى، فيما ظل وسام «فارس الرباط» يبرق في أبهة غير منقوصة. لا بد أن مدنًا قليلة فقط في العالم قد فقدت آنذاك مثل هذه العدد من الأرواح في مثل هذه المعارك. فالعذاب المضني والدمار الشامل يفوقان قدرتنا على التخيل بأضعاف مضاعفة، كذلك فإن ما لا يمكن نسيانه هو

أن هذا المجهود الهائل من العمل - بدءًا من تقطيع الأشجار وتجهيزها واستخراج خام المعدن وسبكه وتشكيل الحديد وحتى نسج وخياطة الأشرعة - كان ضروريًّا من أجل صناعة وتسليح هذه السفينة التي سيكون مصيرها الدمار. لبعض الوقت تنزلق هذه الكائنات الغريبة المسماة أحيانًا ستافورن، ريسوليوشان، فيكتوري، غروت هولانديا وأوليفان، إلى البحر وتحركها أنفاس العالم، وسرعان ما تختفي ثانية. عمومًا لم يتضح أبدًا أي من الطرفين كان هو المنتصر في هذه المعركة البحرية التي وقعت أمام ساحل ساوثولد من أجل ابتزاز مزايا اقتصادية. لكن المتفق عليه هو أن الانهيار الهولندي مقارنة بكامل الجهد الذي تطلبته المعركة قد بدأ هنا بتغير طفيف جدًّا في ميزان القوى، ففيما كانت الحكومة الإنجليزية في الجانب الآخر مفلسة ومعزولة دبلوماسيًّا ومهانة بشكل كبير بسبب الهجوم الهولندي على تشاتام، ورغم الغياب التام والواضح لأي استراتيجية ورغم أن إدارة سلاح البحرية كانت على وشك الحل، وربما فقط بفضل ألعاب الريح والأمواج، أمكن للحكومة الإنجليزية أن تمهد لهيمنتها الطويلة وغير المنقطعة على البحار. فيما أنا جالس هكذا في تلك الليلة في ساوثولد في مكاني أمام بحر الشمال، شعرت فجأة بوضوح تام بتحول الأرض ببطء إلى الظلام. في أمريكا، حسبما يقول توماس براون في دراسته عن دفن رماد الموتى في الأواني الفخارية: يستيقظ الصيادون في الوقت الذي يدخل فيه الفُرس لتوهم في أعمق سبات. مثل ذيل فستان طويل يُجرجرُ ظلُ الليل حول الأرض، ونظرًا إلى أن كل الكائنات تقريبًا ترقد تباعًا من خط طول لآخر بعد غروب الشمس، هكذا يستطرد، يمكننا بالسير وراء الشمس الغاربة أن ننظر إلى الكرة الأرضية التي نسكنها وهي مليئة بالأجساد الممددة التي حصدها منجل زحل - مقبرة طويلة لا نهاية لها لبشرية مريضة بالصرع. أخذت أنظر أبعدْ وأبعد إلى داخل البحر إلى المدى الذي بلغت فيه الظلمة أكثر كثافة لها وحيث لم يعد ثمَّت شيء

يمكن رؤيته تقريبًا، انتشرت كتلة سحب ذات شكل في غاية الغرابة، ربما كانت بمثابة المنظر الخلفي للتقلبات الجوية التي شهدتها ساوثولد في أصيل هذا اليوم. ظلت مناطق القمة في هذه الجبال ذات اللون الحبري تبرق في أعلى أعاليها لبعض الوقت مثل الحقول الجليدية في منطقة القوقاز التي رأيتها أنا وهي تختفي تدريجيًّا، وخطر لي مجددًا أنني حلمت ذات مرة قبل أعوام أنني قمت بجولة بطول جبال نائية وغريبة كهذه. ولا بد أنها كانت مسافة تقدر بنحو ألف ميل ونيف، عبر أخاديد ووهاد وأودية وممرات جبلية ومنحدرات وجروف، مرورًا بأطراف غابات كبيرة، عبر حقول حجرية وحصى وثلج. وتذكرت أنني في الحلم عند وصولي لآخر طريقي، ألقيت نظرة ورائي وكانت الساعة تمام السادسة مساء. القمم المسننة للجبال التي ظهرتُ من وسطها، تميز لونها بحدة مخيفة عن السماء التي اتخذت لونًا أزرق فيروزيًّا وسبحت فيها سحابتان أو ثلاث بلون وردي. كانت صورة مألوفة لي على نحو غامض وظللت محتفظًا بها في ذاكرتي لأسابيع وتطابقت، كما أدركت في نهاية المطاف، في كل تفاصيلها مع صورة جبل فالولا الذي رأيته قبل أيام من دخولي المدرسة من الحافلة وكنت في حالة من الأعياء الشديد ونحن في طريق عودتنا إلى البيت من رحلة إلى مونتافون. غالبًا هي ذكريات متناثرة تنتُجُ عالمَها السوريالي الذي يراه المرء في الحلم. وربما يكون شيئًا مختلفًا، شيئًا ضبابيًّا وخفيًّا، يبدو عبره كل شيء أكثر وضوحًا في الحلم. بقعة ماء صغيرة تصبح بحيرة، نسمة تتحول لعاصفة، حفنة تراب تصبح صحراء، ذرة من الكبريت في الدم تتحول إلى نار بركانية. ما هذا المسرح الذي نصبح فيه نحن كتابًا وممثلين وعمالًا تقنيين وجمهورًا؟ هل يتطلب عبور بوابات الأحلام مقدارًا من العقل يزيد أو ينقص عما يذهب به المرء للنوم؟

وبقدر ما كانت هذه الأمور من الزمن البعيد غير مفهومة بالنسبة لي، كان من المستحيل أيضًا أن أصدق حقًّا في هذه الليلة على بحيرة غنهيل

في ساوثولد بأنني قبل عام بالضبط كنت أنظر من الشاطئ الهولندي نحو إنجلترا. كنت آنذاك قد سافرت بعد ليلة سيئة قضيتها في بادن بسويسرا، إلى لاهاي مروروا ببازل وأمستردام، ونزلت هناك في فندق مشبوه بشارع المحطة. لست متأكدًا إن كان اسمه لورد أسكويث أم أريستو أم فابيولا. على كل حال جلس أمام طاولة استقبال هذا الفندق، الذي يولد في الحال شعورًا بالإحباط الشديد حتى لدى أكثر المسافرين تواضعًا، سيدان لم يعودا في سن الشباب ويبدو أنهما متزوجان ببعضهما منذ زمن طويل وبينهما عوضًا عن الطفل كلب بودل مشمشي اللون. بعد أن استرحت بعض الشيء في الغرفة التي أُعطيت لي، تجولت بهدف أن آكل شيئًا في مكان ما. وصعدت طريق المحطة باتجاه وسط المدينة مارًا بحانة بريستول ومقهى يوكسل ومكتبة لأشرطة الفيديو ومطعم أران تورك للبيتزا ومحل لمستلزمات الجنس وملحمة إسلامية ومتجر للسجاد كان على واجهته رسم بدائي بالجص مكون من أربعة أجزاء لقافلة تسير عبر الصحراء. وعلى واجهة المبنى المتداعي كُتب بحروف حمراء Perzenpaleis أي قصر الفرس.

كانت كل نوافذ الطوابق العليا للمبنى ملطخة بلون الجير الأبيض. وبينما كنت أنظر إلى أعلى لأشاهد هذه الواجهة انسلَّ رجل ملتحٍ كان يرتدي جاكت بذلة فوق جلباب طويل من جانبي مباشرة بحيث تلامس مرفقانا، ودخل عبر بوابة. ومن فتحة البوابة الواسعة وقعت عيناي، في لحظة لا تُنسى خارج الزمن، على رف خشبي وُضعت فيه ربما مئات من أزواج الأحذية مرتبة بنظام بعضها فوق بعض أو بجانب بعض. فقط بعدها رأيت من الفناء الخلفي للمبنى المئذنة سامقة في سماء الليل الهولندية ذات اللون اللازوردي. تجولت لساعة وأكثر في هذه المنطقة التي تعد نوعًا ما خارج الحدود. كانت معظم نوافذ البيوت في الحارات الجانبية مسمَّرة بألواح خشبية وعلى الجدران المسخمة المبنية من الطوب كُتبت عبارات مثل ساعدوا في إنقاذ الغابات المطيرة أو مرحبًا بكم في المقبرة الملكية الهولندية. الآن لم أعد قادرًا على اتخاذ قرار العودة. عوضًا عن ذلك اشتريت لنفسي كيسًا من البطاطا المقرمشة من ماكدونالدز، حيث شعرت بنفسي تحت أضواء طاولة البيع الوهاجة وكأنني مجرم مطلوب القبض عليه في كل البلدان منذ زمن بعيد. أكلت البطاطا شيئًا فشيئًا وأنا في طريق العودة للفندق. أمام مداخل المطاعم والبارات في شارع المحطة تجمعت في الأثناء مجموعات صغيرة من الرجال المشرقيين، كان معظمهم يدخن في صمت، فيما بدا نفر منهم منشغل بإبرام صفقات مع زبائنه. عندما وصلت إلى القناة الصغيرة التي تقطع شارع المحطة مرقت فجأة من أمامي سيارة ليموزين أمريكية مطلية بالكروم، مفتوحة السقف ومدججة بالأضواء عابرة الشارع وكأنها ظهرت من العدم. وداخلها جلس قواد يرتدي بذلة بيضاء ونظارة شمسية ذات إطار ذهبي معتمرًا قبعة بافارية مثيرة للسخرية. وفيما كنت أتابع هذه الظاهرة التي تكاد تكون خارقة، اندفع باتجاهي من ناصية الشارع شخص

داكن البشرة. كان الفزع المحض مرسوم على سحنته. وقد التف حولي ليضعني في طريق مطارده الذي كان على ما يبدو من حيث الشكل من أهل بلده. إضافة إلى ذلك لا بد أن المُطارِد الذي لمعت عيناه من الرغبة في القتل والغضب كان طباخًا، لأنه كان يرتدي مريلة مربوطة حول وسطه ويحمل سكينًا طويلة لامعة في يده، وقد مرت بالكاد من جانبي حتى اعتقدت أنني شعرت بها وهي تخترق ضلوعي. مشوشًا بتأثير هذه التجربة رقدت في غرفة الفندق على السرير. كانت ليلة بغيضة وصعبة، والرطوبة كانت عالية جدًا لدرجة يستحيل معها ترك النوافذ مغلقة. وإذا ما فتحتها، تسمع ضجيج المرور عند تقاطع الشارع، وكل عدة دقائق الصرير المفزع للترام الذي يتحرك زحفًا عند ملف الدوران للمحطة الأخيرة. لذلك كنت في حالة سيئة عندما وقفت في اليوم التالي قبل الظهيرة أمام البورتريه الجماعي محاضرة التشريح للدكتور نيكولاس تولب الذي تقارب مساحته أربعة أمتار مربعة. ورغم أنني أتيت إلى لاهاي خِصّيصًا من أجل تلك اللوحة التي ظلت تشغلني كثيرًا في السنوات التالية، لم أتمكن في حالة الإرهاق التي كنت عليها من التوصل بأي طريقة لأي فكرة تخص الجسد المسجى للتشريح تحت أنظار نقابة الجراحين. بل شعرت دون أن أدرك سببًا محددًا بالتأذي من اللوحة لدرجة أنني احتجت لاحقًا لنحو ساعة حتى هدأتُ من روعي بعض الشيء أمام لوحة ياكوب فان رويسدال منظر لهارلم مع حقول تبييض الكتان. يُرى السهل الممتد أمام هارلم من مكان مرتفع، من فوق الكثبان كما يُدَّعى، لكن اللوحة تعطي انطباعًا قويًا بمنظور شامل من علٍ بحيث كان من الضروري أن تكون هذه الكثبان تلالًا حقيقية، أو حتى سلسلة جبال صغيرة. في الحقيقة لم يقف رويسدال أثناء رسمه للوحة على الكثبان، بل وقف في نقطة مصطنعة ومتخيلة فوق العالم. على هذا النحو فقط تمكن من

رؤية كل شيء في الوقت ذاته: السماء العملاقة الملبدة بالسحب التي استحوذت على نحو ثلثي اللوحة، والمدينة التي بدت بالكاد - باستثناء كاتدرائية سانت بافو الأعلى من كل البيوت - مثل امتداد باهت للأفق. والشجيرات والغابات الصغيرة الداكنة، المزرعة في المقدمة والحقل المتوهج الذي وُضعت عليه أثواب الكتان فوق المُبَيِّض، وحيث يعمل، بقدر ما استطعت أن أحسب، نحو سبعة أو ثمانية أشخاص لا يزيد طولهم على نصف سنتيمتر. بعد مغادرتي المعرض جلست بعض الوقت على سلم القصر المشمس. وكما ورد في الدليل الذي اشتريته فقد أمر الحاكم يوهان ماوريتس خلال إقامته في البرازيل التي دامت سبع سنوات، ببناء هذا القصر وتجهيزه ليكون مقر إقامة ذي طابع عالمي تتجلى فيه عجائب أبعد مناطق العالم وفقًا لمقولته الأثيرة «حتى آخر الدنيا». ويُقال إنه عند تدشين القصر في مايو عام 1644، أي بالضبط قبل مولدي بثلاث مئة عام، قام أحد عشر هنديًّا أحمر ممن جلبهم الحاكم معه من البرازيل بأداء رقصة في الساحة المُبلطة أمام المبنى، وأعطوا مواطني المدينة المتجمعين فكرة عن البلدان الغريبة التي وصل إليها نفوذ بلدهم الآن. ومنذ ذلك الحين اختفى هؤلاء الراقصون الذين لم يرد لهم أي ذكر من بعد، دون ضجيج مثل الظل، في صمت مثل طائر مالك الحزين الذي رأيته، عندما شرعت في الحركة مجددًا، وهو يطير بخفقات جناح منتظمة ويكاد يلامس سطح بركة هوفيفر غير آبه بحركة المرور الزاحفة على ضفتها. من يدري كيف كان الأمر في عصور سالفة؟ لقد وصف ديدرو هولندا في يوميات رحلته إليها بأنها مصر أوربّا، حيث يمكن للمرء أن يسير في قارب عبر الحقول، وعلى مدى البصر لا يكاد يرى شيئًا يبرز فوق السهول المغمورة بالفيضان. وأبسط ارتفاع في هذا البلد الرائع، يكتب ديدرو، يجعل المرء يشعر بالسمو الأعظم. وليس ثمَّت ما هو أكثر إرضاء للعقل

البشري بالنسبة له من المدن الهولندية النظيفة والنموذجية في كل شيء بقنواتها المستقيمة التي تحيطها صفوف الأشجار من الجانبين. تتوالى المساكن بعضها وراء بعض وكأنها قد أُبدعت بين ليلة وضحاها بيد فنان وفقًا لخطة محكمة حتى أدق التفاصيل، وحتى في قلب أكبرها يظن المرء وكأنه في الريف. وقد قال ديدرو عن لاهاي، التي كان عدد يبلغ سكانها في ذاك الحين قرابة أربعين ألف نسمة، إنها أجمل قرية على الأرض وأن الطريق الممتد من المدينة بمحاذاة شاطئ شفينينغن هو كورنيش لا مثيل له في أي مكان. لم يكن من السهل عليّ أن أتفهم آراء ديدرو وأنا أتجول بنفسي بطول شارع بارك باتجاه شفينينغن. هنا وهناك كانت ثمَّت فيلات جميلة داخل حديقة، لكن بخلاف ذلك لم يكن هناك تقريبًا ما يجعلني أتمهل. من المحتمل أنني سرت في الطرق الخطأ، كما يحدث لي كثيرًا في المدن الغريبة. في شفينينغن حيث كنت آمل أن أرى البحر من بعيد، تحتم علي أن أسير لمسافة طويلة في ظل بنايات سكنية متعددة الطوابق وكأنني أمشي في قاع أخدود. وعندما وصلت أخيرًا إلى الشاطئ، كنت منهكًا، بحيث رقدت ونمت حتى ساعات الأصيل. سمعت صخب البحر وفهمت في منتصف حلم كل كلمة هولندية واعتقدت لأول مرة في حياتي أنني أصل لأول مرة إلى موطني. وحتى عند يقظتي بدا لي للحظة كأن شعبي الذي يحيط بي يقوم باستراحة لموكبنا عبر الصحراء. برزت واجهة المنتجع الصحي أمامي مثل خان كبير للقوافل، وهو تشبيه جاء مناسبًا لأن الفندق الذي بُني وسط الرمال، على الأغلب عند منعطف القرن، كان محاطًا بعدد كبير من المنشآت التي أُقيمت في الفترة الأخيرة ولها أسطح تشبه الخيام، وآوت بداخلها أكشاك لبيع الصحف والتذكارات ومطاعم الوجبات السريعة. في أحد هذه المطاعم، مطعم ماسادا - غريل، حيث وُضعت على اللوحة المضاءة فوق البار صور لوجبات كوشر عوضًا عن

التنويعات المعتادة لوجبات الهامبرغر، شربت فنجانًا من الشاي وتأملت بإعجاب جَدَّين يشعّان سعادة وهما محاطان بجمْع متنوع من أحفادهما أثناء احتفالهم بعيد عائلي أو بالعطلة في المحل الذي خلا من أي زوار آخرين.

في المساء في أمستردام، جلست في الصالون الهادئ ذي الأثاث العتيق واللوحات والمرايا بفندق كنت أعرفه من قبل عند منتزه فوندل وسجلت تدوينات عديدة عن محطات رحلتي التي قاربت نهايتها، عن الأيام التي قضيتها في البحث في باد كيسينغن، وعن نوبة الهلع التي أصابتني في بادن، والرحلة بالقارب في بحيرة زيورخ، وضربات الحظ المتتالية في صالة القمار في ليندناو، وزيارة متحف الفن القديم Alte Pinakothek في ميونيخ، وعن الشخص الذي نُقش اسمه على قبر القديس الذي أحمل اسمه في نورنبرغ، وتقول الأسطورة عنه إنه ابن كان ابن ملك من داقية أو من الدنمارك تزوج في باريس من أميرة فرنسية. ويقال إنه في ليلة العرس غشيه شعور عميق بعدم القيمة. ورُوي أنه قال لزوجته: انظري، اليوم أجسادنا مزينة وغدًا ستكون طعامًا للدود. وقبل مطلع الفجر كان قد لاذ بالفرار، وقام برحلات للمزارات الدينية في

إيطاليا وعاش هناك منزويا لفترة طويلة إلى أن شعر بتنامي قدرته على صنع المعجزات. وبعد إنقاذه لطفلي الملك الأنجلوساكسوني وينيبالد ووُنيبالد من الموت الأكيد جوعًا بخبزٍ خبزه من الرماد، وأحضره لهما رسول من السماء، وبعد عظة ذائعة الصيت في فيتشينسا انتقل عبر جبال الألب إلى ألمانيا. وبالقرب من ريغينسبورغ عبر نهر الدانوب فوق معطفه وأعاد في المدينة كوبًا مكسورًا كما كان سليمًا. وضاعف النار في موقد حوذي يبخل في استخدام الحطب بالاستعانة بدلاة جليدية. دائمًا ما كان لقصص احتراق المادة الحيوية المتجمدة أهمية خاصة عندي وسألت نفسي كثيرًا، ما إذا كان التجمد والتصحر الداخلي هو في نهاية المطاف الشرط لكي يتمكن المرء بالاستعانة باستعراض رخيص زائف من جعل العالم يظن في أن القلب المسكين لا يزال مشتعلًا. وعلى أي حال، يقال إن القديس الذي أحمل اسمه قد صنع فيما بعد خلال إقامته الزاهدة في منطقة غابات رايشسفالد بين ريغنيتس وبيغنيتس المزيد من المعجزات الكثيرة، وشفى مرضى، قبل أن يجر جثته ثوران شجيعان على عربة، حسبما قرر قبل مماته، إلى المكان الذي يوجد به قبره إلى يومنا هذا.

وبعد ذلك بقرون في مايو 1507 قرر حاكم نورنبرغ صنع تابوت من النحاس الأصفر على يد الحداد بيتر فيشر لأمير السماء المقدس زاند زيبولتن. في يونيو عام 1519 وبعد الانتهاء من العمل الذي استغرق 12 عامًا، وُضع الضريح التذكاري الذي يزن أطنانًا ويصل ارتفاعه لخمسة أمتار وتحمله اثنتا عشرة حلزونة وأربعة درافيل نشطة، ويجسد تاريخ الخلاص المسيحي، في مذبح الكنيسة التي تحمل اسم قديس المدينة. عند قاعدة الضريح تتزاحم تماثيل لفاونوس إله الحقول عند الرومان وللحوريات والكائنات الخرافية والحيوانات من كل نوع يمكن تخيله، من أجل تمثيل الفضائل الأساسية وهي الذكاء والاعتدال والعدل والشجاعة. بالإضافة

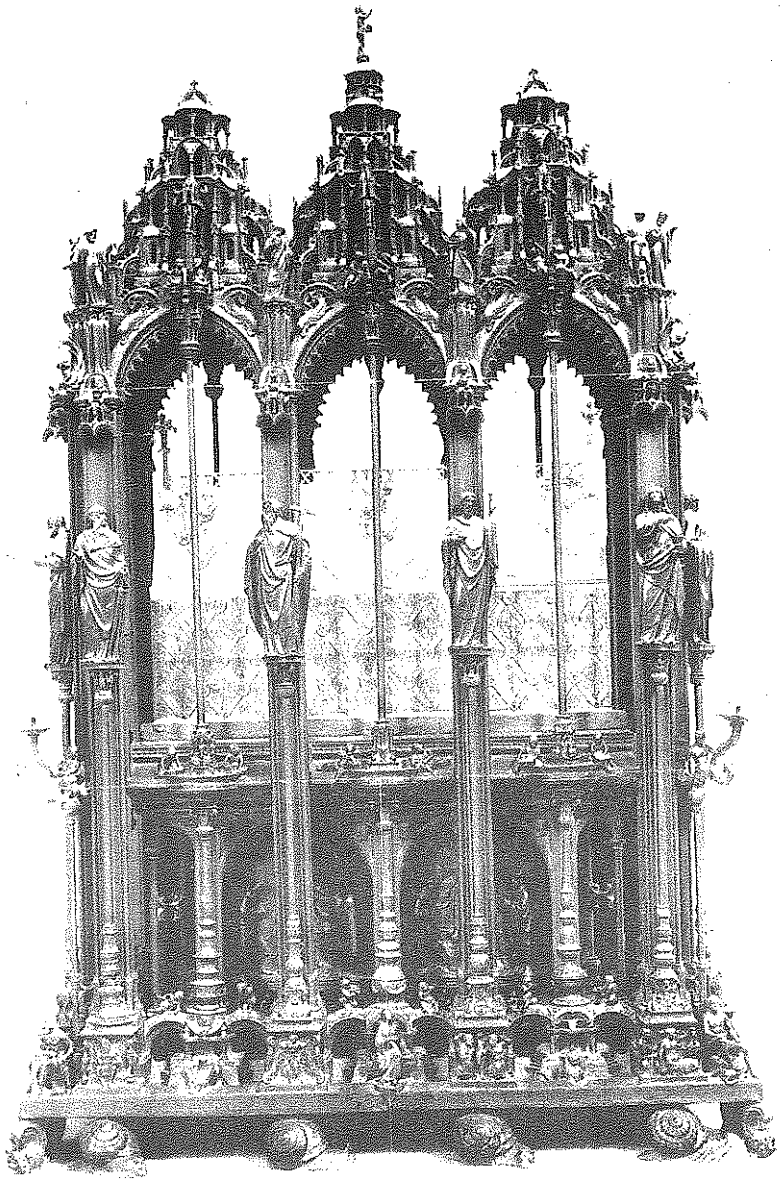

إلى ذلك توجد شخوص من عالم الأساطير - نمرود الصياد وهرقل بهراوته وشمشون برأس الحمار والإله أبوللو مع إوزتين عراقيتين - إلى جانب تصوير معجزة الجليد وإطعام الجائعيْن واستتابة زنديق. ثم يأتي الرسل مع آلات تعذيبهم ورموزهم وفي الأعلى مدينة السماء ذات القِمم الثلاث بمساكنها التي لا تحصى، أورشليم العروس المنشودة المبتغاة، مسكن الله مع الناس، وصورة لحياة أخرى صارت جديدة. وفي داخل الضريح المحاط بثمانين ملاكًا محلقًا والمسبوك في قالب واحد، ترقد في نعش مطعم بصفائح الفضة رفات الرجل القدوة، رائد عصر سُتمسح فيه الدموع من العيون ولا يكون حزن ولا وجع ولا صراخ.

حل الليل في أمستردام. جلستُ في الظلام في غرفتي في سطح الفندق الواقع أمام منتزه فوندل وأنصتُ لصوت الزوابع التي تهزُّ الآن قمم الأشجار. من بعيد اندفع رعد، وظهر برق ضعيف في الأفق. حوالي الساعة الواحدة عندما سمعت أولى قطرات المطر تطرق شباك غرفتي المنحدر، تقدمت إلى إفريز النافذة وانحنيت للخارج لأواجه الهواء الدافئ المفعم بالرذاذ. وسرعان ما ازدادت زخات المطر المتساقطة بغزارة في أعماق المنتزه الشاحبة التي أصبحت في الأثناء تومض بأضواء تشبه الألعاب النارية. وبقبقت مزاريب السطح وكأنها جدول وسط الجبال. وذات مرة عندما برق البرق ثانية عبر السماء نظرتُ إلى حديقة الفندق في الأسفل ورأيت في الحفرة الواسعة التي تفصل بين حديقة الفندق والمنتزه زوجًا من البط يقف بلا حراك فوق سطح الماء وسط بقعة من سائل لزج له خضرة النجيل، محتميًا بفرع صفصافة متدلٍّ. بمثل هذا الوضوح التام ظهرت هذه الصورة في الظلام خلال جزء من الثانية، لدرجة أنني أتوهم الآن أنني لا أزال أرى كل ورقة من أوراق الصفصافة والظلال الدقيقة في ريش الطائرين، بل أيضًا النقاط والمسام فوق جلد الجفون المرتخي فوق عيونها.

كان مبنى مطار سخيبول مفعمًا بأجواء هادئة على نحو رائع بحيث يمكن للمرء أن يظن أنه في مكان خارج العالم الأرضي. تنقل المسافرون، وكأنهم تحت تأثير مواد مهدئة أو كأنهم يتحركون في زمن ممطوط، عبر صالات المطار أو تهادوا. واقفين في سكون على السلالم المتحركة صاعدين أو هابطين نحو وجهاتهم المختلفة. في القطار الخارج من أمستردام وقعت عيني وأنا أتصفح هذا الكتاب عن المدارات الحزينة على وصف «كامبوس إيلزيوس» أي جزيرة الخالدين، وهو شارع في ساو باولو بنى فيه الأغنياء في الماضي فيلات وقلاع خشبية بألوان زاهية على الطراز الفانتازي السويسري، تداعت تدريجيًّا وسط الحدائق التي غطتها أشجار الكافور والمانجو بكثافة، كما كتب ليفي شتراوس متذكرًا رحلته البرازيلية. لذلك بدا لي المطار الذي لفه هذا الصباح همس ناعم كأنه فناء أمامي لبلد مجهول، لا تُكتب العودة للمسافر إليه. من حين لآخر يُنادَى أحدُهم بأصوات مذيعات المطار التي يبدو جليًّا أنها بلا جسد وتشابه في نطق رسائلها أصوات الملائكة.

Passagiers Sandberg en Stromberg naar Copenhagen. Mr. Freeman to Lagos.

La señora Rodreigo, por favor

سواء طال الوقت أو قصر سيأتي الدور على هؤلاء المتجمعين هنا. جلستُ على واحدة من الكنبات التي رقد عليها هنا وهناك آخرون ممدين أو متكورين في غير اكتراث، وبعض هؤلاء ممن قضى الليلة في صالة الترانزيت ظل نائمًا. غير بعيد عني جلست مجموعة من الأفارقة وقد لبسوا أردية فضفاضة وبيضاء كالثلج وأمامي مباشرة قرأ رجل مهندم بصورة لافتة ولديه سلسلة ساعة ذهبية معلقة في سترته جريدة احتلت الجزء الأكبر من صفحتها صورة فوتوغرافية لكتلة دخان هائلة تنبعث من

ذاتها وتشبه سحابة نووية فوق جزيرة مرجانية: سحب الرماد فوق بركان بيناتوبو، كان هو العنوان الرئيس. في الخارج ومضت حرارة الصيف فوق المساحات الخرسانية، وتحركت عربات نقل الأمتعة الصغيرة جيئة وذهابًا بلا انقطاع. على نحو عصي على الفهم، ارتفعت من مدرج الإقلاع الطائرات الثقيلة المحملة بمئات البشر واحدة تلو الأخرى في الهواء الأزرق. ولا بد أنني قد غفوت لفترة طويلة أثناء تأملي لمسرح الأحداث الجاري أمامي، لأنه فجأة اخترق اسمي أذني من بعيد جدًّا، ومن بعده مباشرة جاء التحذير: الرجاء التوجه مباشرة إلى بوابة C4.

صعدت الطائرة المروحية الصغيرة التي تتنقل بين أمستردام ونوريتش أولًا في مواجهة الشمس قبل أن تستدير باتجاه الغرب. تحتنا كانت تقع واحدة من أكثر المناطق اكتظاظًا بالسكان في أوربّا. صفوف لا نهائية من المنازل المتجاورة، وضواحٍ هائلة الحجم، ومجمعات للأعمال ومبان زجاجية لامعة يبدو وكأنها تطفو على السطح مثل ألواح جليدية كبيرة مربعة الحواف، حتى آخر زاوية مستغلة من الأرض. حولت نشاطات التنظيم والاستزراع والبناء التي امتدت لقرون المساحة بأسرها إلى نموذج هندسي. بخطوط مستقيمة ومنحنيات طفيفة سارت طرق السيارات والقنوات الملاحية وخطوط السكك الحديدية بين المروج وقطع الغابات والأحواض وخزانات المياه. مثل عداد اختُرِع لحساب اللانهائية، تمرق السيارات في مسارها الضيق، فيما تُوقظ السفن السائرة باتجاه المصب أو عكسه الانطباع وكأنها تقف ساكنة للأبد. كبقايا من زمن غابر بدت ضيعة محاطة بجزيرة من الأشجار مغروسة في محيطها الملائم. رأيت ظل طائرتنا يهرع في الأسفل فوق الدُغل والأسياج وصفوف أشجار الحور والقنوات. زحف جرّار عبر حقل جرى حصاده وكأنه يسير وفقًا لمسطرة، ليقسمه إلى نصفٍ فاتح اللون وآخرَ غامق. لكن لم يكن هناك

أي أثر يمكن رؤيته لأي إنسان. سواء طرت فوق نيوفاوندلاند أو فوق مهرجان الأضواء الذي يمتد من بوسطن إلى فيلادلفيا عند هبوط الليل، أو فوق الصحاري العربية التي تلمع كالصدف، أو فوق منطقة الرور أو منطقة فرانكفورت في ألمانيا، دائمًا ما يبدو كأنه لا يوجد بشر، وكأنه لا توجد فقط سوى منجزاتهم، والأماكن التي يختبئون فيها. يرى المرء مساكنهم والطرق التي تربط بينهم، ويرى الدخان الذي يتصاعد من بيوتهم ومصانعهم، يرى السيارات التي يجلسون فيها، لكن لا يرى البشر أنفسهم. إنهم حاضرون في كل مكان على وجه البسيطة وينتشرون أكثر فأكثر في كل ساعة، ويتحركون داخل خلايا الأبراج السامقة وهم منخرطون بشكل مطرد في شبكات تفوق في تعقيدها القدرات التخيلية لأي فرد. سواء كما كانت الحال في الماضي في مناجم الماس في جنوب إفريقيا وسط آلاف الأوناش والرافعات، أو كما هي الحال الآن وسط قاعات مكاتب البورصات والوكالات وسط تيار المعلومات المتدفق بلا انقطاع حول الكرة الأرضية. إذا ما تأملنا أنفسنا من مثل هذا الارتفاع، سنشعر بالفزع لقلة ما نعرفه عن أنفسنا، عما نبتغيه وعن مصيرنا، هكذا فكرت، عندما خلفنا الساحل وراءنا وطرنا فوق البحر ذي اللون الأخضر الهلامي.

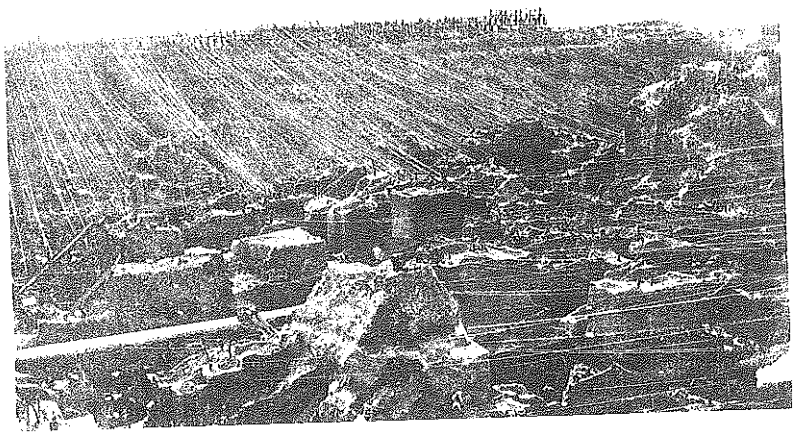

هكذا تقريبًا كانت ذكرياتي عن إقامتي في هولندا قبل عام من جلوسي في هذه الليلة وحيدًا على ضفة غنهيل في ساوثولد. ويمكنني أن أضيف هنا أنه يوجد في ساوثولد بيت صغير فوق الكورنيش يوجد به ما يعرف بـ Sailor's Reading Room أي قاعة قراءة البحارة، وهي منشأة عامة تُستخدم في المقام الأول كمتحف بحري، يجمع ويحفظ كل ما يرتبط بالبحر وحياة البحر، وذلك منذ أن بدأ البحارة في الانقراض. على الجدران عُلقت بارومترات وأدوات ملاحية، وتماثيل مقدمات السفن ونماذج سفن داخل فاترينات زجاجية وداخل قنينات. وعلى الموائد ثمَّت سجلات قديمة لقيادة الميناء وسجلات الرحلات ودراسات عن السفر بالسفن الشراعية ومجلات ملاحية متنوعة وكتب تتضمن لوحات ملونة تصور سفنًا شراعية وبواخر ذات سمعة أسطورية مثل Conte di Savoia أو Mauretania، وسفنًا عملاقة، مصنوعة من الحديد والصلب وطولها يربو على ثلاث مئة متر، وكثيرًا ما تختفي مداخنها التي يمكن أن تبتلع كل قبة الكابيتول في واشنطن بداخلها، وسط السحب الواطئة. تفتح قاعة القراءة في ساوثولد أبوابها يوميا (ما عدا أيام عطلة عيد الميلاد) من السابعة صباحًا وتظل مفتوحة حتى منتصف الليل تقريبًا. في أفضل الأحوال يأتي بعض الزوار في أوقات العطلات، وهذه القلة القليلة التي تأتي، تخرج عادة سريعًا بعد جولة قصيرة مصحوبة بعدم الفهم المُميِّز لهذا النوع من زوار العطلات. ولهذا دائمًا ما تكون قاعة القراءة خالية تقريبًا إلا من شخص أو شخصين من الصيادين أو البحارة ممن لا يزالون على قيد الحياة، يجلسون في صمت في مقاعد ذات مساند ويتركون الوقت يمر. وفي المساء يلعبون مع بعضهم أحيانًا دورة بلياردو في الغرفة الخلفية. عندئذ يسمع المرء قرع الكرات التي يتخللها هدير البحر الذي يتسلل خفيضا من الخارج. وأحيانًا عندما يسود السكون تمامًا، يُسمع

أيضًا صوت حكّ أحد اللاعبين رأسَ عصا البلياردو بالطباشير ونفخه للغبار من عليها. عندما أكون في ساوثولد، فإن مكاني المفضل جدًّا هو قاعة قراءة البحارة. هنا يمكنك القراءة أو كتابة الرسائل أفضل من أي مكان آخر، أو الانشغال بأفكارك أو ببساطة أن تنظر من نوافذها خلال الشتاء على أمواج البحر التي تضرب الكورنيش. لذلك قمت هذه المرة وفقًا لعادتي، في أول صباح بعد وصولي لساوثولد بالذهاب إلى قاعة القراءة بنية تدوين بعض الملاحظات عن خبراتي في اليوم السابق. بشكل عابر، وكما كنت أفعل في مرات سابقة، تصفحت أولًا دفتر يوميات سفينة الحراسة ساوثولد التي كانت راسية في المرفأ منذ خريف عام 1914. على الصفحات الكبيرة مستطيلة الشكل التي تحمل كل منها تاريخًا مختلفًا توجد تدوينات منفردة

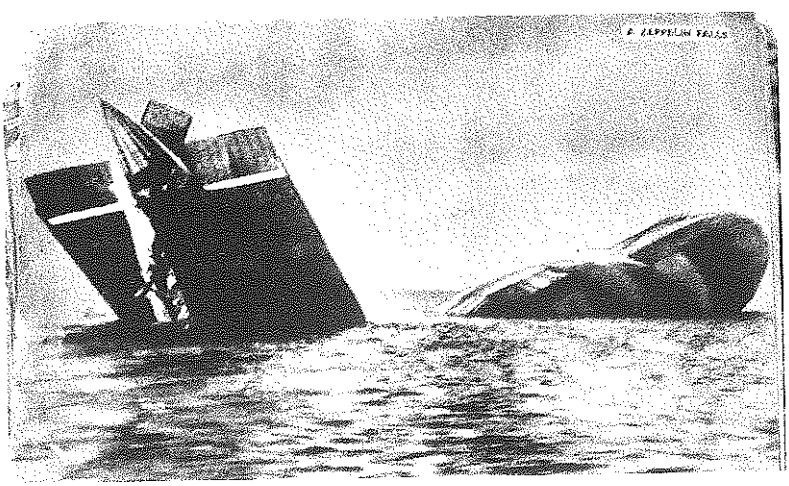

Maurice Farman

Bi – Plane n'ward inland

أو

White steam – yacht flying white ensign cruising on horizon to S.

وفي كل مرة، أحاول فيها فك رموز هذه التدوينات، أتعجب من أن الأثر الذي تلاشى في الجو أو الماء منذ زمن بعيد لا يزال بالإمكان رؤيته هنا. عندما أغلقت بحذر الغلاف الرخامي لدفتر يوميات السفن، وأنا أتأمل في الاستمرارية الملغزة لهذه الكتابات، وقعت عيني بعيدًا على طرف المائدة على مجلد ضخم، لم أرَه إطلاقًا خلال زياراتي السابقة لقاعة القراءة. وكما تبين فقد كان عبارة عن تاريخ مصور للحرب العالمية الأولى، جرى إعداده ونشره في عام 1933 من قبل هيئة تحرير صحيفة ديلي إكسبريس، سواء أكان ذلك للتذكير بالكارثة التي وقعت في الماضي أو للتحذير مما هو آتٍ. يوثق المجلد الضخم لكل ميادين القتال، من جحيم فال مرورًا بجبهة الألب الإيطالية النمساوية إلى حقول فلاندر، ويُعرض فيه فقط كل شكل متخيل من أشكال الموت العنيف، من سقوط أحد رواد الطيران بمفرده فوق مصب نهر السوم ووصولًا إلى الموت الجماعي في مستنقعات غاليسيا. كما نرى به المدن الفرنسية التي تحولت إلى ركام ورماد، والجثث المتعفنة في المنطقة المحايدة ما بين الخنادق، والغابات التي جزّتها نيران المدفعية جزًا. والسفن الحربية الآخذة في الغرق تحت سحابة نفط سوداء. وأرتال عسكرية تسير في صفوف منتظمة، وتدفقات لا نهاية لها من اللاجئين، ومناطيد تسيبلين ممزقة، وصور من بيشميشل وسانت كوينتين، ومن مونتفوكون وغاليبولي، صور الدمار والتشويه والاغتصاب والجوع والنيران والبرد القارص. والعناوين كلها دون استثناء تقريبًا مصبوغة بسخرية مريرة – عندما تعد المدن شوارعها للحرب! تلك كانت غابة! كان ثمَّت رجل! ثمَّت ركن في حقل أجنبي، هذه هي إنجلترا للأبد!

وهناك جزء خاص من المجلد مخصص للأوضاع الفوضوية في منطقة البلقان، وهي منطقة كانت آنذاك أبعد كثيرًا لإنجلترا من لاهور

أو أم درمان. جنبًا إلى جنب تتراصُّ صور من صربيا والبوسنة وألبانيا، لقطات للسكان الفارين ولأشخاص منفردين يحاولون الفرار مما يسمى بمجريات الحرب بعربات تجرها الثيران في قيظ الصيف عبر الشوارع المغبرة أو على الأقدام عبر العواصف الثلجية مع حصان ضئيل منهك جدًّا. كانت طلقة سراييفو الطائشة ذات الشهرة العالمية هي بالطبع المقدمة لمسلسل البؤس هذا. برنسيب يشعل فتيل الحرب Princip lights the fuse!

هكذا كُتب فوق الصورة. إنه الثامن والعشرون من يونيو 1914، يوم مشمس، في الساعة العاشرة وخمسٍ وأربعين دقيقةً على جسر اللاتين.

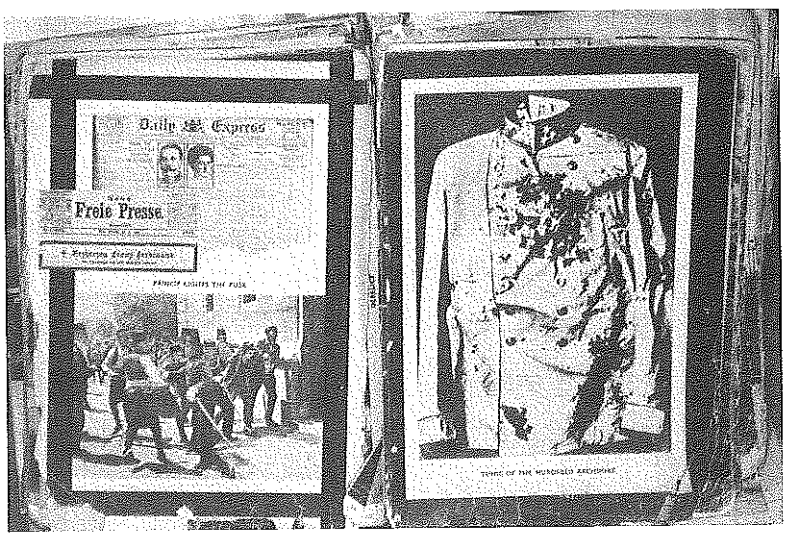

يرى المرء بضعة بوسنيين وبعضًا من العسكر النمساويين والقاتل عندما قُبض عليه توًّا. الصفحة المقابلة تعرض سترة الأرشيدوق فرانتس فرديناند العسكرية المثقوبة بالرصاص والمشبعة بالدماء. من الواضح أن هذه السترة قد صُورت آنذاك خصيصى للصحافة، بعد أن خُلعت

عن جسد ولي العهد الميت ووُضعت في صندوق وأُرسلت، حسب تخميني، بالقطار إلى عاصمة الإمبراطورية حيث يمكن رؤيتها ليومنا هذا مع القبعة العسكرية والبنطلون في صندوق متعلقات أسود الإطار في متحف التاريخ العسكري. بعد إدانته سُجن غافريليو برنسيب الذي كان وقت الاغتيال قد أتم عامه التاسع عشر وذهب حتى وقت قريب إلى المدرسة الثانوية في بلغراد، في منشأة تيريزينشتات الحصينة، حيث لقي حتفه هناك في إبريل عام 1918 جراء درن العظام الذي أخذ ينهش فيه منذ مطلع شبابه. وقد احتفل الصرب عام 1993 بذكرى وفاته الخامسة والسبعين.

في العصر جلست حتى موعد الشاي وحيدًا في بار ومطعم فندق كراون Crown Hotel. كانت قرقعة الأصوات في المطبخ قد توقفت منذ وقت طويل. داخل الساعة ذات الصندوق الطويل المزودة بشمس للشروق وأخرى للغروب وقمر يظهر وقت المساء اشتبكت التروس وتحرك البندول بانتظام في الاتجاهين. وبهزة وراء الأخرى تحرك العقرب الكبير في حلقته، وشعرت لبعض الوقت وكأنني في سلام أبدي، عندما وقعت عيني أثناء تصفحي بصورة غير مكترثة للعدد الأسبوعي لصحيفة «الإندبندنت» على مقال طويل يرتبط بصورة مباشرة بصور البلقان التي شاهدتها صباح اليوم في قاعة القراءة. يبدأ المقال الذي يتناول ما يسمى بعملية التطهير التي قام بها الكروات قبل خمسين عامًا في البوسنة بموافقة الألمان والنمساويين، بوصف لصورة التقطها أحد رجال ميليشيا «الأوستاشا» الكرواتية على ما يبدو للذكرى. وفيها يظهر رفاقه في أفضل مزاج ويتخذون إلى حد ما مظهرًا بطوليًّا وهم يقطعون رأس صربي اسمه برانكو يونغيتش بمنشار. وثمَّت صورة أخرى التقطت بغرض التسلية للرأس المفصول عن الجسد بسيجارة بين الشفتين اللتين بقيتا شبه

مفتوحتين جراء أنات الألم الأخيرة. وقعت هذه الأحداث في معسكر ياسنوفاك الواقع على نهر السافا ولقي فيها سبعُ مئة ألف رجل وامرأة وطفل حتفَهم بطرق يشيب لها حتى شعر المتخصصين في التعذيب من الرايخ الألماني الكبير، مثلما قيل إن بعضهم أقرَّ بذلك في دوائرهم الضيقة. المناشير والسيوف والبُلط والمطارق والأساور الجلدية المزودة بسكين مثبت فيها لغرض قطع الرأس، التي صُنعت لذلك خصيصًا في زولينغن الألمانية، بالإضافة إلى ما يمكن أن يوصف بمشنقة أفقية بُدائية عُلق عليها أبناء الشعوب الغريبة الذين تم تجميعهم من الصرب واليهود والبوسنيين في صفوف مثل الغربان أو طيور العقعق، كلها كانت وسائل الإعدام المفضلة لدى هذه الميليشيا.

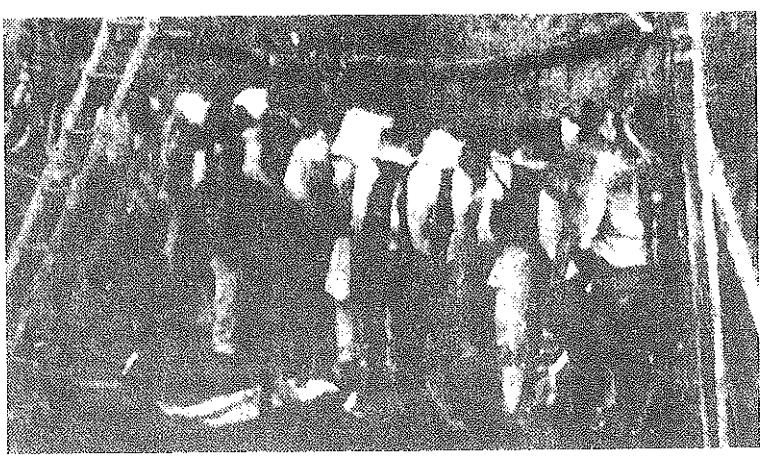

غير بعيد عن ياسنوفاك في محيط لا يزيد على خمسة عشر كيلومترا، كانت أيضًا ثمَّت معسكرات أخرى هي بييدور وساتراً غراديشكا وبانيا لوكا، حيث قامت الميليشيا الكرواتية مدعومة من الجيش الألماني وبسند روحي من الكنيسة الكاثوليكية على نحو مماثل بإنجاز مهامها بشكل يومي. وُثق تاريخ هذه المذبحة التي دامت سنواتٍ في خمسين

ألفًا من الملفات التي خلفها الألمان والكروات، ولا تزال موجودة في أرشيف «بوسناسكه كراينه» في بانيا لوكا، حيث يوجد مقرُّه، أو كان، في إحدى الثكنات العسكرية التي كانت تتبع في السابق الإمبراطورية النمساوية، وكانت في عام 1942 مقر مركز المخابرات التابع للقيادة العسكرية للجيش الألماني لمنطقة البحر المتوسط والبلقان. لا شك أن الناس كانوا إلى حدٍّ ما على علم بما يجري في معسكرات أوستاشا وكذلك بالأشياء الغريبة التي وقعت مثلًا أثناء حملة كوزارا المناهضة لاتباع تيتو، التي قُتل فيها ما بين ستين إلى تسعين ألف شخص جراء ما يسمى بالأعمال القتالية، من خلال الإعدامات أو كنتيجة لعمليات الترحيل القسري. نُقلت نساء كوزارا إلى ألمانيا وقُضي عليهن ضمن نظام العمل القسري الممتد عبر كل أراضي الرايخ. وما تبقى من الأطفال وهو ثلاثة وعشرون ألفًا، قتلت الميليشيا نصفهم في التو واللحظة، والنصف الآخر أرسلته إلى كرواتيا إلى مراكز تجميع عديدة، وعدد غير قليل من هؤلاء أيضًا قضوا بالتيفوئيد أو بسبب الإعياء أو الخوف قبل أن تصل بهم العربات التي تجرها البهائم إلى العاصمة الكرواتية. ومن بقي منهم على قيد الحياة، أكل من فرط الجوع اللوحة الكرتونية التي عُلقت لهم في رقابهم وفيها بياناتهم الشخصية، ومحا بذلك في أقصى درجات اليأس اسمه. بعد ذلك جرت تنشئتهم في عائلات كرواتية تنشئة كاثوليكية وكانوا يُرسلون إلى الكنيسة للاعتراف وللتناول الأول. ومثلهم مثل كثيرين تعلموا ألف باء الاشتراكية وانخرطوا في حِرَفٍ، كعمال في السكة الحديد أو بائعات أو صانعي أدوات أو محاسبين. لكن لا أحد يعرف أي ظلال ذكريات تجوب كالأشباح في دواخلهم إلى يومنا هذا. يبقى أن نذكر في هذا الموضع أنه كان ضمن ضباط مخابرات القيادة العسكرية الألمانية لمنطقة المتوسط والبلقان محامٍ شاب من فيينا، كان مهتمًا في

المقام الأول بإعداد مذكرات تمهد لعمليات إعادة التوطين الملحّة جدًّا لأسباب إنسانية. وقد تلقى من الرئيس الكرواتي أنته بافيليتش الميدالية الفضية لتاج الملك زفونومير بورق البلوط تقديرًا لجهوده الكتابية المشرفة. ويُقال إنه في سنوات ما بعد الحرب ترقى الضابط الذي كان منذ بداية مسيرته المهنية واعدًا ويتمتع بكفاءة إدارية عالية، في مناصب عليا مختلفة من بينها حتى منصب الأمين العام للأمم المتحدة. وبصفته الأخيرة هذه يقُال إنه هو من سجل رسالة صوتية يرحب فيها بكل سكان الكون من خارج كوكب الأرض، وقد بُعثت هذه الرسالة مع تذكارات بشرية أخرى على متن المسبار الفضائي فوياجر 2 إلى أقصى أطراف مجموعتنا الشمسية.

5

في مساء اليوم الثاني بعد وصولي إلى ساوثولد عرضت قناة بي بي سي بعد نشرة الأخبار الليلية فيلما وثائقيًّا عن شخص لم يسبق لي أن سمعت عنه وهو روجر كيزمنت Roger Casement الذي أُعدم عام 1916 في سجن لندن بتهمة الخيانة العظمى. ورغم أن صور هذا الفيلم التي يوجد بها لقطات تاريخية نادرة قد أسرتني، لكنني سرعان ما غرقت في سبات عميق وأنا جالس على الفوتيه القطيفة الأخضر الذي وضعته أمام التليفزيون.

صحيح أنني كنت أسمع بوضوح شديد عبر وَعْيِي الآخذ تدريجيًّا في التلاشي كل كلام راوي حكاية كيزمنت، وكأنه - هكذا تراءى لي - موَجَّهٌ إلي شخصيًّا، إلا أنني لم أتمكن من فهم شيء منه. خشخشي يا طاحونة، خشخشي لي أنا وحدي، كانت هذه الأغنية هي آخر ما ظل يدور في

رأسي. وعندما استيقظت بعد ساعات في مطلع الفجر من وسط كابوس، ورأيت أمامي اختبار الصورة يرتعش على شاشة الصندوق الصامت، لم أتذكر شيئًا سوى أنه جرى الحديث في مقدمة البرنامج عن أن الكاتب جوزيف كونراد قد تعرَّف على كيزمنت في الكونغو واعتبره الشخص الوحيد المستقيم من بين الأوربّيين الذين قابلهم والذين فسدوا من ناحية بسبب المناخ المداري ومن ناحية أخرى بسبب جشعهم وطمعهم. رأيته ذات مرة وهو بصدد الانطلاق إلى داخل برية موحشة كتلك البراري التي تحيط بكل مكان مأهول في الكونغو (كما جاء في اقتباس حرفي من يوميات الكونغو لكونراد، ظل - ويا للغرابة - حاضرًا في ذهني) مسلحًا فقط بعصا معقوفة وفقط برفقة صبي من اللاوندا يحمل صرة، وكلبَيه البولدوغ الإنجليزيين بيدي وبادي. وبعدها بعدة أشهر رأيته خارجًا من البراري ثانية وهو يلوح بعصاه مع الصبي الذي حمل الصرة والكلبَين. كان ربما أنحف قليلًا، لكن بخلاف ذلك لم يصب بضُرٍّ، وكأنه عائد من تمشية ما بعد الظهر في «هايد بارك». ونظرًا لأنني، باستثناء هذه السطور القليلة وبعض الصور المغبشة لكونراد وكيزمنت، قد راح مني - حسبما أفترض - كل ما أورده الراوي في الحلقة عن مسيرة الرجلين، فقد حاولت إلى حدٍّ ما إعادة بناء الحكاية التي غفوت عنها في ساوثولد من المصادر.

في نهاية صيف 1862 سافرت مدام إيفلينا كورزينيوفسكا مع ابنها تيودور جوزيف كونراد الذي لم يكن بعد قد أتم الخامسة من عمره من مدينة جيتومير الواقعة في هضبة بوديلا بغرب أوكرانيا إلى وارسو، لتلتحق بزوجها أبوللو كورزينيوفسكي. الذي كان قد تخلى عن إدارة ضيعته التي لم تكن تدر مالًا وفيرًا بنية المساعدة من خلال الأدب والعمل السياسي التآمري في التحضير لثورة ضد الطغيان الروسي. في منتصف سبتمبر بدأت أولى اجتماعات اللجنة الوطنية البولندية السرية

في منزل آل كورزينيوفسكي. ولا شك أن الطفل كونراد قد رأى على مدى الأسابيع التالية العديد من الشخصيات الغامضة يدخلون ويخرجون من بيت والديه. السحنات الجادة للسادة الذين يتحدثون بصوت خفيض في الصالون الأحمر والأبيض[1] ستجعله يدرك على الأقل أهمية اللحظة التاريخية. بل من المحتمل أن يكون في ذاك الوقت على دراية بالغرض من هذه الأعمال التآمرية ويعرف أن أمه ترتدي الأسود كرمز للحزن على شعبها الذي يرزح تحت وطأة سلطة أجنبية. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلا بد أنه أُعلم بذلك في نهاية أكتوبر على أقصى تقدير عندما قُبض على والده وسُجن في القلعة. وكان منطوق الحكم الذي أصدرته المحكمة العسكرية بعد محاكمة سريعة هو النفي إلى فولوغدًا وهي بقعة نائية مهجورة في الصحراء الواقعة خلف نيشنجي نوفوغورد. فولوغدا، هكذا كتب أبوللو كورزينيوفسكي إلى ابن عمه، هي مجرد بقعة موحلة تتكون شوارعها وطرقاتها من جذوع أشجار ملقية على الأرض. والبيوت كلها، بما فيها أيضًا بيوت نبلاء الريف الزاهية الألوان المصنوعة من الألواح الخشبية، تقف على أعمدة خشبية وسط المستنقعات. كل البيئة المحيطة غارقة ومتحللة وعفنة. وثمَّت فصْلان في السنة، شتاء أبيض وشتاء أخضر. تسعة أشهر تهب الرياح الثلجية من المحيط المتجمد الشمالي. وتنخفض درجات حرارة الترمومتر إلى حدود غير متخيلة. ويحاط المرء بظلمة لا نهائية. وخلال الشتاء الأخضر تُمطر بلا انقطاع. ويدخل الطين عبر الأبواب إلى داخل البيوت. ويتحول التخشب الموتي إلى قحول كئيب. في الشتاء الأبيض يكون كل شيء ميتًا وفي الشتاء الأخضر يكون كل شيء على وشك الاحتضار.

في ظل هذه الظروف يتفاقم مرض السل الذي تعاني منه إيفلينا

(1) لون العلم البولندي. المترجم.

كورزينيوفسكي منذ سنوات دون أي عائق. وتكاد الأيام المتبقية لها على قيد الحياة أن تكون معدودة. والعفو المؤقت الذي أصدرته السلطات القيصرية لها الذي أتاح لها إقامة أطول في ضيعة أخيها بأوكرانيا من أجل استعادة عافيتها، لم يكن بالنسبة لها سوى عذاب إضافي، لأنه بعد نهاية فترة السماح الممنوحة لها تحتم عليها أن تعود مع كونراد إلى المنفى، رغم كل الالتماسات والطلبات، ورغم أنها أقرب للموت منها للحياة. في يوم مغادرتها وقفت إيفلينا كورزينيوفسكي على سلم البيت الإقطاعي في نوفوفاستوف محاطة بجمع من الأقارب والخدم والأصدقاء القاطنين في الجوار. كل المجتمعين، باستثناء الأطفال والخدم بزيهم الخاص، كانوا يرتدون ملابس من القماش أو الحرير الأسود. لم ينبس أحد ببنت شفة. حدَّقت الجدة شبه العمياء في الأرض الخالية عابرة ببصرها للمشهد الحزين. فوق الطريق الرملي المتعرج الذي يلف حول حوض دائري لشجرة زان تقف عربة تجرها الخيول غريبة الشكل وتبدو بشكل خاص أطول من حجمها. يبرز عريش العربة للأمام أكثر من اللازم. كما أن مقعد الحوذي بعيد جدًّا عن مؤخرة العربة المحملة بصناديق السفر والحقائب من كل الأنواع. وجسم العربة نفسه يعلق واطئًا بين العجلات وكأنه بين عالمين منفصلين عن بعضهما للأبد. باب العربة مفتوح وبداخلها على المقعد المبطن ذي الجلد المتشقق يجلس الصبي كونراد منذ بعض الوقت ويرى من وسط ظلمة العربة ما سيقوم بوصفه فيما بعد. تنظر الأم المسكينة بلا عزاء مرة أخرى إلى الجمع، ثم تصعد بحذر درجات العربة مستندة على ذراع الخال تاديوش. يتماسك الجمع الباقي. وحتى ابنة الخالة المحببة إلى قلب كونراد التي تبدو كأميرة وهي تتجول بتنورتها الاسكتلندية وسط الحضور الذي يرتدي السواد، اكتفت بوضع أطراف أصابعها على فمها تعبيرًا عن إحباطها لسفر الاثنين المنفيين.

والآنسة دوراند السويسرية القبيحة التي اعتنت بكونراد طوال الصيف بتفان كبير والتي عادة ما تسيل دموعها في كل مناسبة، تنادي كونراد وهي تلوح بمنديل مودعة إياه: N' oublie pas ton francais, mon cheri أي لا تنس فرنسيتك يا عزيزي! أما الخال تاديوش فيغلق باب العربة ويخطو للوراء. وتتحرك العربة. وسرعان ما يختفي الأصدقاء والأقارب الأعزاء من الفتحة الصغيرة لشباك العربة. وعندما ينظر كونراد من الناحية الأخرى، يرى على طرف الحوض الدائري لشجرة الزان عربة قائد شرطة المنطقة التي تجرها حسب الطريقة الروسية ثلاثة خيول وهي تتحرك، وقائد الشرطة وهو يعتمر بيده ذات القفاز قبعته التي يلفها شريط أحمر ناري ويضغطها حتى تغطي عينيه.

في بداية إبريل 1865 وبعد ثمانية عشر شهرًا من مغادرة نوفوفاستوف تموت إيفلينا كورزينيوفسكي في المنفى وهي في الثانية والثلاثين من عمرها جراء الآثار التي نشرها السل في جسدها وبسبب الحنين للوطن الذي أكل روحها. إرادة الحياة لدى أبوللو قاربت أيضًا أن تخبو، لدرجة أنه لم يعد قادرًا على تخصيص جهده لتعليم ابنه المغتم لكثرة ما رأى من بؤس. وتقريبًا لم يعد أبدًا إلى ممارسة عمله. على أقصى تقدير كان يغير سطرًا هنا أو هناك في ترجمته لرواية فيكتور هوغو «عُمّال البحر». ويبدو له هذا الكتاب الممل جدًّا مثل مرآة لحياته. إنه كتاب عن مصائر في الغربة كما يقول لكونراد.

عن أشخاص مبعدين وضائعين، عن إهدار المصير، كتاب عن هؤلاء عن الذين يفكرون منعزلين بمفردهم.

في عام 1867 قبيل أعياد الميلاد يُطلق سراح أبوللو كورزينيوفسكي من المنفى الروسي. فقد توصلت السلطات إلى استنتاج بأنه لم يعد قادرًا على إحداث أي ضرر ويصدرون له لأغراض النقاهة جواز سفر لرحلة

واحدة إلى جزيرة ماديرا في البرتغال. لكن لا الوضع المالي لأبوللو ولا حالته الصحية التي أصبحت في الأثناء متضعضعة جدًّا سمحا له بالسفر. بعد إقامة قصيرة في ليمبرغ (لفوف) بغرب أوكرانيا، التي رأى أن الطابع النمساوي يغلب عليها بشدة، انتقل إلى سكن في شقة بعدة غرف في شارع بوسيلسكا في كراكوفا. هناك قضى معظم الوقت ساكنًا بلا حراك في مقعده ذي المسند حزينًا على زوجته المفقودة وعلى كل الحياة الفاشلة وعلى الصبي المسكين الوحيد الذي كتب لتوه مسرحية وطنية بعنوان عيون يوحنا زوبييسكي[1]. أما هو أبوللو فقد أحرق كل مخطوطاته في نار المدفأة. أحيانًا كانت تتطاير ندفة لا وزن لها من من الورق المحروق تشبه في لمعانها مزقة من الحرير الأسود ويحملها الهواء لبعض الوقت عبر الغرفة، قبل أن تهبط في مكان ما على الأرض أو تتلاشى في الظلام. ومثل إيفيلينا جاءت وفاة أبوللو في الربيع عندما بدأ الجليد في الذوبان، لكنه لم ينعم بمفارقة الحياة في يوم ذكراها السنوية. حتى أواخر مايو كان عليه أن يلازم فراشه وقد ازداد نحافة ووهنا. خلال الأسبوع الذي كان يحتضر فيه أبوللو، كان كونراد يجلس دائمًا بعد الظهر عند عودته من المدرسة على طاولة صغيرة مضاءة بمصباح أخضر في غرفة بلا نوافذ وكتب واجباته المنزلية. بقع الحبر في الكراس وفي يديه كانت نابعة من الخوف في قلبه. عندما كان باب الغرفة ينفتح، كان يسمع نفَسَ والده الواهن. قامت راهبتان بغطاء رأس ناصع البياض برعاية المريض. كانتا تمرقان هنا وهناك بلا ضجيج، تقومان بهذا الأمر وذاك وتنظران أحيانًا بقلق بالغ للطفل الذي سيصبح قريبًا يتيمًا وهو يرص الحروف بعضها إلى جانب بعض أو يعد الأرقام، أو يقرأ لساعات وساعات كتب مغامرات بولندية وفرنسية ضخمة وتقارير رحلات وروايات.

---

(1) يوحنا زوبييسكي الثالث (1629 – 1696) كان ملك بولندا وحاكم ليتوانيا، كما أنه أنقذ فيينا من حصار الأتراك لها. المترجم.

تحولت جنازة الرجل الوطني أبوللو كورزينيوفسكي إلى تظاهرة صامتة كبيرة. وبطول الشوراع التي أُوقفت فيها حركة المرور وقف عمالٌ ملتحون وتلاميذ مدارس وطلاب جامعات ومواطنون خلعوا قبعاتهم الأسطوانية في حالة من الانفعال الاحتفالي، وفي كل مكان وقف في النوافذ المفتوحة بالطوابق العليا للبنايات مجموعات من الناس الذي يرتدون السواد. تحرك موكب الجنازة الذي تقدمه كونراد ذو الاثني عشر عامًا بوصفه صاحب المُصاب الأليم بشكل أساسي ليخرج من الحواري الضيقة عابرًا وسط المدينة، مارًّا بالأبراج غير المتساوية لكنيسة ماريا في اتجاه بوابة فلوريان. كان عصر يوم جميل. تقوست السماء الزرقاء فوق الأسطح وتحركت السحب عاليًا بفعل الرياح مثل سرب من السُمامات. ربما رفع كونراد بصره مرة أثناء الدفن، وبينما كان الواعظ بردائه المطرز بالفضة يهمهم للميت في قبره ببعض الكلمات السحرية، ليرى السحب المحلقة كما لم يرَها من قبل في حياته، وربما خطرت له في تلك الأثناء الفكرة التي تعد غير ملائمة إطلاقًا بالنسبة لابن إقطاعيٍّ ريفي بولندي، وهو أن يصبح بحّارًا. وقد صرح بها لوصيّه لأول مرة بعد ثلاثة أعوام، ولم يمنعه شيء في العالم من تحقيقها، ولا حتى عندما أرسله خاله تاديوش مع معلمه الخصوصي بولمان عدة أسابيع إلى سويسرا. كان من المفترض أن يبين بولمان للشاب الذي كُلف برعايته في كل مناسبة ممكنة، كم هي كثيرة ومختلفة تلك المسارات الوظيفية التي يمكنه أن يسلكها باستثناء مهنة البحار، لكن مهما يكن ما كان يتحدث عنه بشأن شلالات الراين في شافهاوزن أو في هوبنتال لدى زيارة ورشة بناء نفق غوتهارد أو في الأعلى عند ممر فوركا، كان كونراد يصر على ما خطط له من قبل. بعد ذلك بعام، في الرابع عشر من أكتوبر 1874 – ولم يكن قد بلغ السابعة عشرة بعد – يودع جدته تيوفيليا بوبوروفسكا وخاله الوفي تاديوش، حيث

يقف كلاهما في الخارج أمام نافذة القطار على رصيف محطة كراكوفا. كان ثمن التذكرة التي في جيبه إلى مارسيليا 137 غولدنًا و75 قرشًا. ولم يأخذ معه سوى الأشياء المناسبة لحقيبة يده. ستة عشر عامًا مرت إلى أن عاد مرة أخرى زائرًا لمسقط رأسه الذي لم يكن قد تحرر بعد.

في عام 1875، يعبر كونراد كورينيوفسكي على متن السفينة ذات الصواري الثلاث مون بلانك Mont Blanc المحيط الأطلسي للمرة الأولى. وفي نهاية يوليو يصل إلى المارتينيك، حيث تبقى السفينة راسية لشهرين وتستغرق رحلة العودة نحو ثلاثة أشهر..ولم تدخل مون بلانك إلى ميناء لوهافر إلا في أول أيام عيد الميلاد وقد تضررت كثيرًا جراء العواصف. غير آبه بالبداية المنهكة لحياته كبحار، يقوم كورزينيوفسكي برحلات أخرى إلى جزر الهند الغربية إلى كاب هايتي وبورتوبرانس وإلى سان توماس وإلى سان بيير التي دمرها بعد ذلك بفترة قليلة بركان مون بيليه. إلى هناك كانت تُنقل أسلحة ومحركات بخارية وبارود وذخيرة. ومن هناك تأتي أطنان من السكر ومن الأخشاب المقطوعة من الغابات المطيرة.

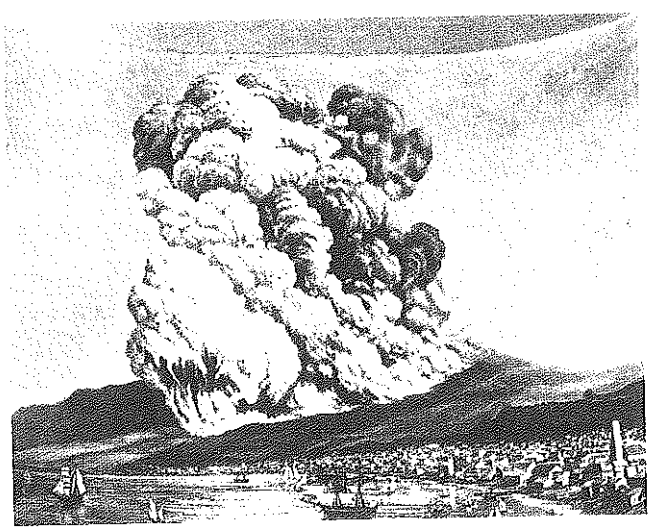

كان كورزينيوفسكي يقضي الوقت الذي لا يكون فيه في البحر في مرسيليا مع رفاقه وأيضًا مع أناس من طبقات أرقى. في مقهى بودول Boudol في شارع سان فيرّيول، وفي الصالون الفخيم لزوجة السيد ديلستانغ المصرفي ومالك السفن يدخل في صحبة مزيج من النبلاء والبوهيميين والممولين والمغامرين ومؤيدي الشرعية الملكية في أسبانيا. الارتعاشات الأخيرة للنبالة تتحد مع المكائد الأكثر خسة، وتُحاك مؤمرات معقدة، وتتأسس نقابات للتهريب وتُبرم صفقات لا تتسم بالشفافية. كورزينيوفسكي متورط في عديد منها وانفاقه يزيد كثيرًا جدًّا عما يمتلك، ويقع صريع إغراءات امرأة غامضة تقاربه في العمر، لكنها مع ذلك أرملة. هذه السيدة التي لم يمكن أبدًا التأكد من هويتها الحقيقية، كانت تعُرف في أوساط مؤيدي الشرعية الملكية، حيث لعبت دورًا بارزًا، باسم ريتا. وكان يقال إنها عشيقة الأمير البوربوني دون كارلوس الذي كان مؤيدوه يعملون بشكل أو بآخر من أجل اعتلائه عرش إسبانيا. وفيما بعد انتشرت إشاعات من جهات عديدة تقول إن دونيا ريتا القاطنة في فيلا في شارع سيلفابيل هي نفسها الشخصية المعروفة باسم بولا دي سموغي. ووفقًا لهذه القصة، فإن دون كارلوس حين عاد في عام 1877 من رحلة تفقّد لجبهة الحرب التركية الروسية إلى فيينا، طلب من سيدة تُدعى مدام هانوفر أن تجلب له من بيست بالمجر مغنية كورال شابة تدعى بأولًا هورفات، يبدو أنه قد بُهِرَ بجمالها. ومن فيينا انتقل دون كارلوس مع رفيقته التي استجلبها مؤخرًا أولًا إلى أخيه في غراتس ثم إلى فينيسيا وموديستا وميلانو، حيث قدَّمها للناس باسم البارونة دي سموغي. وغالبًا يعود أصل الشائعة بشأن هوية العشيقتين إلى أن ريتا قد اختفت من مارسيليا بالضبط في الوقت الذي تخلى فيه دون كارلوس عن بارونته، بسبب ما قيل إنها أزمة ضمير فجرها قرب موعد التناول المقدس الأول لابنه خايمي، أو

إنه بالأحرى زوّجها لمغني الأوبرا أنخيل دي ترابالدو، الذي عاشت معه على ما يبدو سعيدة وراضية حتى وفاتها في عام 1917. صحيح أنه لا يزال من غير الواضح إن كانت ريتا أو بولا هما فعلًا الشخص نفسه، لكن ما لا شك فيه هو أن كورينيوفسكي الشاب سعى لنيل الحظوة لدى واحدة من الاثنتين، سواء كانت تلك التي نشأت راعية للماعز في جبال قطالونيا أو راعية للإوز عند بحيرة بالاتون في المجر. كما أنه لا شك أيضًا في أن قصة الحب التي قاربت في بعض أجزائها حدود الخيال، قد بلغت ذروتها في نهاية فبراير 1877 عندما أطلق كورينيوفسكي النار على صدره أو أطلق غريمٌ له النار عليه. ولم يتضح إلى يومنا هذا إن كانت الإصابة التي لم تكن لحسن الحظ قاتلة هي نتيجة مبارزة، كما ادعى كورزينيوفسكي لاحقًا، أو هي محاولة انتحار، كما خمن الخال تاديوش. وقد استلهم الشاب الذي اعتبر نفسه من أتباع ستندال وأراد أن يخلق علاقات واضحة، هذه الحركة الدرامية من عروض الأوبرا التي كانت تحدد آنذاك في مارسيليا وفي مدن أوربّية أخرى عادات وتقاليد المجتمع وخصوصًا آثار أشواق الغرام.

تعرف كورزينيوفسكي في مسرح مارسيليا Théâtre de Marseille على إبداعات روسيني ومايربير وكان منجذبًا على وجه الخصوص لأُبريتات جاك أوفنباخ التي حظيت في ذاك الوقت بأوسع انتشار. وكان يمكن أن يُضاف إليها نص جديد بعنوان كونراد كورزينيوفسكي ومؤامرة أتباع دون كارلوس في مارسيليا. وفي الحقيقة فقد كانت طبعًا ثمّت نهاية أخرى لسنوات التعلم الفرنسية لكورزينيوفسكي، عندما غادر مارسيليا في 24 إبريل عام 1878 على متن الباخرة مافيس Mavis متجها إلى اسطنبول. كانت الحرب التركية الروسية قد انتهت، لكن كورزينيوفسكي استطاع أن يرى من السفينة، كما كتب فيما بعد، بشكل عابر ضاحية سان ستيفانو التي وُقعت فيها معاهدة السلام، وقد بدت مثل سراب لمدينة من الخيام. من

اسطنبول اتجهت الباخرة إلى ييسك الواقعة في الطرف القصي من بحر آزوف، حيث شُحنت حمولة من زيت الكتان، وصلت بها السفينة مافيس، كما ورد في سجلات إدارة ميناء لويستوفت، يوم الثلاثاء الموافق 18 يونيو 1878 إلى الساحل الشرقي الإنجليزي.

في الفترة ما بين يوليو وبداية سبتمبر، وقت مغادرته إلى لندن، قام كورزينيوفسكي كبحار بستّ رحلات بين لويستوفت ونيوكاسل على متن سفينة الشحن Skimmer of the Sea. لكن لا توجد سوى معلومات قليلة حول كيفية قضائه للنصف الثاني من يوليو في ميناء ومصيف لويستوفت الذي يقف إلى النقيض تمامًا من مارسيليا. لا بد أنه أجَّر غرفة وحصل على المعلومات الضرورية لخططه التالية. وفي المساء عندما تغشى الظلمة البحر، كان يتجول على الكورنيش، كغريب في الحادية والعشرين من عمره، وحيدًا بين إنجليز وإنجليزيات كُثر. أراه مثلًا في الخارج واقفًا على المرسى، حيث تلعب فرقة للموسيقى النحاسية افتتاحية أوبرا تانهويزر ومسابقة الغناء في فارتبورغ كموسيقى هادئة للمساء. وعندما يتخذ طريقه للبيت ببطء مارًا بين المستمعين ومصحوبًا بنسمة لطيفة تهب من فوق الماء، يتعجب من سهولة انتقال اللغة الإنجليزية إليه فجأة، بعد أن كانت إلى الآن غريبة عنه وغير مألوفة له تمامًا وكيف أنها بدأت تملأ كيانه بثقة وطموح جديدين، وسيكتب بها فيما بعد الروايات التي حقق بها شهرته العالمية. كانت قراءات كورزينيوفسكي الأولى بالإنجليزية من صحيفتي لويستوفت ستاندرد ولويسوتفت جورنال. وفيهما نُشرت في الأسبوع الذي وصل فيه ما يلي من الأخبار المتنوعة التي تتميز بها الصحيفتان: انفجار مروع في منجم في ويغان أسفر عن مقتل 200 شخص. انتفاضة للمسلمين في الأراضي الرومية من الإمبراطورية العثمانية. قمع احتجاجات الخوسيين في جنوب إفريقيا. اللورد غرينفيل ينشر أفكاره

عن تربية الجنس الأنثوي. قارب إرساليات ينطلق من مارسيليا لنقل دوق كامبريدج إلى مالطة حيث سيتفقد القوات الهندية. احتراق خادمة في ويتبي وهي حية لأن فستانها الذي دلقت عليه بغير قصد زيت البارافين قد طالته نيران المدفأة المفتوحة. الباخرة لارغو باي Largo Bay تغادر كلايد وعلى متنها 352 مهاجرًا إسكتلنديا. سيدة تدعى ديكسون من سيلسدن تصاب بذهول تام من فرط فرحتها برؤية ابنها توماس، الذي كان في أمريكا نحو عشر سنوات، يقف فجأة أمام باب البيت. ملكة أسبانيا الشابة تزداد وهنًا من يوم لآخر. أعمال بناء حصون هونغ كونغ التي يشتغل بها نحو ألفي عامل أجير تقترب بوتيرة سريعة من الانتهاء وفي البوسنة عصابات قطاع الطرق تغزو كل الطرق السريعة وبعضها يمتطي الجياد. وحتى الغابات المحيطة بسراييفو تعج باللصوص والفارين من الجندية وجنود الميليشيات من كل الأنواع. ولهذا فإن حركة السفر متوقفة.

في فبراير عام 1890 أي بعد اثني عشر عامًا من وصوله إلى لويستوفت، وبعد خمسة عشر عامًا من الوداع في محطة قطارات كراكوفا، يعود كورزينيوفسكي، الذي حصل في الأثناء على الجنسية البريطانية وعلى شهادة القبطان وزار أقصى بقاع الأرض، بداية إلى كازيميروفسكا حيث بيت خاله تاديوش. وفي نص كتبه بعد ذلك بفترة طويلة جدًّا يصف وصوله أخيرا، بعد إقامات قصيرة في برلين ووارسو ولوبلين، إلى المحطة الأوكرانية، حيث كان في انتظاره الحوذي ورئيس الخدم لدى خاله بزحّافات تجرها أربعة خيول شهباء، ولكنها تبدو رغم ذلك صغيرة وتكاد تشبه لعب الأطفال. ثمان ساعات سفر استغرقتها الرحلة إلى كازيميروفسكا. بحرص لفني رئيس الخدم قبل أن يتخذ مكانًا إلى جانبي بمعطف من فراء الدببة، هكذا يكتب كورزينيوفسكي، ووضع على رأسي قبعة ضخمة من الفرو مزودة بغطاء للأذنين. عندما تحركت الزحافة،

بدأت بالنسبة لي، مع الإيقاع الخافت المنتظم لأجراس الخيل، رحلة عودة شتوية إلى الطفولة. بغريزة واثقة وجد الحوذي الذي كان ربما في السادسة عشرة من عمره طريقه وسط الحقول التي يكسوها الجليد في امتداد لا نهائي. وردًا على ملاحظة مني عن حس الاتجاهات المذهل لدى الحوذي، يستطرد كورزينوفسكي، وأنه لم يتردد إطلاقًا ولم يتُهْ مرة واحدة، قال كبير الخدم: إن الحوذي الشاب هو ابن الحوذي القديم يوزف الذي كان يقود عربة الجدة بوبروفسكا - رحمها الله - وخدم أيضًا بإخلاص غير منقوص السيد تاديوش، حتى قضت عليه الكوليرا. وتوفيت زوجته أيضًا جراء الوباء نفسه الذي جاء مع ذوبان الجليد ومعها بيت كامل مليء بالأطفال ما عدا هذا الصبي الأصم الأبكم الذي يجلس على مقعد الحوذي أمامنا، هو الوحيد الذي نجا. لم يُرسل إلى المدرسة أبدًا ولم يحسبوا أبدًا أنه يمكن أن ينفع في شيء، إلى أن تبين أن الخيول تتبعه أكثر من أي خادم آخر. وعندما أصبح في الحادية عشرة تقريبًا، تكشف في ظرفٍ ما أنه يحفظ في رأسه بدقة شديدة خريطة المنطقة بكاملها مع كل منعطفاتها، وكأنه مولود بها.

لم أحظ برحلة أفضل من تلك التي خضناها آنذاك عبر الغسق الآخذ في التمدد من حولنا، هكذا يكتب كورزينيوفسكي تعقيبًا على الحكاية التي نقلها عن مرافقه، ويستطرد: كما في الماضي البعيد، رأيت الشمس تغرب فوق السهول. قرص أحمر كبير يغرق في الثلج، وكأنها تغرب فوق البحر. سرنا بسرعة عبر الظلام الذي بدأ يهبط، عبر الصحراء البيضاء الممتدة اللامحدودة التي تلامس قبة السماء المرصعة بالنجوم، عبر القرى التي تبدو مثل جزر من الظلال تحيطها الأشجار.

كان كورزينيوفسكي قد سعى قبل سفره إلى بولندا وأوكرانيا من أجل وظيفة لدى - Société Anonyme pour le Commerce du Haut

Congo، وهي الشركة البلجيكية للتجارة في الكونغو الأعلى. وبعد عودته مباشرة ذهب مرة أخرى إلى مقر الإدارة المركزية للشركة في شارع بردرود Brederode ليقدم نفسه لمديرها التنفيذي ألبرت تيس. جلس تيس الذي كان جسمه الهلامي محشورًا في معطفه الضيق جدًّا في مكتب معتم أسفل خارطة لإفريقيا تغطي الحائط بأكمله وعرض على كورزينيوفسكي، بمجرد أن تحدث هذا الأخير عن مبتغاه، ودون تردد تولي قيادة مركب بخاري يتنقل في أعالي نهر الكونغو. غالبًا لأن قبطان المركب وهو ألماني أو دنماركي اسمه فرايسليبن قد قُتل لتوه من قبل السكان الأصليين. بعد أسبوعين من التحضيرات المتعجلة وفحص طبي سطحي لمدى قدرته على تحمل الأجواء المدارية على يد طبيب الشركة الموثوق الذي يشبه هيكلًا عظميًّا مخيفًا، يسافر كورزينيوفسكي بالقطار إلى بوردو ويسافر من هناك على متن السفينة Ville de Maceió المتجهة إلى بوما. في تنريفي كانت هواجس شريرة قد داهمته بالفعل. إن الحياة هي مأساة/ ملهاة يتحتم على المرء أن يلعب فيها دوره شاء أم أبى – هكذا يكتب إلى خالته مارغريت بورادوفسكا في بروكسل التي كانت قد ترملت لتوها – أحلام كثيرة، بصيص شحيح من الحظ، قليل من الغضب بعد تكشف الوهم، عام المعاناة والنهاية.

انطلاقًا من هذا المزاج السيئ يتعرف كورزينيوفسكي خلال الرحلة البحرية الطويلة جنون المشروع الاستعماري. يومًا بعد يوم يبقى منظر الساحل كما هو وكأن المرء يراوح مكانه. ومع ذلك، يكتب كورزينيوفسكي: مررنا بمراسٍ ومصانع مختلفة بأسماء مثل غران بسام Gran' Bassam أو ليتل بوبو Little Popo وكلها تبدو أسماء مأخوذة من هزلية غرائبية. ذات مرة مررنا بسفينة حربية تقف أمام بقعة ساحلية بائسة، لا يُرى فيها أدنى أثر لأي ساكنة. وعلى امتداد البصر لا يُرى سوى المحيط

والسماء والشريط الرفيع جدًّا من الأحراش الخضراء. علق العلم منتكسًا فوق الصاري. ارتفع القارب الحديدي الثقيل وانخفض في خمول فوق الموجة الكبيرة اللزجة. وعلى فترات منتظمة أطلقت المدافع الطويلة عيار ستة بوصة قذائفها من دون هدف أو غرض داخل القارة الإفريقية الغريبة..

بوردو، تنريفي، داكار، كوناكري، سيراليون، ليبرفيل، لوانغو، بانانه، بوما... بعد أربعة أسابيع في البحر يصل كورزينيوفسكي أخيرًا إلى الكونغو، واحد من أقصى الأماكن التي كان يحلم بالوصول إليها في طفولته. آنذاك كان الكونغو لا يزال مجرد بقعة بيضاء في خريطة إفريقيا التي كان يجلس منحنيًا أمامها ساعات طويلة وهو يهمهم بالأسماء الملونة المكتوبة عليها. لم يكن ثمَّت شيء مرسوم داخل هذا الجزء من العالم، لا خطوط سكك حديد، ولا طرق ولا مدن، ولأن رسامي الخرائط يحبون أن يملؤوا هذه الأماكن الخاوية بحيوانات إكزوتية، كأسد يزأر أو تمساح فاغر الفم، فقد رسموا نهر الكونغو الذي يبتعد منبعه عن الساحل آلاف الأميال، ويمتد بعرض البلد الضخم مثل حية تلتف حول نفسها. في تلك الأثناء صارت الخريطة بالطبع ممتلئة. والرقعة البيضاء تحولت لمكان للظلام وبالفعل لا يكاد يوجد في تاريخ الحركة الاستعمارية الذي لم يُدوِّن معظمُه فصلًا أكثر ظلمة مما يُعرف بفتح الكونغو. في سبتمبر عام 1876 تتأسس الجمعية الدولية لاستكشاف وتحضير إفريقيا مصحوبة بإعلان أحسن النيات وفي ظل إغفال المصالح الوطنية والخاصة. ويشارك في اجتماعها التأسيسي شخصيات رفيعة من كل مجالات المجتمع، ممثلون عن طبقة النبلاء، وعن الكنيسة وعن المجالات العلمية والاقتصادية والمالية. وخلال هذا الاجتماع يعلن الملك ليوبولد، راعي هذا المشروع النموذجي، أنه لا يمكن أن يكون ثمَّت غرض أسمى لأصدقاء البشرية من ذاك الذي يجمعهم اليوم، وهو

تحديدًا فتح الجزء الأخير من أرضنا الذي ظل لحد الآن محرومًا من نِعَم الحضارة. إن الهدف - يقول الملك ليوبولد - هو اختراق الظلام الذي تعيش في إساره ليومنا هذا شعوب كاملة. نعم إن الأمر يتعلق بحملة صليبية ليس لها هدف آخر سوى الوصول بقرن التقدم إلى غاية اكتماله.

وبالطبع تبخر فيما بعد هذا المعنى الذي ورد في البيان. في عام 1885 أصبح ليوبولد، الذي يحمل لقب صاحب السيادة على دولة الكونغو المستقلة Souverain de l'Etat Indépendent du Congo، هو الحاكم الأوحد الذي لا يخضع لأي محاسبة من أي شخص على البلد الذي يوجد به ثاني أطول أنهار الأرض والذي تبلغ مساحته مليون ميل مكعب أي ما يعادل مساحة بلده الأم مئة مرة، وقد بدأ في استغلال خيراته التي لا تنضب دون أي مراعاة. كانت أدوات الاستغلال هي الشركات التجارية مثل الشركة البلجيكية للتجارة في الكونغو الأعلى التي ترتكز ميزانياتها الخرافية على نظام السخرة والعبودية المفروض من قبل كل المساهمين وكل الأوربّيين العاملين في الكونغو. في بعض مناطق الكونغو تقلص السكان إلى عدد محدود جدًّا بسبب أعمال السخرة. كما هلك العمال الآخرون الذين يُجلبون من مناطق أخرى من إفريقيا أو عبر البحار بأعداد كبيرة جراء الدوسنتاريا وحمى المستنقعات والجدري والبري بري والحمى الصفراء والجوع والإنهاك الجسدي وخوار القوى. ما بين عامي 1890 و1900 رحل عن هذا العالم ما يقدر سنويًّا بخمسِ مئة ألفٍ من هؤلاء الضحايا المجهولين الذين لم تُدون أسماؤهم في أي سجلات سنوية. وخلال هذه الفترة نفسها ارتفعت أسهم الشركة البلجيكية للسكك الحديدية Compagnie du Chemin de Fer du Congo من 320 إلى 2850 فرنكًا بلجيكيًّا.

بعد وصوله إلى بوما ينتقل كورزينيوفسكي من السفينة Ville de Maceió إلى باخرة نهرية، ليصل على متنها في الثالث عشر من يونيو إلى

ماتادي. ومن ماتادي يتحتم عليه مواصلة الطريق برًا لأن نهر الكونغو غير قابل للملاحة في المسافة ما بين ماتادي وستانلي بوول بسبب الشلالات والجنادل العديدة. ماتادي منطقة مقفرة ويسميها سكانها مدينة الحجارة. إنها مثل ورم يغشى الركام الذي تُلقي به مطحنةُ مرجل الجحيم الشهيرة من دون توقف منذ آلاف السنين عند مخرج هذه المسافة الممتدة لأربع مئة كيلومتر التي لم يمكن تطويعها إلى يومنا هذا. بين تلال الركام والثكنات المغطاة بالصاج المضلع الصدئ التي بُنيت في المنطقة بشكل عشوائي، أسفل المنحدرات الجبلية العالية التي ينبثق منها تيار النهر، وكذلك على المنحدرات الحادة على ضفة النهر، وفي كل مكان يرى المرءُ أشخاصًا سودًا يعملون في فرق وطوابير من الحمالين يتحركون في صف طويل على الأرض الوعرة. فقط من حين لآخر يوجد بينهم مراقب في بذلة فاتحة اللون وخوذة بيضاء على رأسه. بعد بضعة أيام يكون كورزينيوفسكي في الساحة التي تعج بضجيج متواصل وتُذكر بمحجر ضخم، ويعثر، كما يحكي فيما بعد على لسان ممثله مارلو في «قلب الظلام»، على قطعة من الأرض بعيدة عن المنطقة المأهولة يرقد فيها من دمرهم المرض واستنزفهم الجوع والعمل لكي يموتوا هناك. مثلما تكون الحال بعد وقوع مذبحة، ترقد جثثهم هناك في قاع الأخدود في ضوء الفجر الرمادي. الواضح أنه لا أحد يمنع كائنات الظل هذه إذا ما تسللت إلى الأحراش. لقد أصبحوا الآن أحرارًا، أحرارًا مثل الهواء المحيط بهم الذي سيتحللون فيه شيئًا فشيئًا. تدريجيًّا، يكتب مارلو: يبرز من الظلام لمعان بعض العيون التي توجه بصرها نحوي من الناحية الأخرى. أنحني للأسفل وأرى وجهًا إلى جانب يدي. يرتفع الجفن ببطء. في مكان ما، بعيدًا خلف النظرة الخاوية تصدر بعد بعض الوقت ارتعاشة عمياء، سرعان ما تتلاشى. وبينما يلفظ شخصٌ - لم يكد يتجاوز سن الصبا - أنفاسه

الأخيرة، يحمل الآخرون، الذين لم تخر قواهم بعد، أجولة فيها قناطير من المواد الغذائية وصناديق العدد والمتفجرات ومستلزمات التسلح من كل نوع، وأجزاء الماكينات وهياكل السفن المفككة عبر المستنقعات والغابات وعبر الجبال التي أقحلتها الشمس. أو يعملون في جبل بالابالّا وعلى نهر إمبوزو على خط السكة الحديد الذي سيربط ماتادي بأعالي نهر الكونغو. يقطع كورزينيوفسكي هذه المسافة التي ستنشأ فيها عما قريب مدن سونغولو وتومبا وتيسفيل في ظل متاعب جمة. كان معه 31 حمالًا ورفيق رحلة غير مرغوب فيه، فرنسي ثقيل الوزن اسمه هارو، كان دائمًا ما يقع مغشيًّا عليه، عندما يكونون على بعد أميال من أقرب مكان ظليل. ولذلك تحتم حمله على سرير معلق لمسافات طويلة من الطريق. استغرق المسير نحو أربعين يومًا، وخلال هذا الوقت بدأ كورزينيوفسكي يفهم أن المصاعب المضنية التي يعانيها لا تُعفيه من الذنب، الذي يحمله لمجرد وجوده في الكونغو. ومع أنه يسافر من ليوبولدفيل على متن الباخرة Roi des Belges من المجرى الأعلى للنهر حتى شلالات ستانلي، لكن الخطة الأصلية، التي سعى إليها وهي تولي قيادة مركب للشركة البلجيكية للتجارة، أصابته بالاشمئزاز. رطوبة الجو التي تصيب كل شيء بالتفسخ، وضوء الشمس الذي ينبض مع دقات القلب، والأفق الضبابي الذي لا يتغير منظره أبدًا فوق مجرى النهر، والصحبة التي تزيد من جنونه يومًا بعد يوم على متن الباخرة Roi des Belges. إنه يعرف أنه ستتحتم عليه العودة. ويكتب لخالته مارغريت بورادوفسكا:

الأمور كلها غير لطيفة هنا، الرجال والأشياء، وخصوصًا الرجال، كل أصحاب البوتيكات الإفريقية وتجار العاج ذوي الغرائز الدنيئة. إنني نادم على كوني هنا. نادم بمرارة.

مع عودته إلى ليوبولدفيل يكون كورزينيوفسكي عليل الجسد والروح

لدرجة تجعله يتمنى لنفسه الموت. لكن الأمر سيستغرق نحو ثلاثة أشهر حتى يتمكن من البدء في رحلة العودة انطلاقًا من بوما، ومنذ عودته إلى ليوبولدفيل تبدأ نوبات يأسه الطويلة التي تتناوب باستمرار مع اشتغاله بالكتابة. في منتصف يناير 1891 يصل إلى ميناء أوستند البلجيكي، وهو الميناء نفسه الذي سيغادر فيه بعد أيام قليلة شخص يدعى يوزف لوفي Joseph Loewy على متن الباخرة Belgian Prince إلى بوما. يعرف لوفي، وهو خال لفرانز كافكا الذي كان آنذاك في السابعة من عمره، بحكم خبرته في بنما ما كان ينتظره. اثنا عشر عامًا - مع إجازات للعلاج والاستجمام في أوربّا تبلغ مدة كل منها خمسة أشهر - سيقضيها لوفي في ماتادي في مناصب مهمة مختلفة، وستصبح خلالها ظروف المعيشة لأمثاله تدريجيًّا أكثر احتمالًا. فمثلًا يقال إنه في يوليو عام 1896 وبمناسبة الانتهاء من محطة تومبا التي تمثل منتصف خط السكة الحديد، قد قُدمت للضيوف أطايب المأكولات المحلية وأيضًا أطعمة أوربّية ونبيذ. وبعد عامين من هذا الحدث الجدير بالذكر..

يحصل لوفي (هنا في الصورة في أقصى اليسار)، الذي ترقى في

الأثناء رئيسًا للقسم التجاري بأكمله، من الملك ليوبولد شخصيا على الميدالية الذهبية لوسام الأسد الذهبي، وذلك خلال افتتاح المرحلة الجزئية الأخيرة من سكك حديد الكونغو.

يشعر كورزينيوفسكي الذي يتوجه مباشرة بعد وصوله إلى أوستند لزيارة مارغريته بورادوفسكا في بروكسل، بأن العاصمة البلجيكية بمبانيها التي تزداد فخامة عبارة عن شاهد قبر يرتفع فوق مجزرة للأجساد السوداء، ويبدو له المارة وكأنهم يحملون جميعًا في دواخلهم هذا السر الكونغولي القاتم. وبالفعل يوجد في بلجيكا إلى يومنا قبحٌ يندر أن يراه المرء في مكان آخر، يعود إلى فترة استغلال مستعمرة الكونغو من دون أي رادع، ويتجلى في الأجواء المقابرية لصالونات بعينها وفي التقزم الملحوظ للسكان. عمومًا أنا أتذكر بدقة أنني وخلال زيارتي الأولى إلى بروكسل في ديسمبر عام 1964 قد صادفت في الشوارع أشخاصًا مقوسي الظهور ومجانين أكثر ممن رأيتهم خلال العام كله. أجل بل رأيت ذات ليلة في بار في رود سان غينيس Rhode St. Genèse لاعب بلياردو مشوه تهزه ارتعاشات متشنجة، كان حينما يجيء دوره يدخل لبضع لحظات في حالة من الهدوء التام ويتمكن بثقة لا تخطئ من القيام بأصعب الضربات. امتلأ الفندق الواقع عند حديقة Bois de la Cambre الذي أقمت فيه عدة أيام بأثاث الماهوغني الثقيل وكل أنواع التذكارات الإفريقية وعدد كبير من نبتات الدريقة والمونستيرة وبعضها حتى في أصص زرع فخارية ضخمة، وأشجار المطاط التي نمت تحت السقف البالغ ارتفاعه أربعة أمتار، لدرجة تجعلك تشعر في وسط النهار بخسوف بلون الشوكولاتة. إنني أرى أمامي صوانًا خشبيا ثقيلًا فيه الكثير من النقوش، يوجد عليه من جانب تحت ناقوس زجاجي مجموعة من فروع الأشجار الصناعية والخيوط الحريرية الملونة وطيور طنان محنطة ضئيلة الحجم وعلى

الجانب الآخر تشكيل مخروطي الشكل من الفواكه المصنوعة من البورسيلين. لكن منذ زيارتي الأولى لبروكسل وأنا أرى أن تجسيد القبح البلجيكي يتمثل في تمثال الأسد وكل ما يطلق عليه بالنصب التذكاري لمعركة وترلوو.

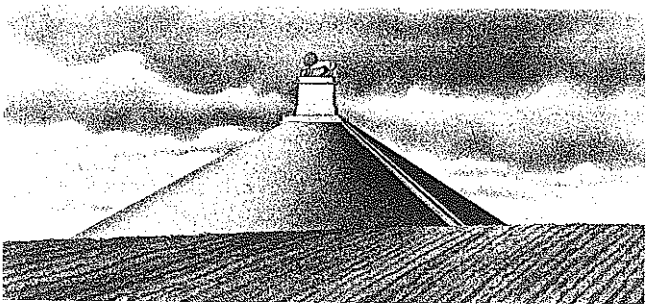

لم أعد أعرف السبب الذي بسببه ذهبت إلى وترلوو. لكنني ما زلت أذكر كيف سرت من محطة الحافلات إلى المنطقة المكونة حصريًّا من بعض محلات التذكارات والمطاعم الرخيصة، مرورًا بحقل أجرد وبمجموعة من المباني المتداعية والعالية في الوقت ذاته. لم يكن ثمَّت أثر لأي زوّار، ولا حتى لفصلٍ مدرسي في هذا اليوم الرصاصي اللون، وهذا قد يكون هذا مفهومًا في اليوم السابق على أعياد الميلاد. ومع ذلك ورغم أن المكان كان مهجورًا تمامًا مرّت مسيرة لفرقة ترتدي أزياء نابليونية مصحوبة بضجيج الطبول والصفارات عبر الأزقة القليلة، وفي مؤخرتها مُزوِدة للمؤون بماكياج سيئ جدًّا، تجر عربة غريبة الشكل بها قفص صغير حُبست فيه إوزة. تأملت لبعض الوقت هذه الشخوص التي كانت كما يبدو لي في حركة أبدية، إلى أن اختفت بين البيوت وظهرت مرة أخرى في موضع آخر. في آخر المطاف اشتريت تذكرة دخول للبانوراما الموجودة داخل مبنى دائري بقبة ضخمة، حيث يمكن للمرء مشاهدة المعركة - وهي موضوع محبب لرسامي البانوراما - في

كل الاتجاهات من منصة عالية في وسط المبنى. يجد المرء نفسه في مركز تخيلي للأحداث. في مشهد مسرحي أسفل الإفريز الخشبي مباشرة يوجد بين جذامات الأشجار والشجيرات خيول بالحجم الطبيعي فوق الرمال المخضبة بالدماء، جنود مشاة وفرسان هوصار وجنود من سلاح الفرسان الخفيف سقطوا وقد برزت أعينهم من فرط الألم أو خفت بريقها تمامًا. الوجوه من الشمع، لكن الإكسسوارات والجلود والأسلحة ودروع الصدر والأزياء العسكرية الزاهية الألوان التي حُشيت على الأغلب بحشائش البحر وخرق الصوف، كانت حسب الظاهر أصلية. فوق المشهد المرعب ثلاثي الأبعاد الذي يغشاه غبار الزمن المنصرم البارد يحلق البصر نحو الأفق إلى اللوحة الدائرية الضخمة التي نفذها رسام البحرية الفرنسي لوي دومنتان Louis Dumontin في عام 1912 على مساحة مئة وعشرة في اثني عشرة مترًا من الجدران الداخلية للمبنى الدائري الذي يشبه السيرك. هذا إذًا ما يظن المرء، وهو يسير في دائرة، أنه فن استعراض التاريخ. إنه يعتمد على تزييف المنظور. نحن، الباقون على قيد الحياة، نرى كل شيء من عل، نرى كل شيء، ولا نعرف مع ذلك كيف جرت الأمور. عبر الدائرة المحيطة يمتد ميدان المعركة القاحل الذي هلك فيه ذات مرة خمسون ألف جندي وعشرة آلاف حصان في غضون ساعات قلائل. وفي الليلة التالية على المعركة لا بد قد سُمعتْ أصوات متداخلة من حشرجات الموت والتأوهات. والآن لا يوجد شيء سوى التربة البنية. ماذا فعلوا آنذاك بكل هذه الجثث وبالرفات؟ هل هي مدفونة أسفل مبنى النصب التذكاري المخروطي الشكل؟ هل هي موجودة فوق جبل للموتى؟ هل هذا في النهاية ما ينتظرنا؟ هل يحصل المرء من هذا الموقع على النظرة التاريخية العامة التي يكثر الاستشهاد بها؟ لقد قيل لي ذات مرة إنه بالقرب من برايتون، غير بعيد عن الساحل

توجد غابتان صغيرتان، زرعتا بعد معركة وترلوو تذكيرًا بالنصر المشهود. إحداهما لها شكل قبعة نابليون الثلاثية الحواف والأخرى على شكل حذاء ويلنغتون ذي الرقبة. لا يمكن للمرء التعرف إلى شكل الغابتين من الأرض. وقيل إن هذين الرمزين كانا مخططين لكي يشاهدهما ركاب المنطاد في المستقبل. في ذاك الأصيل وضعت بضع عملات من الصفيح في صندوق بالبانوراما واستمعت لشرح للمعركة باللغة الفلمنكية. وقد فهمت على أقصى تقدير نحو نصف المراحل المختلفة للمعركة.

طريق أوهاين الأجوف، دوق ويلنغتون، دخان المدفعية البروسية، هجوم مضاد من سلاح الفرسان الهولندي.

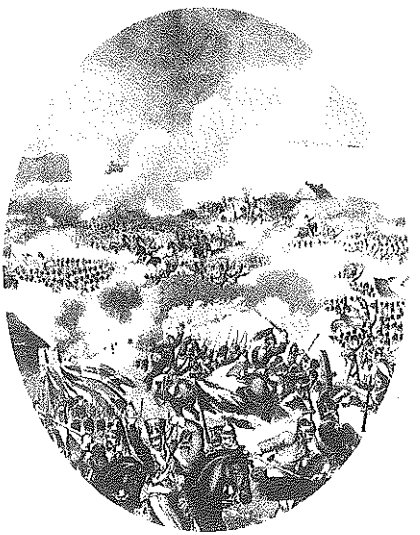

على الأرجح دارت المعارك كما في معظم الأحوال في كر وفر طويلين، ولم تتشكل صورة واضحة، لا في الماضي ولا الآن. فقط عندما أغلقت عيني، وهذا ما أتذكره بدقة، رأيت قذيفة مدفع عبرت في مسار منحرف صفًا من أشجار الحور بحيث تمزقت الأغصان الخضراء

وطارت في الهواء. ثم رأيت فابريتسيو بطل ستندال الشاب يتيه في المعركة شاحبًا بعينين متوهجتين، وعميد أُسقط من فوق حصانه، وهو يستجمع قواه ليقول للرقيب التابع له: لا أستشعر شيئًا سوى الجرح القديم في يدي اليمنى.

قبل العودة إلى بروكسل تدفأتُ قليلًا في أحد المطاعم. في نهاية الطرف الآخر من المطعم جلست متقاعدة حدباء في الضوء الكابي الذي يدخل عبر زجاج النافذة البلجيكي السميك. ارتدت قلنسوة صوفية ومعطف شتوي مصنوع من عقد سميكة وقفاز بلا أصابع. جلبت النادلة إليها طبقًا به قطعة كبيرة من اللحم. نظرت العجوز إليها لبعض الوقت وأخرجت من حقيبة يدها سكينًا حامية بمقبض خشبي وبدأت في تقطيع قطعة اللحم. تاريخ ميلادها قد يتطابق تقريبًا مع موعد الانتهاء من إنجاز سكك حديد الكونغو.

وصلت الأنباء الأولى عن نوع وحجم الجريمة التي ارتُكبت بحق السكان الأصليين خلال عملية فتح الكونغو إلى الرأي العام سنة 1903 من خلال روجر كيزمنت الذي تولى آنذاك منصب القنصل البريطاني في بوما. وقد قال كورزينيوفسكي لأحد معارفه في لندن إن كيزمنت قد يروي أشياء حاول هو نفسه منذ فترة طويلة أن ينساها. وقد قدم كيزمنت في مذكرة لوزير الخارجية اللورد لاندسون تفاصيل دقيقة عن استغلال الأفارقة السود من دون هوادة أو رحمة، وأن هؤلاء كانوا يعملون في كل ورش البناء التابعة للمستعمرة من دون أي أجر ولا ينالون من الطعام إلا ما هو ضروري فقط وكثيرًا ما يكونون مقيدين بالسلاسل بعضهم إلى البعض ويُرغمون على العمل بإيقاع ثابت من الفجر حتى المغرب وحرفيًّا إلى أن يسقطوا من فرط الإعياء. من يسافر باتجاه المجرى العلوي لنهر الكونغو ومن لا يُغشي الطمع في المال بصرَه، هكذا كتب

كيزمنت، ستنكشف أمام عينيه عذابات شعب بأكمله بكل التفاصيل التي تفطر القلب وتتضاءل أمامها كل المآسي الورادة في القصص التوراتية. لا يدع كيزمنت مجالًا للشك في أن مئات الآلاف من عمال السخرة يموتون سنويًّا على يد مرؤوسيهم البيض. وأن التشوهات وقطع الأيدي والأقدام والإعدامات بالمسدسات تعد ضمن الإجراءات العقابية التي تمارس يوميًّا من أجل الحفاظ على النظام. وكان من المفترض أن تؤدي دعوة الملك ليوبولد لكيزمنت للحضور إلى بروكسل للقائه شخصيًّا إلى تخفيف حدة الوضع الذي نتج عن تدخل كيزمنت، أو بالأحرى تقدير الخطر الذي تمثله تحريضات كيزمنت على المشروعات الاستعمارية البلجيكية. وقال ليوبولد إنه يعتبر العمل الذي يقوم به السود هو بديل مشروع عن الضرائب، وإذا ما حدث ووقعت أحيانًا - وهو ما لا يريد نفيه إطلاقا - تجاوزات مقلقة من قبل ملاحظي الأنفار البيض، فإن هذا يعود للأسف لحقيقة لا يمكن تغييرها وهو أن مُناخ الكونغو يتسبب في إصابة بعض البيض بنوع من الخرف، وللأسف لا يمكن دائمًا تجنب وقوعه في الوقت المناسب. ونظرًا لأن مثل هذه الحجج لم تكن لترضي كيزمنت، لجأ ليوبولد إلى استخدام امتياز نفوذه الملكي في لندن. وهو ما أدى إجراء دبلوماسي مزدوج، فمن ناحية مُدح تقرير كيزمنت باعتباره نموذجيًّا ومُنح لقب حامل وسامي سان مايكل وسان جورج، ولكن من ناحية أخرى لم تُتخذ أي إجراءات من شأنها أن تؤثر على المصالح البلجيكية. وعندما أُرسل كيزمنت بعد بضع سنوات - وغالبًا بغرض خفي هو التخلص مؤقتًا من شخصه غير المريح - إلى أمريكا الجنوبية، كشف هناك في بيرو وكولومبيا والبرازيل أوضاعًا كانت مشابهة في أوجه عديدة لتلك التي كانت في الكونغو، الفرق هو أنه لم تعمل هناك شركات تجارية بلجيكية بل شركة الأمازون التي يقع مقر إدارتها المركزية في

مدينة لندن. وأيضًا في أمريكا الجنوبية أُبيدت في ذاك الوقت قبائل كاملة وأُحرقت مناطق بأكملها. تقرير كيزمنت ومساندته غير المشروطة لمعدومي الحقوق والمضطهدين أكسباه قدرًا من الاحترام في الخارجية البريطانية، لكن في الوقت ذاته هز موظفونَ – أعلى درجة من أصحاب القرار – رؤوسَهم امتعاضًا مما بدا لهم حماسًا كيخوتيا لن يخدم بالتأكيد الترقي الوظيفي للمبعوث الذي يعتبر واعدًا في حد ذاته. وسعى المرء إلى معالجة الأمر من خلال رفع كيزمنت إلى طبقة النبلاء مع التشديد على إنجازاته في الدفاع عن الشعوب المستعبدة. لكن كيزمنت لم يكن مستعدًا لأن ينتقل إلى جانب السلطة. بل انشغل على النقيض تمامًا بأصل هذه السلطة والعقلية الاستعمارية التي تولدت منها. وكان من نتاج ذلك أن اصطدم في نهاية المطاف بالمسألة الأيرلندية، أي أنه اصطدم بقضيته الخاصة. نشأ كيزمنت في مقاطعة أنتريم كابن لأب بروتستانتي وأم كاثوليكية، ووفقًا لتربيته فإن واجبه الحياتي كان يتمثل في الحفاظ على الهيمنة الإنجليزية على أيرلندا. وعندما شهدت القضية الأيرلندية تصعيدًا في السنوات السابقة على الحرب العالمية الأولى، بدأ كيزمنت يتبنى بنفسه قضية «هنود إيرلندا البيض». الظلم الذي وقع على الأيرلنديين عبر القرون جعله وعيه المصبوغ بالتعاطف أكثر من أي شعور آخر يزداد أكثر فأكثر. ودار برأسه أن جنود كروموبل قتلوا أكثر من نصف الأيرلنديين وأن آلافًا من الرجال والنساء قد أُرسلوا كعبيد بيض إلى جزر الهند الغربية وأن كل جيل ناشئ يجد نفسه مضطرًا للهجرة من بلاده. وحسم كيزمنت قراره في عام 1914 عندما فشل البرنامج المقترح من قبل الحكومة الليبرالية لحل المسألة الأيرلندية والمعروف باسم Home – Rule – Programm بسبب مقاومة بروتستانتي أيرلندا الشمالية الذين دعمتهم مجموعات مصالح بريطانية مختلفة، سواء في السر أو في العلن.

لن نقّلص مقاومة أولستر إلى الحكم الذاتي لأيرلندا، حتى لو تزعزع الكومنولث البريطاني.

هذا ما أعلنه فريدريك سميث، أحد أبرز ممثلي الأقلية البروتستانتية الذين كان ولاؤهم يتمثل في استعدادهم للدفاع عن امتيازاتهم، حتى لو لزم الأمر الدفاع عنها بالسلاح في مواجهة القوات الحكومية. تأسست فرقة متطوعي أولستر القوية التي يبلغ قوامها مئة ألف شخص وفي الجنوب تأسس أيضًا جيش من المتطوعين. شارك كيزمنت في تجنيد وتسليح الفرق. وأعاد أوسمته إلى لندن. ولم يعد يتسلم الراتب التقاعدي الذي صُرف له. وفي عام 1915 ذهب في مهمة سرية إلى برلين من أجل حث حكومة الرايخ على تزويد جيش التحرير الأيرلندي بالسلاح، ولإقناع أسرى الحرب الأيرلنديين في ألمانيا بالانضمام للفرقة الأيرلندية. وكلا المسعيين باءا بالفشل، وأُعيد كيزمنت في غواصة ألمانية

إلى أيرلندا. منهكًا إلى حد الموت ومتجمدًا بسبب الماء المثلج، وقف ينتظر عند خليج شاطئ بانّا، بالقرب من ترالي. كان وقتها في الحادية والخمسين من عمره. وجاء القبض عليه بعد ذلك مباشرة. وبالكاد تمكن من خلال قس أن يوصل رسالة مفادها أنه لا مساعدة من ألمانيا وذلك من أجل الحيلولة دون اندلاع انتفاضة عيد الفصح التي كان من المخطط أن تقوم في كل أيرلندا وأصبح محكوم عليها الآن بالفشل. وأما بخصوص المثاليين والشعراء والنقابيين والمعلمين الذين تحملوا المسؤولية في دبلن وضحوا بأنفسهم وبمن يتبعونهم في معارك شوراع استمرت سبعة أيام، فهذا شأن آخر. كان كيزمنت يقبع بالفعل في زنزانة في برج لندن عندما قُمعت الانتفاضة. لم يكن يتمتع بدعم قانوني. وقد عُين فريدريك سميث الذي ترقى نائبًا عامًّا كممثل للادعاء، ما جعل الحكم في القضية معروفًا مسبقًا تقريبًا. ولمنع تقديم أي التماسات للعفو من أي جهة ذات نفوذ، رُفعت إلى الملك الإنجليزي ورئيس الولايات المتحدة والبابا اقتباسات مما يسمى بكتاب اليوميات الأسود الذي عُثر عليه خلال تفتيش بيت كيزمنت ويتضمن وقائع العلاقات المثلية للمتهم. ظلت مصداقية كتاب يوميات كيزمنت الأسود، الذي كان حتى وقت قريب محفوظًا وراء أبواب مغلقة في مكتب السجلات العامة، مشكوكًا فيها. ليس فقط بسبب تورط الأجهزة التنفيذية والقضائية المعنية بجمع الأدلة وإعداد مذكرة الإدعاء في الماضي القريب وبشكل متكرر في تلفيق اتهامات جزافية في محاكمات من يُزعم أنهم إرهابيون أيرلنديون، بل إدانة هذه الأجهزة أيضًا بالتزوير المتعمد للأدلة. وأما بالنسبة لقدامى محاربي حركة التحرر الأيرلندية، فإنه من غير المتخيل أن يكون أحد شهدائها مبتلًى بالخطيئة الإنجليزية. رغم ذلك عندما أُفرج في ربيع عام 1994 عن اليوميات لم يكن ثمَّت مجال للشك في أنها مكتوبة بخط يد

17 51 Lauro of | Manuel Violetta 9
March 29 Sunday—5 in Lent [88–277] 3rd Mo **1903**
Santa Cruz | gone to Las Palmas

● 1h 26m A.M. (Greenwich)

Pepe & Juan again – Stayed in cabin. Feeling very seedy. Bleeding badly aft again Santa Cruz – Ran 372 miles from S/Leone 393. Will not get in until about 7 pm. Tomorrow – so will probably be kept all night there. I rather hope so as it will give more time make enquiry for basket. Hope to find it or hear of it. Feeling very seedy indeed. Turned in 10.30 after talk with Blz

30 MONDAY [89–276]
Mohammedan Year 1321 begins

Much hotter today. Busy writing in cabin in morning. Wrote many letters. Borrowed £20 from Ship for GB. Ran 327 miles – S/Leone 66 off. arr. there about 5.15. "Teneriffe" in – no sign of basket. Wrote GB with £15 to go by "Tabba" tomorrow & other letters about basket. On shore to agents with Captain Lebb at 8.35 pm.

Pepe of Guimar 48 52

1903 31 TUESDAY [90-275] March & April

at Teneriffe 17.

Ran 201 miles to noon. Splendid. 288 left to Cape Palmas & total from S/Leone to Axim 840. Read Loti's "Mon frère Yves". Bbay - on board Read "Smart Set". Very Hot indeed

"Mon frère Yves" is peculiar

"John" not very well poor old soul with the heat.

1 April WEDNESDAY [91-274]

Very hot

Only did 286 - 1 mile Short of Cape Palmas. Passed along near it - a steamer there. 344 to Axim. Pass Cavally & Tabu & then to sea.

Read "Les Camels du Roi" stupid exposition of a Bear & King.

كيزمنت. والنتيجة الوحيدة التي يمكن استخلاصها من ذلك هو أن مثلية كيزمنت هي التي مكنته من تجاوز كل حدود كل الطبقات الاجتماعية والأجناس وإدراك القمع المتواصل والاستغلال والاستعباد والإهلاك لكل هؤلاء الموجودين في أقصى الأطراف بعيدًا عن مراكز السلطة. وحسبما كان متوقعًا، أُدين كيزمنت في نهاية المحاكمة في أولد بيلي بالخيانة العظمى. وأبلغ رئيس المحكمة اللورد ريدنغ، روفوس أيزاكس سابقا، قراره الأخير.

ستؤخذ من بعد ذلك إلى سجن قانوني وعندئذٍ إلى مكان للإعدام وستشنق إلى أن تموت.

ولم تسمح الحكومة البريطانية إلا في عام 1956 بإخراج رفات روجر كيزمنت من حفرة الجير التي أُلقيت فيها جثته في فناء سجن بينتونفيل، ربما كان من الصعب التعرف عليها.

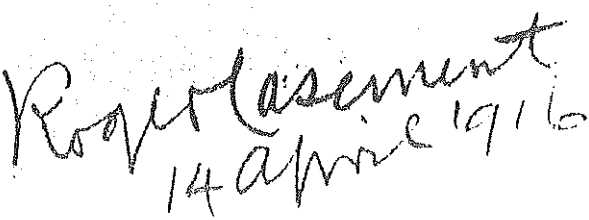

6

غير بعيد من ساحل ساوثولد ومنطقة والبرسويك، يمر جسر حديدي ضيق فوق نهر البلايث الذي كانت تمخر عبره في الماضي سفن ضخمة محمّلة بالصوف باتجاه البحر.

واليوم لا توجد أي حركة ملاحة تقريبًا في النهر الذي أصبح ضحلا. في أفضل الأحوال يرى المرء عند الشاطئ الأسفل للنهر بين العدد الكبير من القوارب الصغيرة هذا القارب الشراعي أو ذاك راسيًا. وقرب البر لا يوجد شيء سوى ماء رمادي وأهوار وفراغ.

شُيد الجسر فوق نهر البلايث عام 1875 من أجل خط القطار الضيق الذي يتنقل بين هاليسوورث وساوثولد والذي كانت عرباته قد صُنعت في الأصل لامبراطور الصين، وذلك وفقًا لمؤرخين محليين مختلفين، لكنني لم أتمكن رغم البحث الطويل من معرفة أي امبراطور صيني بالضبط كان هو صاحب الطلبية المحتمل. ولماذا لم يُبرم عقد التوريد وفي ظل أي ظروف انتهت الحال بقطار البلاط الملكي الصغير كخط فرعي لشركة السكك الحديد الشرقية البريطانية العظمى، وهو الذي كان من المفترض أن يربط بكين المحاطة آنذاك محاطة بغابات من أشجار الصنوبر بإحدى المقرات الصيفية. الشيء الوحيد المتفق عليه بين المصادر غير الموثوقة هو أنه كان يمكن التعرف بوضوح إلى ملامح شعار التنين الإمبراطوري ذي الذيل المحاط ببخار أنفاسه تحت الطلاء الأسود للقطار الذي يستخدمه المصطافون بالأساس، والذي لا تتجاوز سرعته القصوى ستة عشر ميلًا في الساعة. أما ما يخص شعار التنين فإن "كتاب الكائنات الخيالية Libro de los seres imaginarios" السالف ذكره في بداية هذا المؤلف يتضمن تصنيفًا حيويًّا ووصفًا كاملًا للتنانين الشرقية، تنانين

السماء وكذلك تنانين الأرض وتنانين البحر. وقد قيل عن بعضها إنها تحمل قصور الآلهة على ظهورها، في ما تحدد أنواع أخرى مسار الجداول والأنهار وتحمي كنوز العالم السفلي. وهي مغطاة بدرع واقٍ من القشور الصفراء. ولها ذقون أسفل الخطم والجبهة مقوسة فوق العينين المشتعلتين باللهب، الأذنان قصيرتان وسميكتان والفم مفتوح دائمًا، وهي تتغذى على العقيق واللآلئ. يبلغ طول بعضها من ثلاثة إلى أربعة أمتار. إذا ما غيرت وضعيتها تنهار جبال. وإذا ما طارت في الهواء، فإنها تتسبب في تقلبات جوية مروعة، تغمر البيوت في المدن وتدمر المحاصيل. وإذا ما خرجت من أعماق البحر تتولد دوامات وأعاصير. وارتبطت تهدئة هذه القوى الأولية دائمًا في الصين ارتباطًا وثيقًا بالطقوس الحاكمة المحيطة بالإمبراطور الجالس على عرش التنين، من أقل التحركات إلى أعظم الإجراءات الرسمية، وهذه الطقوس تهدف في الوقت ذاته لإضفاء الشرعية ولتخليد السلطة الدنيوية الهائلة المجتمعة في شخص الإمبراطور. يحيط أعضاء الحاشية الإمبراطورية التي يزيد عددها على ستة آلاف من الخصيان والنساء فقط في كل دقيقة من النهار والليل وفي مدارات محسوبة بدقة بالذكر الوحيد القاطن خلف الأسوار القرمزية للمدينة المحرمة المخفية. في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت السلطة الإمبراطورية قد وصلت إلى أعلى درجة في ممارسة الطقوس وأيضًا إلى أعلى درجة من الخواء. فبينما استمرت تأدية مهام كل منصب من مناصب البلاط ذات التراتبية الصارمة وفقًا للتعليمات المحكمة حتى أدق التفاصيل، أصبحت الإمبراطورية بسبب الضغوط المتزايدة من أعدائها في الداخل والخارج على شفا الانهيار. ففي خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر انتشر تمرد التايبينغ، الذين اتبعوا حركة خلاص عالمي مستلهمة من الكونفوشية والمسيحية، كما

النار في الهشيم ليشمل كل جنوب الصين تقريبًا. التفت أعداد هائلة من الفقراء والمعوزين من الشعب والفلاحين الجوعى والجنود الذين سُرحوا بعد حرب الأفيون والحمالين والبحارة والممثلين والعاهرات حول هونغ هسيو تشيوان تسو الذي نصب نفسه ملكًا للسماء، وأبصر في ظل هلاوس الحمى مستقبلًا مجيدًا وعادلًا. وسرعان ما تحرك جيش من المحاربين المؤمنين الذين ازدادت أعدادهم باستمرار من كوانغسي باتجاه الشمال، واكتسح مقاطعات هونان وهوبيه وأنهوي ووقف في مطلع عام 1853 أمام أبواب مدينة نانكينغ القوية، التي اقتُحمت بعد يومين من الحصار وأُعلنت عاصمة سماوية للحركة. ومن الآن فصاعدًا بدأت موجات جديدة من التمرد تسري بشكل دائم في أنحاء البلاد، وينعشها الأمل في السعادة. غزا المتمردون أكثر من ستة آلاف حصن واحتلوها لبعض الوقت، ودُمرت خمس مقاطعات خلال المعارك فلم يبقَ منها إلا أديم الأرض. ولقي أكثر من عشرين مليون شخص مصرعهم خلال خمسة عشر عامًا. ولا شك أن الفظائع الدموية التي طغت آنذاك على الإمبراطورية الصينية تفوق أي قدرة على التخيل. في صيف عام 1864 وبعد سبع سنوات من الحصار من قبل القوات الإمبراطورية، سقطت نانكينغ. استنفذ المدافعون آخر ما لديهم من موارد، وفقدوا الأمل في تحقيق الفردوس الأرضي الذي تراءى لهم مع بداية الحركة وكأنه قاب قوسين أو أدنى. بحواس مشوشة بسبب الجوع والمخدرات اقتربوا من نهايتهم. في الثلاثين من يونيو انتحر ملك السماء. وحذا حذوه مئات الآلاف من أتباعه، سواء على سبيل الإخلاص له، أو خوفًا من انتقام الغزاة. وقد انتحروا بكل الأشكال الممكنة بالسيف وبالسكين، بالنار أو بالحبل أو بإلقاء أنفسهم من فوق أسوار القلاع وأسطح البيوت. بل يقال إن بعضهم دفنوا أنفسهم أحياء. إن إفناء أتباع حركة التايبينغ لأنفسهم أمرٌ

لا مثيل له في التاريخ تقريبًا. عندما دخل خصومهم المدينة في التاسع عشر من يوليو، لم يعثروا على نفس واحدة حية، في كل مكان كان يُسمع طنين الذباب. وحسبما ورد في برقية بُعثت إلى بكين، كان ملك الإمبراطورية السماوية للسلام الأبدي ملقًى على الأرض ووجهه داخل إحدى البلاعات، ولم يُبقِ جسده المنتفخ متماسكًا سوى الرداء الحريري ذي اللون الأصفر الإمبراطوري المزين بصورة التنين، الذي كان يرتديه دائمًا من باب إهانة المقدسات.

وربما لم يكن سحْقُ تمرُّد التايبينغ ممكنًا، لو لم تساند الفرق العسكرية البريطانية المتواجدة في الصين الجيش الإمبراطوري بعد إنهاء معاركها معه. يعود حضور سلطة الدولة البريطانية في الصين إلى عام 1840 من خلال إعلان ما عُرف بحرب الأفيون. بسبب الإجراءات التي اتخذتها الحكومة الصينية عام 1837 من أجل وقف تجارة الأفيون، رأت شركة الهند الشرقية التي كانت تزرع الخشخاش في حقول بنغالية وتصدر المخدّر المستخرج منه في المقام الأول إلى كانتون وأموي وشنغهاي، أن واحدًا من مشاريعها الأكثر إدرارًا للربح أصبح مهددًا. كان إعلان الحرب الذي تلا ذلك هو البداية للفتح القسري للإمبراطورية الصينية التي ظلت لقرنين مغلقة في وجه الهمج الأغراب. باسم نشر المعتقد المسيحي وباسم التجارة الحرة التي تعد شرطًا أساسيًّا لأي تقدم حضاري، جرى استعراض تفوق المدفعية الغربية، واقتُحمت عدة مدن، وبذلك فُرض سلام من ضمن شروطه توفير ضمانات معينة للمصانع البريطانية على الشاطئ، والتخلي عن هونغ كونغ وأخيرًا وليس بآخر، فرض مبالغ التعويضات المُدوِّخة بحق. من وجهة النظر البريطانية كان هذا منذ البداية ترتيب مؤقت لا يتضمن الدخول إلى مراكز التجارة في داخل البلاد، ولهذا كانت ضرورة القيام بعمليات عسكرية جديدة أمرًا

لا يمكن تجنبه، خصوصًا بالنظر إلى الصينيين البالغ عددهم أربع مئة مليون، الذين يمكن لمعامل الغزل في لانكشير أن تبيع لهم مصنوعاتها القطنية الجاهزة. وهذه ذريعة كافية لحملة عقابية جديدة، لكنها لم تبدأ إلا في عام 1856 عندما اقتحم ضباط صينيون سفينة شحن في ميناء كانتون للقبض على عدد من أفراد طاقم السفينة المشتبه في تورطهم في أعمال قرصنة، وكلهم بلا استثناء بحارة صينيون. وخلال هذه العملية أنزل الفريق الذي قام بالاقتحام العلم البريطاني من على الصاري الرئيس للسفينة، غالبًا لأن العلم البريطاني كثيرًا ما كان يرفع آنذاك في عمليات التهريب لأغراض التمويه. لكن لأن السفينة كانت مسجلة في هونغ كونغ، ما يعني أنها كانت تتحرك بشكل قانوني تحت العلم البريطاني، تحولت الحادثة التافهة في حد ذاتها من قبل ممثلي المصالح البريطانية في كانتون إلى مناسبة لصراع متعمد مع السلطات الصينية سُيبالغ في تصعيده إلى حد الاعتقاد بأنه لا يوجد خيار سوى احتلال الميناء وقصف مقر الحاكم الإداري. وجاء مواتيًا في الوقت نفسه تقريبًا كتابةُ الصحافة الفرنسية عن أن موظفي كوانغسي أمروا بإعدام قس مبشر اسمه شابلدين. وبلغ التصعيد في وصف الإجراء المؤلم ذروته بالادعاء أن الجلادين قد شقوا صدر القس الميت وأخرجوا قلبه وطبخوه وأكلوه. وتوافقت النداءات المتعالية في فرنسا من أجل الانتقام على أفضل نحو مع طموحات المؤيدين للحرب في لندن، بحيث أمكن بعد اتخاذ الإجراءات الضرورية تطوير تمثيلية نادرة عن حملة إنجليزية – فرنسية مشتركة في عصر التنافس الاستعماري. وبلغ المشروع المرتبط بأكبر الصعوبات اللوجستية ذروته في أغسطس عام 1860، عندما نزل 18 ألف جندي فرنسي وإنجليزي إلى البر في خليج بي تشي لي الذي لا يبعد أكثر من مئة وخمسين ميلًا عن بكين، مدعومين بجيش جُند من قوات صينية

مساعدة، وهذه بدورها استولت على حصون تاكو الواقعة عند مصب النهر الأبيض والمحاطة بمستنقعات ملحية وخنادق عميقة وأسوار طينية ضخمة وحواجز من البامبو. خلال المساعي الحثيثة التي بُذلت بعد الاستسلام غير المشروط لقوات الحصن، من أجل الوصول بالحملة الناجحة عسكريًّا إلى طريق المفاوضات النظامي، تورَّطَ مندوبو الحلفاء - بغض النظر عن أن لهم بوضوح اليدَ العليا - أكثرَ فأكثر في المتاهة الكابوسية للقواعد السلوكية المعقّدة المطالب في إمبراطورية التنين، وأيضًا في حبائل دبلوماسية المماطلة الصينية الناتجة عن خوف وحيرة الإمبراطور. وفي نهاية المطاف فشلت المفاوضات على الأغلب لأن هوة انعدام التفاهم بين مبعوثي الطرفين الذين يعيشون في عوالم مختلفة لم يكن يمكن لمترجم فوري أن يجسرها. وإذا كان الجانب البريطاني الفرنسي قد رأى أن السلام المفروض بالقوة هو المرحلة الأولى في استعمار إمبراطورية متداعية وبعيدة كل البعد عن منجزات الحضارة الفكرية والمادية، فإن مبعوثي الإمبراطور سعوا لأن يوضحوا للأغراب الجاهلين - على ما يبدو - تمامًا بالتقاليد الصينية، ما يدينون به كسفراء لقوى خارجية من التزامات أزلية بالتقدير والاحترام إزاء الإمبراطور ابن السماء. وفي النهاية لم يتبقَّ سبيل آخر سوى دخول النهر الأبيض بسفن المدفعية وفي الوقت ذاته الزحف برًا نحو بكين. تجنَّب الإمبراطور شيان - فينغ الذي كان رغم صغر سنه عليلًا جدًّا ويعاني مرض الاستسقاء، المواجهة الخطرة، برحيله في الثاني والعشرين من سبتمبر وسط جمع غير منظم من خصيان البلاط والبغال وعربات نقل الأمتعة والمحفات والهوادج إل ملجئه في يهول (شنغد) على الجانب الآخر من سور الصين العظيم. والرسالة التي أُبلغت لقيادة القوى المعادية هي أن جلالة الإمبراطور ملزم بحكم القانون أن يقضي الخريف في الصيد. من جانبها

عثرت قوات الحلفاء في مطلع أكتوبر، وهي في حالة من الحيرة بشأن الخطوات القادمة، بالصدفة على الحديقة السحرية يوان مينغ يوان القريبة من بكين التي تضم أعدادًا لا تحصى من القصور والمقاصير والأروقة والتعريشات البديعة والمعابد والأبراج، حيث ترعى هناك أيائل ذات قرون خرافية عند منحدرات الجبال الصناعية وبين الأيكات والأحواض المائلة، وحيث ينعكس كل بهاء الطبيعة الذي يفوق أي تصور والمعجزة التي صنعها الإنسان في vfالمياه الداكنة التي لا تحركها نسمة هواء. لا يمكن فهم الدمار المروع الذي لحق خلال الأيام التالية بالحديقة الخرافية، والذي يهزأ بأي انضباط عسكري وبأي عقل عمومًا، إلا جزئيًّا على أنه نتيجة للغضب بشأن القرار الذي لا يزال مؤجلًا. لكن يُفترض أن يكون السبب الحقيقي لنهب وتدمير حديقة يوان مينغ يوان، هو الاستفزاز غير المألوف الذي مثَّله هذا العالم الفردوسي المتحقق على الأرض والذي دمر فورًا أي تصور عن عدم تحضر الصينيين، بالنسبة لهؤلاء المحاربين الآتين من مواطنهم البعيدة جدًّا والذين لم يعتادوا إلا على القهر والحرمان وقتل رغائبهم. التقارير التي وردت عما وقع في تلك الأيام من أكتوبر، لا يمكن الوثوق بها كثيرًا، لكن مجرد بيع المنهوبات في مزاد بالمعسكر البريطاني يشهد بأن جزءا كبيرًا من الزخارف والحلي التي يسهل حملها، المصنوعة من اليشب والذهب، ومن الفضة والحرير، قد وقعت في أيدي النهّابين. أما حرق أكثر من مئتين من البيوت الصيفية وقصور الصيد والمعابد الواقعة في امتداد أراضي الحديقة بجوار حي القصور، فقد جاء - كما قيل - بأوامر من القادة كإجراء انتقامي لسوء معاملة المبعوثَيْن البريطانيَّين لوش وباركس. لكنه تم في الحقيقة وفي المقام الأول من أجل إخفاء معالم الدمار الذي وقع قبل ذلك. بسرعة غير معقولة، هكذا كتب النقيب تشارلز جورج غوردون، اشتعلت النيران

في الأغلب في المعابد والخَلوات والصوامع المصنوعة من خشب الأرز واحدة تلو الأخرى، ثم انتشرت النيران متأججة ومتقافزة عبر الأحراش الخضراء والغابات. وباستثناء بعض الجسور الحجرية والهياكل الرخامية لحق الدمار بكل شيء. وظلت سحب الدخان عالقة فوق المنطقة بأسرها لوقت طويل. وحملت الريح الغربية سحابة من الرماد كانت تحجب الشمس إلى بكين، حيث هطلت بعد بعض الوقت على رؤوس وبيوت السكان الذين ظنوا أنه قد حل بهم عقاب من السماء. وفي نهاية الشهر وبعد العبرة المتمثلة في يوان مينغ يوان، رأى القائمون بأعمال الإمبراطور أنفسهم مرغمين من دون أي تأخير على توقيع معاهدة سلام تينتسين التي كثيرًا ما تأجلت. وتنص مادتها الأساسية، بغض النظر عن مطالب التعويضات التي يصعب الوفاء بها، على الحق في التنقل الحر وحرية التبشير من دون أي قيد داخل البلاد، وكذلك الاتفاق على تعرفة جمركية بغرض شرعنة تجارة الأفيون. في المقابل تعلن القوى الغربية عن استعدادها للمساندة في الإبقاء على أسرة المانشو، وهذا يعني مساندتها في القضاء على حركة التايبينغ، وفي سحق التطلعات الانفصالية للسكان المسلمين في وديان شينزي ويونان وكانسو، وتوجد تقديرات مختلفة بخصوص مآل الحملة ضد هؤلاء، تتراوح بين ستة وعشرة ملايين شخص نزحوا من أماكن سكناهم أو لقوا حفتهم. تولى النقيب في سلاح المهندسين الملكي تشارلز جورج غوردون - الذي سبق ذكره، وهو شخص خجول يتحلى بروح مسيحية وفي الوقت ذاته غضوب كئيب الطبع، والمفترض أنه مات ميتة بطولية مجيدة في حصار الخرطوم في ما بعد - تولى القيادة العليا للجيش الإمبراطوري المنهار وشكَّل خلال فترة وجيزةٍ قواتٍ ضاربةً لدرجة جعلته ينال عند وداعه سترة الفرسان الصفراء وهو أعلى وسام في الإمبراطورية، تقديرًا لجهوده.

في أغسطس من عام 1861، وبعد أشهُرٍ من الحيرة اقترب الإمبراطور شيان - فينغ في منفاه في يهول (شنغد) من نهاية حياته القصيرة التي دمرها الانغماس في الملذات. ارتفع الماء من أسفل بطنه إلى القلب وسبحت خلايا جسده الآخذ في التحلل تدريجيًّا في السائل الملحي الذي أخذ يتسرب من مجرى الدم إلى كل ثنايا الأنسجة مثل السمك في المياه. بوعي مشوش شهد شيان - فينغ غزو القوى الأجنبية لمقاطعات إمبراطوريته متجسدًا في أمثولة موت أطرافه تدريجيًّا وفي أعضائه التي غمرتها المواد السامة. وهو نفسه كان أرض المعركة التي تمت عليها هزيمة الصين، إلى أن أرخت ظلال الليل سدولها عليه في الثاني والعشرين من الشهر، وغرق كليًّا في هذيان الموت. وبسبب الإجراءات المرتبطة بالحسابات الفلكية المعقدة التي يجب أن تخضع لها جثة الإمبراطور قبل أن توضع في التابوت، لم يمكن السماح بنقل جثمانه إلى بكين قبل الخامس من أكتوبر. استغرقت مسيرة الموكب الجنائزي الذي بلغ طوله أكثر من ميل ثلاثةَ أسابيع. وكثيرًا ما تمايلت بشكل خطير منصة النعش الموضوعة على محفة ذهبية على أكتاف 124 من الحمالين المختارين، في ظل الأمطار الخريفية التي هطلت بانتظام في طرق صاعدة وهابطة عبر وديان وأخاديد مظلمة ومضايق جبلية جرداء اختفت معالمها وسط العواصف الثلجية الرمادية اللون. وعندما وصل الموكب الجنائزي في الأول من نوفمبر أخيرًا إلى غايته، كان على جانبي الطريق المؤدي إلى أبواب المدينة المحرمة المفروش بالرمل الأصفر ستائر عاكسة من حرير نانكينغ الأزرق، حتى لا تتمكن عامة الشعب من إلقاء نظرة على وجه الإمبراطور الابن ذي الأعوام الخمسة تونغ - تشيه، الذي رسّمه شيان - فينغ خليفة له على عرش التنين. وها هو الآن يعود خلف رفات والده إلى قصره مع أمه تسو - هسي التي ترقت من وضعية المحظية وصارت

بالفعل تحمل لقب الإمبراطورة الأرملة، على محفّة مبطنة. الصراعات التي اندلعت بطبيعة الحال بعد عودة الحاشية الملكية إلى بكين بشأن تولي سلطات الحكم المؤقتة نيابة عن الإمبراطور القاصر، حُسمت خلال فترة وجيزة لصالح الإمبراطورة الأرملة التي تمتعت بطموح سلطوي لا يُقهر. اتُهم الأمراء الذين عملوا نوابًا لهسين - فينغ خلال فترة غيابه بجريمة التآمر ضد الحكم الشرعي التي لا تغتفر وحُكم عليهم بالموت من خلال تقطيع أوصالهم وتمزيقهم إربًا. واعتُبر تغيير هذا الحكم إلى السماح لمرتكبي الخيانة العظمى بشنق أنفسهم، من خلال تقديم حبل من الحرير إليهم، علامة على الرأفة التي يتمتع بها النظام الجديد. وبعدما استخدم الأمراء تشينغ وسو - شون ويي، وعلى ما يبدو دون تردد، هذا الامتياز الذي مُنح لهم، أصبحت الإمبراطورة الأرملة بلا منازع حاكمة للإمبراطورية الصينية، إلى أن جاء الوقت الذي بلغ فيه ابنها سن الحكم وبدأ يتخذ إجراءات تتعارض مع خططها التي دبرتها ونفذت جزءًا منها من أجل توسيع متزايد لسلطتها المطلقة. ونظرًا لهذا التحول الذي طرأ، جرت الأمور من وجهة نظر تسي - شي وكأنها تقريبًا إشارة من السماء، فما كاد أن يمر عام على اعتلاء تونغ - تشيه للعرش، حتى أصابه الوهن ورقد طريح الفراش، وسواء كان ذلك بسبب إصابته بعدوى الجدري أو بمرض آخر، انتقل إليه كما أُشيع، من الراقصين والمتشبهين بالنساء في شوارع المتعة في بكين، فإن وفاته قبل الأوان ولما يكد يبلغ عامه التاسع عشر كانت متوقعة، عندما عبر كوكب الزهرة في خريف عام 1874 من أمام الشمس، وهو ما اعتُبر نذيرَ شؤم. لقد ولّوا وجهه نحو الجنوب وألبسوه في رحلته إلى العالم الآخر ثياب الحياة الأبدية. وما كادت مراسم الجنازة تنتهي حسب التقاليد المتبعة، حتى سممت زوجة الإمبراطور الذي صار في عداد الأسلاف نفسها بجرعة ثقيلة من الأفيون.

كانت في السابعة عشرة من عمرها وحسب مصادر مختلفة في المراحل الأخيرة من حملها. وأرجعت التصريحات الرسمية سبب موتها الذي حدث في ظروف غامضة إلى الحزن العميق الذي ألمَّ بها وقهرَها. لكن هذه التصريحات لم تتمكن تمامًا من إخماد الشكوك بأنه جرى التخلص من الإمبراطورة الشابة بغرض إطالة حكم الإمبراطورة الأرملة تسو - هسي، التي ثبتت منصبها الآن بتعيين ابن أخيها كوانغ - شي البالغ عمره عامين وليًّا للعهد. وهي مناورة مخالفة لكل التقاليد، لأن كوانغ - شي ينتمي في خط العائلة للجيل نفسه الذي انتمى إليه تونغ - تشيه. ووفقًا لتعاليم الديانة الكونفوشية التي لا يجوز خرقها، لم يكن مسموحًا له أن يؤدي واجبات الخشوع والتكريم الضرورية لإرضاء الموتى. الطريقة التي اضطرت الإمبراطورة الأرملة للجوء إليها لتجاوز التقاليد المهيبة، رغم كونها ذات طبيعة محافظة جدًّا، كانت دليلًا على أن طموحها الجامح لممارسة غير محدودة للسلطة يتنامى باضطراد عامًا بعد عام. وعلى غرار كل الحكام المستبدين كانت مهتمة باستعراض سمو منصبها أمام العالم وأمام عينيها من خلال نفقاتٍ تفوق أي خيال.

فميزانيتها الخاصة وحدها التي كان يديرها كبير الخصيان لي لين - ينغ، كانت تبتلع سنويًّا ستة ملايين جنيه استرليني، وهو مبلغ كان يعد بحساب ذاك الوقت رهيبًا. وكلما أصبحت وسائل استعراض سلطتها أكثر بذخا، تنامى أكثر فأكثر خوفها من فقدان السيطرة المطلقة التي حازتها بعناية وحرص شديدين. أرِقةً كانت تتجول ليلًا في وسط الظلال الغريبة لحديقة القصر بين الجبال الصناعية وأحواض السرخس ونباتات التويا الداكنة وأشجار السرو. وفي الصباح الباكر كانت تشرب على الريق مسحوق لؤلؤة مطحونة كإكسير يحفظها من الإصابة بأي مكروه. هي التي كانت تجد متعتها الكبرى في الأشياء التي لا حياة فيها، كانت تقف

خلال النهار أمام النافذة لساعات أحيانًا لتحدق في البحيرة الشمالية التي تشبه في سكونها لوحة مرسومة. الشخوص الضئيلة للبستانية في حقول الليلك البادية في الأفق أو لخدم البلاط الذين يتزلجون في الشتاء على الأرضية الجليدية الزرقاء لم يكونوا ليذكروها بالطبيعة الحيوية للبشر، بل هم يذكرونها بالأحرى بذباب في برطمان، محكوم عليه بالموت مسبقًا. وبالفعل يروي رَحّالةٌ تجولوا في الصين ما بين عامي 1876 و1879 أنه خلال فترة الجفاف التي دامت آنذاك لسنوات أعطت بعض المقاطعات الانطباع وكأنها سجون زجاجية. ويقال إن ما بين سبعة ملايين إلى عشرين مليون شخص – لم توجد أبدًا أرقام دقيقة – قد لقوا حتفهم جراء الجوع والإنهاك، معظمهم في مقاطعات شانزي وشينزي وشانتونغ. فمثلًا يصف الواعظ المعمداني تيموثي ريتشارد تأثيرات الكارثة من خلال تباطؤ الحركة الذي أخذ يتنامى بوضوح أسبوعًا بعد أسبوع.

فرادى وجماعات تمايل الناس بالحركة البطيئة عبر الحقول ولم يندر أن أطاحت بهم نسمة ضعيفة لتطرحهم أرضًا على حافة الطريق وليرقدوا هناك للأبد. أحيانًا بدا الأمر كأن مجرد رفع اليد أو خفض الجفن أو لفظ النفس الأخير يستغرق نحو نصف قرن. ومع تحلل الوقت، تتحلل أيضًا كل الأوضاع الأخرى. تبادل الآباء الأطفال فيما بينهم، لأنهم لم يكونوا قادرين على رؤية عذابات موت أبنائهم. كانت القرى والمدن محاطة بصحاري من الغبار، يتكرر فيها ظهور سراب مرتجف لأودية نهرية وبحيرات محاطة بالغابات. في الفجر عندما يخترق حفيف الأغصان الجافة النعاس الخفيف، يظن المرء أحيانًا لجزء من الثانية - عندما يكون التمني أقوى من المعرفة - أنها قد بدأت تمطر. تظل العاصمة ومحيطها مصونة من التداعيات الأسوأ للجفاف، لكن الإمبراطورة الأرملة أمرت، ومع وصول نُذر الكارثة من الجنوب، بتقديم أضحية دم لآلهة الحرير في معبدها ساعة بزوغ كوكب الزهرة، كي لا تنقص الخضرة الطازجة عن دود القز. فمن بين كل الكائنات الحية، كانت هذه الحشرات الرائعة هي الوحيدة التي تشعر الإمبراطورة بألفة شديدة نحوها. وكانت بيوت الحرير التي تُربى فيها من أجمل مباني القصور الصيفية. يوميًّا كانت تسو - هسي تتجول مع نساء حاشيتها اللائي يرتدين مرايل بيضاء عبر القاعات الفسيحة، لإلقاء نظرة على سير العمل. وعلى وجه الخصوص كانت تحبذ عند حلول الليل الجلوس بمفردها بين الأرفف لتنصت بإخلاص شديد إلى أصوات الالتهام الخفيضة المنتظمة المهدئة جدًّا، الناجمة عن قضم دود القز لأوراق التوت. هذه الكائنات الشاحبة التي تكاد تكون شفافة، والتي قد تغادر الحياة قريبًا من أجل الخيوط الرقيقة التي غزلتها، كانت تعتبرها أتباعها المخْلَصين بحق، وتبدو لها الشعب المثاليَّ، مستعدًا للعمل وجاهزًا للموت، وقابلًا للتكاثر في أي وقت

خلال فترة جيزة، وموجهًا فقط نحو غرض وحيد محدد له سلفًا، على النقيض من البشر الذين لم يكن من الممكن الاعتماد عليهم، بالأساس على الجماهير المجهولة في الخارج، وبشكل أقل على من يشكلون الدوائر الأقرب المحيطة بها، والذين كانوا قادرين في أي وقت – كانت تدرك ذلك – على الانتقال إلى صف الإمبراطور الطفل الثاني الذي عينته هي، والذي صار الآن يتشبث أكثر فأكثر برأيه الخاص، وهو أمر أصبح يثير قلقها. كان كوانغ – شي لا يزال مولعًا جدًّا بأسرار الآلات الجديدة، ويقضي معظم وقته في فك اللعب الميكانيكية والساعات التي كان يبيعها صاحب شركة دانمركي في أحد المحلات في بكين، وكان لا يزال من الممكن إلهاء تطلعاته الناشئة بوعده بقطار حقيقي يمكنه أن يجوب به أنحاء بلاده، لكن موعد تسلمه للسلطة لم يعد بعيدًا. والإمبراطورة الأرملة أصبحت مع طول أمد بقائها في السلطة أقل قدرة على التخلي عنها. لقد تخيلتُ أن قطار البلاد الملكي الصغير الذي توجد عليه صورة التنين الصيني والذي أصبح يتنقل بين هيليسوورث وساوثولد كان قد صُنع لأجل كوانغ – شي، ثم أُلغي الطلب، عندما شرع الإمبراطور الشاب في منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر وبشكل مضطرد في تبني أهداف حركة الإصلاح التي كان واقعًا تحت تأثيرها، وهي أهدافٌ كانت مناقضة تمامًا لمقاصد هسو تسي. لكن المؤكد هو أن مساعي كوانغ – شي لحيازة السلطة أدت في نهاية المطاف إلى احتجازه في أحد القصور المحاطة بالمياه الواقعة أمام المدينة المحرمة وإرغامه على توقيع إقرار بالتنازل تُنقل بموجبه سلطات الحكم دون أي قيد إلى الإمبراطورة الأرملة. لعشر سنوات أخذ كوانغ – شي يذوي في منفاه في جزيرة الفردوس، إلى أن قضت عليه في نهاية صيف 1908 أمراض عديدة (صداع مزمن وآلام في الظهر وتشنجات بالكُلى وحساسية مفرطة للضوء والضجيج وضعف

في الرئة واكتئاب حاد) هذه الأمراض حلت به وأخذت تتكاثر عليه منذ خلعه من السلطة. وشخَّص طبيب عالم بالطب الغربي (هو د. شو) ما أصابه على أنه داء برايت، لكنه لاحظ مع ذلك أعراضًا غير متسقة مع المرض - قلبًا مرتجفًا ووجهًا ينقلب إلى اللون القرمزي ولسانًا أصفر - وهي أعراض تشير إلى تسمم بطيء وهو ما كانت تخمنه جهات عدة منذ ذاك الوقت. وبخلاف ذلك لا حظ د. شو خلال زيارته للمريض في المسكن الإمبراطوري أن الأرضية وكل الأثاثات كانت تعلوها طبقة سميكة من الغبار، وكأن البيت مهجور منذ سنوات، وهو ما يشير إلى أن العناية براحة الإمبراطور قد توقفت منذ سنوات. في الرابع عشر من نوفمبر 1908، في وقت الغروب أو كما يقولون في ساعة الديك، فارق كوانغ - شي الحياة وقد أضناه الألم. كان في السابعة والثلاثين من العمر لحظة وفاته. لكن الإمبراطورة الأرملة البالغة من العمر ثلاثة وسبعين عامًا التي دبرت تدمير جسده وروحه، لم تعمر حتى ليوم واحد بعده. ففي صباح الخامس عشر من نوفمبر ترأست وهي لا تزال بكامل صحتها تقريبًا المجلس الكبير الذي درس الوضع الجديد، لكن بعد الغداء الذي تناولت فيه حصة مضاعفة من وجبتها المفضلة (وهي التفاح البري مع الكريمة الثخينة) مخالفة بذلك تحذيرات أطبائها عانت من نوبة إسهال لم تنجُ منها. حوالي الساعة الثالثة كانت النهاية. وقد أملت وهي ترتدي لباس الموت وداعها للإمبراطورية التي صارت خلال فترة حكمها الذي قارب نصف قرن على شفا التفكك. قالت إنها ترى الآن وهي تنظر إلى الوراء أن التاريخ ليس إلا التعاسة والابتلاءات التي تنزل بنا، كأمواج البحر التي تضرب الشطآن، بحيث لا نشهد طيلة أيامنا في الدنيا ولا حتى لحظة واحدة خالية من الخوف.

إنكار الزمن، كما جاء في النص عن Orbis Tertius أو العالم رقم ثلاثة،

هو الأساس الأهم لمدارس تلون Tlon الفلسفية. ووفقًا لهذا الأساس لا يتحقق المستقبل إلا في شكل خوفنا وأملنا الحاليين، وأن يكون الماضي مجرد ذكرى. ووفقًا لرأي آخر فإن الدنيا وكل من عليها الآن، قد خُلقوا قبل بضع دقائق فقط، كلهم مع كامل تاريخهم السابق الوهمي. أما الرأي التعليمي الثالث فيصف أرضنا بأشكال متنوعة كحارة سد في مدينة الرب الكبيرة، كغرفة مظلمة مليئة بالصور الغامضة أو كضباب يحجب شمسًا أفضل. أما ممثلو المدرسة الفلسفية الرابعة فيدعون من جهتهم أن كل شيء قد مر وانتهى وحياتنا هي فقط الانعكاس الغسقي لحدث لا يمكن استعادته. ونحن حقًا لا نعرف كم من التحولات الممكنة خلَّفها العالم وراءه وكم تبقى من الزمن، إن كان للزمن وجود في الأساس. المؤكد هو أن الليل يدوم أطول من النهار، إذا ما قارن المرء الحياة الواحدة، الحياة في مجملها أو الزمن نفسه، بالنظام الأعلى منه. ليل الزمن، يكتب توماس براون في مؤلفه الصادر عام 1658 بعنوان «حديقة قوروش» يتخطى النهار، ومن يدري متى كان الاعتدال الشمسي[1]؟ مثل هذه الأفكار دارت في ذهني، عندما سرت لمسافة بعيدة على جسر القطار المهجور العابر فوق نهر البلايث، ثم هبطت من أعلى إلى السهل الذي تغطيه الأهوار ويمتد من وُلبرسويك في الجنوب الغربي إلى دانيتش، وهي منطقة لا يوجد بها سوى عدد قليل من المساكن. إنها منطقة خاوية ومهجورة لدرجة أنه لو تُرك أحدهم وحيدًا هنا، فلن يستطيع أن يقول إن كان يقف هنا على ساحل بحر الشمال أو ربما على شاطئ بحر قزوين أو أمام خليج ليان -

(1) هو وقت من السنة يمر فيه خط الاستواء السماوي الذي يمتد من دون حد في كل الاتجاهات إلى خط استواء الأرض عبر منتصف قرص الشمس، وتحدث هذه الظاهرة مرتين سنويا، بمعنى آخر هو الوقت الذي يتعامد فيه مركز قرص الشمس المرئي مع خط الاستواء الأرضي المترجم.

تونغ. عن يميني حقل من أعواد البوص المتمايلة وعلى يساري الشاطئ الرمادي، اتخذت وجهتي نحو دانيتش التي بدت بعيدة في الأفق، وكأنه لا يمكن الوصول إليها أبدًا. تراءى لي وكأنني سرت لساعات، إلى أن بدأت تظهر تدريجيًّا أسطح بيوت من الإردواز والآجر بألوان باهتة وقمة تل محاطة بغابة.

دانيتش الحالية هي بقايا مدينة كانت تعد من أهم موانئ أوربّا في العصور الوسطى. كان يوجد هنا في الماضي أكثر من خمسين كنيسة وديرا ومستشفى، وكان بها ترسانات وحصون وأسطول للصيد وللتجارة قوامه ثمانون سفينة وعشرات من طواحين الهواء. كل هذه الأشياء غرقت وتقع بشكل متفرق في محيط مترين إلى ثلاثة أمتار مربعة تحت رمل الغمر والركام في قاع البحر بالخارج. لقد انهارت أبرشيات القديسين جيمس وليونارد ومارتين وبارثليميو ومايكل وباتريك وماري وجون وبيتر ونيكولاس وفيليكس واحدة وراء الأخرى فوق الجرف المتحدر الآخذ في التآكل الذي أخذ يغوص تدريجيًّا مع التربة والحجارة التي بُنيت عليها المدينة في الماضي. الغريب أن ما تبقى فقط هو أحواض الآبار المبطنة بالحجارة المتحررة من كل ما أحاط بها في الماضي. لقرون، كما يقول مؤرخون عدة، انتصبت هذه الأحواض سامقة في الفضاء الخاوي

مثل مدخنة لورشة حدادة تقع تحت الأرض، إلى أن انهارت أيضًا هذه المعالم المميزة للمدينة المختفية. حتى حوالي عام 1890 كان لا يزال من الممكن رؤية برج كنيسة إكلس Eccles على شاطئ دانيتش.

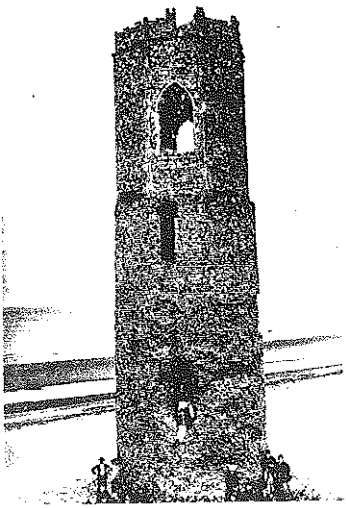

ولم يكن أحد ليعلم كيف هبط البرج من الارتفاع العالي جدًّا الذي كان ينتصب عنده من قبل، من دون أن يختل، ليستقر عند مستوى سطح البحر. لم يُحل اللغز إلى يومنا هذا لكن دراسة أُجريت على نموذج له منذ فترة قصيرة، كشفت عن احتمال أن البرج الغامض كان مبنيا فوق الرمل، ولهذا كان يغوص ببطء في الرمل تحت ثقل وزنه ولهذا لم يتعرض المبنى لأي خسائر تذكر. حوالي عام 1900 وبعد أن أنهار برج إكلس، لم يكن قد تبقى من كنائس دانيتش سوى أطلال كنيسة كل القديسين.

في عام 1919 انزلقت الكنيسة مع رفات المدفونين في المقبرة المحيطة بها من فوق المنحدر. كانت ذروة انتعاش دانيتش في القرن الثالث عشر. يوميًّا كانت السفن تأتي من لندن وستافورين وشترالزوند وجدًّانسك

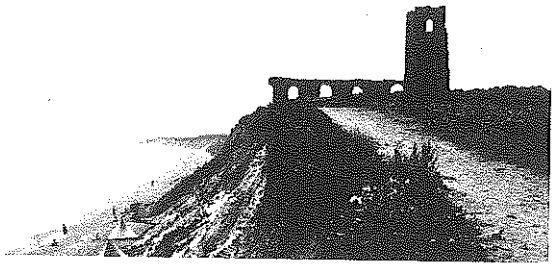

وبروغه وبايون وبوردو. في دانيتش جُهِّزَ رُبعُ الأسطول الذي أبحر في مايو عام 1230 من بورتسماوث ونقل مئات من الفرسان مع جيادهم وآلاف مؤلفة من جنود المشاة وحاشية الملك إلى بواتو[1]. كان بناء السفن والتجارة في الخشب والقمح والملح والرنجة والصوف والجلود يجلبان ربحًا وفيرًا جدًّا لدرجة أن أهالي المدينة كانوا على استعداد لاتخاذ كل التدابير المتخيلة لمواجهة الاعتداءات الآتية من البر وأيضًا للوقوف في وجه عنف البحر الذي يفترس الساحل بلا هوادة. لا يمكننا اليوم أن نقول بأي درجة من الثقة قام سكان دانيتش آنذاك بأعمال التحصين. لكن الثابت هو أنه قد تبين أن هذه الأعمال لم تكن كافية، عندما دمرت أمواج جارفة في ليلة رأس السنة لعام 1286 المنطقة السفلية من المدينة ومنطقة الميناء دمارًا وحشيًّا، حتى ظل الناس لأشهر عديدة لا يميزون الحدود بين البحر والشاطئ. أسوار منهارة وركام بناء وأطلال، وعوارض خشبية مكسورة وأجسام سفن مفلوقة وكتل من الطوب اللبن الذي فقد تماسكه، والحصى والرمل والمياه في كل مكان. ثم بعد ذلك بعدة عقود في الرابع عشر من يناير 1328، وبعد مرور الخريف وأعياد الميلاد بهدوء على غير

(1) حملة هنري الثالث ملك إنجلترا (1207 – 1270) ضد فرنسا. كانت حملة عسكرية باهظة التكاليف لاستعادة ما يسمى بالإمبراطورية الأنجوية (غرب فرنسا) ولكنها باءت بالفشل. المترجم.

العادة، حلت مصيبة ربما أكبر من سابقتها. مجددًا تضرب دانيتش عاصفة شمالية تشبه الإعصار بالتزامن مع أعلى فترات المد خلال الشهر. عند حلول الظلام هرب سكان حي الميناء مع كل ما خف حمله من متاعهم إلى المدينة العليا. وطوال الليل ظلت الأمواج الجارفة تهدم صفوف البيوت واحدًا تلو الآخر. مثل مدقات ثقيلة تضرب ألواح السقف والعوارض الخشبية العائمة في المياه الأسوار والجدران التي لم تُهدم بعد. عند الفجر تقف جموع الناجين، ربما، نحو ألفين أو ثلاثة آلاف شخص، من عائلات راقية مثل آل فيتزريتشارت وآل فيتزموريس وآل فالان وآل لافاليس، وأيضًا عامة الشعب، في وجه العاصفة في الأعلى على حافة الهاوية ويحملقون بفزع عبر سحب الرذاذ المالح إلى أسفل حيث تدور بالات بضائع وبراميل ورافعات مهشمة وأشرعة طواحين هواء ممزقة وصوانات وموائد وصناديق وألحفة وحطب وقش وحيوانات غارقة، كلها في دوامات في المياه البنية المائلة للبياض وكأنها كلها في مطحنة الدمار. دائمًا ما تكررت مثل هذه الضربات الكارثية للبحر في القرون التالية وبطبيعة الحال استمر زحف عوامل التعرية في الفترات الهادئة ما بين هذه الضربات ليتآكل الساحل أكثر فأكثر. تدريجيًّا استسلم سكان دانيتش لعدم إمكانية تغيير هذه التطورات. وتخلوا عن الصراع الميؤوس منه، وأداروا ظهورهم للبحر وبنوا باتجاه الغرب وبحسب ما تسمح به الثروات الآخذة في التناقص، مشروع نزوح ممتد عبر أجيال. وبهذا النزوح تكون المدينة المحتضرة قد وصفت - في رد فعل عصبي إن جاز القول - أحد المحركات الأساسية لحياة الإنسان. الملحوظ هو أن الكثير من أماكن سكنانا تتجه وتنزح، كلما سمحت الظروف بذلك نحو الغرب. الشرق مرادف لانعدام الأفق. خصوصًا في فترة استعمار القارة الأمريكية كان ملحوظًا أن المدن تزدهر غربًا، بينما كانت تلك الموجودة

في المناطق الشرقية تنهار. مثلما تخمد الحرائق، تنطفئ إلى يومنا هذا في البرازيل مقاطعات بأكملها تقريبًا بعد استنزاف مواردها، ثم يخلق مجال جديد للعمل في الغرب. وفي أمريكا الشمالية أيضًا ينتقل عدد لا حصر له من المناطق السكنية المتنوعة مع محطات الوقود والموتيلات ومراكز التسوق التابعة لها باتجاه الغرب بمحاذاة الطريق السريع. وبشكل لا يحتمل الخطأ يتشكل على هذا المحور قُطبا الرخاءِ والبؤس. هذا ما ذكرتني به حركة النزوح من دانيتش. فبعد الكارثة الكبرى الأولى عُمِّر المدخل الغربي للمدينة، لكن حتى الدير الفرنسيسكاني الذي بُني هناك لم يتبقَّ منه إلى يومنا هذا سوى قليل من الركام. لقد ذابت دانيتش بأطلالها وآلاف الأنفس التي كانت تقطنها في المياه والرمل والحصى والهواء الخفيف. إذا ما نظر المرء من قمة المنحدر المعشوشبة فوق البحر في الاتجاه الذي كانت فيه المدينة في الماضي، سيشعر بقوة الامتصاص الهائلة للفراغ. وربما لذلك أصبحت دانيتش في العصر الفيكتوري مزارًا للشعراء ذوي المزاج السوداوي. فمثلًا جاء ألغيرنون سوينبرن Algernon Swinburn مع المسؤول عن رعايته ثيودور واتس دانتون Theodore Watts Dunton عدة مرات إلى هنا في سبعينيات القرن التاسع عشر، عندما كانت اضطرابات الحياة الأدبية في لندن تشكل خطرًا على أعصابه التي اتسمت منذ طفولته بحساسيتها المفرطة. كان سوينبرن الذي تمتع بشهرة أسطورية في شبابه، يدخل بسبب النقاشات المذهلة في صالونات «ما قبل الرفائيلية[1]» والمجهود الروحي الذي كان يبذله في

(1) ما قبل الرفائيلية هي رابطة تشكلت عام 1848 من الرسامين والشعراء البريطانيين كاحتجاج على المستوى المتدني للفن الإنجليزي في هذا الوقت، بهدف إعادة تشكيل الفن من خلال رفض الأعمال التي قام فنانوها بتغيير العناصر القياسية للرسم من أتباع رفائيل ومايكل أنجلو. المترجم.

تأليف مسرحياته التراجيدية وقصائده بزخرفه الشعري الرائع في نوبات توهج عاطفي حادة، لدرجة أنه كان يفقد السيطرة على صوته وأطرافه. كان يرقد بعد هذه النوبات المشابهة للصرع في السرير لأسابيع، وسرعان ما يكون بعدها غير مؤهل للمجتمع العام، ويستطيع التعامل فقط مع أشخاص مقربين بعينهم. ويقضي فترة شفائه في البداية في المقر الريفي لعائلته، وبعد ذلك صار يتردد أكثر مع مرافقه واتس دانتون على الساحل. كانت الجولات من ساوثولد إلى دانيتش عبر حقول أعواد البوص التي أثنتها الرياح ورؤية صحراء الماء بمثابة المهدئات بالنسبة إليه. وتعد القصيدة المعنونة بـ «By the Northsea عند بحر الشمال» إهداء للتحلل الذاتي التدريجي للحياة.

مثل الرماد تتفتت المنحدرات السفلية وينهار الشاطئ مستحيلًا إلى غبار.

أذكر أنني قرأت في دراسة عن سوينبرن، أنه ذات مساء صيفي عندما زار مقبرة كنيسة كل القديسين مع واتس دانتون، ظن أنه رأى بعيدًا على سطح البحر ضوءًا مخضرًّا. وهذا الضوء يذكره، حسبما نُسب له، بقصر قوبلاي خان الذي بُني في المكان الذي تأسست فيه بكين لاحقًا، وفي الزمن ذاته الذي كانت فيه دانيتش من أكبر حواضر المملكة الإنجليزية. وإن لم أكن مخطئًا، فإن الدراسة المشكوك في صحتها أوردت أن سوينبرن قد وصف لواتس دانتون في هذه الليلة القصر الأسطوري بكل تفاصيله: الجدار الأبيض الطويل الممتد لأكثر من أربعة أميال، وترسانة الحصن المتخمة بالألجمة والسروج والأسلحة من كل الأنواع، والمخازن ومستودعات الكنوز والاصطبلات التي كان بها مجموعات من الخيول الجميلة التي لا يمكن أن تغفلها العين، وقاعات الاحتفال ومقاصير الجلوس وحديقة الحيوان وجبلاية الحصان وحيد القرن،

والتل البانورامي البالغ ارتفاعه ثلاث مئة قدم الذي أمر قوبلاي خان ببنائه في الجهة الشمالية. والمنحدرات الحادة لهذا البناء المخروطي الشكل المغطى بأحجار لازورد خضراء، حسبما يُنسب زعمًا لسوينبرن، قد زُودت خلال عام كامل بأروع وأندر نماذج الأشجار دائمة الخضرة مكتملة النضج، بعد أن أُخرجت من أماكنها بجذورها وتربتها ونُقلت عبر مسافات طويلة على ظهور أفيال دُربت خصيصى لذلك. لم يُخلق في العالم من قبلُ ولا من بعدُ - هكذا يُزعم أن سوينبرن قد قال ذلك في تلك الليلة في دانيتش - شيءٌ أجمل من هذا الجبل الصناعي الأخضر حتى في عز الشتاء الذي يتّوّجه قصر للهدوء أخضر اللون أيضًا.

وُلد ألغيرنون تشارلز سوينبرن، الذي يقارب في طول عمره الإمبراطورة الأرملة تسو - هسي، في الخامس من إبريل عام 1837 كأكبر الأبناء الستة للأميرال تشارلز هنري سوينبرن وزوجته الليدي جين هنريتا وهي ابنة الإيرل الثالث لأشبرنهام. تعود أصول كِلتا العائلتين إلى زمن بعيد، إلى ذاك الوقت الذي بنى فيه قوبلاي خان قصره وانخرطت دانيتش في تجارة مع كل البلدان التي يمكن الوصول إليها بحرًا. بقدر ما يستطيع المرء العودة بالذاكرة، كان آل سوينبرن وآل أشبرنهام من الحاشية الملكية، محاربين وعسكريين على درجة كبيرة من الأهمية، أصحاب أراضي شاسعة ورحالة مكتشفين. أصبح الجنرال روبرت سوينبرن، أحد الأعمام الكبار لألغيرنون سوينبرن، على نحو غريب من رعايا إمبراطور النمسا ورُقِّيَ إلى مرتبة بارون في الإمبراطورية الرومانية المقدسة وذلك حسبما يفترض بسبب إيمانه بالسلطة البابوية المطلقة[1]. وقد تُوفي وهو

(1) Ultramontanismus هي حركة سياسية كاثوليكية تؤمن بتوسيع صلاحيات البابا السياسية وأولوية القرارات البابوية على قرارات الدولة الوطنية، والاسم يعني وراء الجبال ويُقصد به عبور سلطة البابا من روما عبر جبال الألب إلى البلدان الكاثوليكية الشمالية، تحديدا النمسا وألمانيا. المترجم.

حاكم لميلانو، وتقلد ابنه وظيفة حاجب الإمبراطور فرانتز يوزف حتى وفاته في سن متأخرة في عام 1907. من المحتمل أن يكون هذا الشكل المتطرف من الكاثوليكية السياسية في جانب من العائلة هو أول نُذر انهيارها. بغض النظر عن ذلك ظل السؤال يطرح نفسه كيف يتأتي أن يولد من ظهر هذه السلالة النشيطة شخص يتهدده دائمًا خطر الإصابة بالانهيار العصبي. وهو تناقض حيَّر لفترة طويلة كُتّابَ سيرة سوينبرن الذي انشغلوا لهذا الغرض بالأصل وعوامل الوراثة، إلى أن اتفقوا على أن مؤلف قصيدة أتلانتا ظاهرة خلقية جاءت من العدم وبعيدة عن كل الاحتمالات الطبيعية. وبالطبع لا بد أن يبدو سوينبرن، بسبب مظهره وحده، مغايرًا تمامًا لكل البشر.

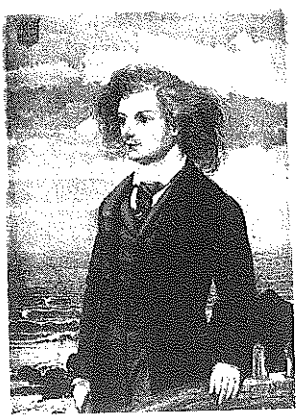

منذ صغره كان في كل طور من أطوار نموه متخلفًا عن معيار التطور الطبيعي وبنية جسده كانت رقيقة على نحو مفزع، مع ذلك كان يحمل مذ كان صبيًّا رأسًا غاية في الضخامة على كتفيه الواهنين اللذين ينحدران بحدة بالغة من منبت الرقبة للأسفل. وكما يروي واحد ممن كانوا في سن سوينبرن، فإن هذا الرأس غير العادي بحق الذي تميزه خصلة شعر لونها أحمر ناريٌّ تبرز إلى الجنب، وعينان مشعتان لهما خضرة الماء، كان مثارًا

للتعجب في إيتون[1]. في يوم دخوله المدرسة (في صيف عام 1849 كان سوينبرن قد أتم الثانية عشرة) كانت قبعته هي الأكبر من بين قبعات إيتون. ويحكي شخص يدعى ليندو مايرز، سافر معه سوينبرن فيما بعد من لوهافر عابرين بحر المانش، أن هبَّة ريح نزعت قبعة سوينبرن عن رأسه وأطاحت بها من فوق ظهر السفينة، وعند وصولهما إلى ساوثهامبتون لم يجدًا قبعة مناسبة إلا في المحل الثالث، ولكن - أضاف مايرز - كان ضروريًا نزع الشريط الجلدي والبطانة منها. غير آبه ببنيته الجسدية غير المتناسبة حلم سوينبرن منذ نعومة أظفاره، وخصوصًا منذ قرأ في الصحف وصفًا لهجوم بالقرب من بالاكلافا، بالالتحاق بفرقة الفرسان وبأن يتمكن من مفارقة الحياة كمقاتل شجاع beau sabreur في معركة مجنونة كهذه. خلال فترة دراسته في أوكسفورد تألقت هذه الرؤية لتتفوق على كل التصورات الأخرى التي أرادها لمستقبله، ولم يلقِ بنفسه بلا هوادة في أتون الأدب إلا عندما فشلت فكرته عن الموت البطولي نهائيًا بسبب نموه الجسماني غير المكتمل، ولجأ بذلك إلى شكل لا يقل راديكالية لتدمير الذات. ربما ما كان لسوينبرن أن يصمد إزاء أزماته العصبية التي كانت تزداد حدة، لو لم يخضع أكثر فأكثر للنظام الصارم الذي كان يفرضه عليه رفيق حياته واتس دانتون. صار واتس دانتون مسؤولًا عن كل المراسلات، وكان يهتم بكل التفاصيل الصغيرة التي يمكن لها أن تصيب سوينبرن دائمًا بالهلع. وبذلك أبقى الشاعر على قيد الحياة لنحو ثلاثة عقود أشبه بذكرى شاحبة. في عام 1879 نُقل سوينبرن بعد إصابته بنوبة عصبية وهو في حالة أقرب إلى الموت منه إلى الحياة في عربة إلى بوتني هيل Putney Hill في جنوب غرب لندن. وهناك في فيلا الضاحية البسيطة الواقعة في Nr. 2 The Pines عاش الرجلان العازبان متجنبين عمدًا أي انفعال. كان اليوم

(1) كلية إيتون هي مدرسة بريطانية شهيرة. المترجم.

يسير وفقًا لخطة وضعها واتس دانتون بدقة. ويُنسب إلى واتس دانتون أنه قال بنوع من الفخر بجدوى النظام الذي وضعه: يتمشى سوينبرن دائمًا في الصباح ويكتب في وقت ما بعد الظهيرة ويقرأ في المساء. وما هو أكثر من ذلك أنه يأكل في وقت الوجبات مثل يسروع وينام مثل زغبة. من حين لآخر كان يُدعى للغداء ضيفٌ يريد الشاعر العجيب المنفيُّ في الضاحية أن يراه.

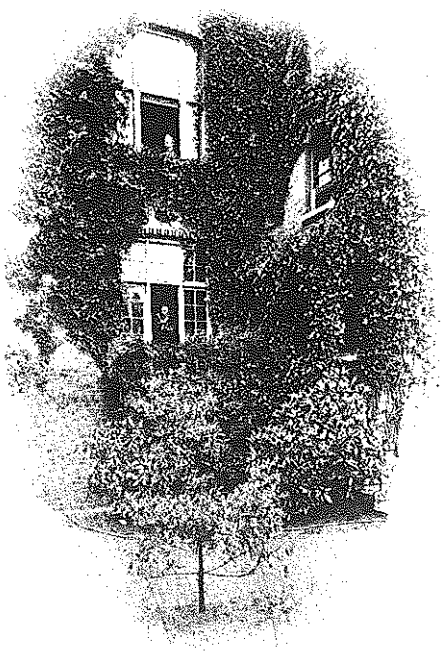

كانوا يجلسون ثلاثتهم حول السفرة في غرفة طعام كابية. يدير واتس دانتون ثقيل السمع الحوار بصوت جهوري، فيما ينكفأ سوينبرن برأسه فوق الطبق مثل تلميذ مهذب ويأكل في صمت قطعة هائلة من اللحم البقري. وقد كتب أحد الضيوف الذين زاروا بوتني هيل عند منعطف القرن

أن السيدين الهرمين تراءيا له مثل حشرتين غريبتين في «قارورة لايدن[1]». واستطرد قائلًا، لقد وجدتني مرارًا مضطرًا للتفكير في دودة القز الرمادية عند النظر إلى سوينبرن، سواء بسبب الطريقة التي يزدرد بها طعامه قطعةً قطعةً، أو لأنه يستيقظ من الوسن الخفيف الذي يغلبه بعد وجبة الغداء لينتقل مباشرة لحياة جديدة تسري فيها رعشة طاقة كهربية، ويجول سريعًا بيدين مرفرفتين في مكتبته وكأنه عثة هائجة ويصعد ويهبط سلالم المكتبة ليخرج كتابًا من النفائس من بين الأرفف. ويتجلى الشغف الذي يستولي عليه أثناء ذلك في تعليقاته الطربة عن كُتابه وشعرائه المفضلين مارلو ولاندور وهوغو، ومن غير النادر أيضًا في ذكرياته عن طفولته التي قضاها في أيل أوف ويت Isle of Wight ونورثامبرلاند Northumberland. في مثل هذه المناسبة يقال إنه مثلًا تذكر وهو في حالة نشوة تامة أنه جلس عند أقدام خالته أشبرنهام الطاعنة في السن، وأن هذه الخالة حكت له عن الحفل الراقص الكبير الأول الذي حضرته وهي فتاة صغيرة برفقة أمها. وقد عادا من هذا الحفل إلى البيت قاطعين أميالًا عدة في ليلة شتوية قارسة البرودة ونيّرة بفعل الثلج، إلى أن توقفت العربة فجأة عند مجموعة من الأشخاص المريبين الذين تبين أنهم كانوا بصدد دفن منتحر عند أحد التقاطعات. ومن خلال تدوينه لهذه الذكرى التي تعود في الماضي إلى نحو قرن ونصف قرن، هكذا يكتب الضيف الذي رحل بدوره أيضًا عن هذا العالم، فإنه يرى لوحة «الليل» المرعبة لوليام هوغارث، وقد أعاد سوينبرن آنذاك تجسيدها أمامه بوضوح تام ويرى في الوقت ذاته الغلام الصغير ذا الرأس الكبير والشعر الأحمر الناري مرتعدًا، ومتوسلًا وراجيًا:

احكي لي أكثر أيتها الخالة أشبرنهام، أرجوك، احكي لي أكثر.

---

(1) هي الشكل الأول للمكثفات الكهربية، من اكتشاف العالم الألماني إيفالد فون كلايست والجهاز منسوب إلى جامعة لايدن. المترجم.

7

أظلمت الدنيا على نحو غير مألوف وأصبح الطقس خانقًا عندما صعدتُ بعد استراحة على الشاطئ إلى مرج دانيتش المنعزل الواقع على منحدر فوق البحر. إن قصة نشوء هذه المنطقة الحزينة ليست على صلة وثيقة بطبيعة التربة وتأثيرات مناخ المحيط فحسب، بل هي مرتبطة بقدر أكثر حسمًا بالتقليص والتدمير المستمر للغابات الكثيفة الذي يجري عبر قرون عديدة أو عبر آلاف السنين، بعد أن كانت قد انتشرت بعد العصر الجليدي في كل أنحاء الجزر البريطانية. في نورفوك وسافوك كانت في الأساس غابات من البلوط والدردار، تهبط في موجات متصلة من التلال الصغيرة عبر المنحدرات إلى شاطئ البحر. بدأ هذا التقلص في الغابات مع ظهور السكان الأوائل، الذين أشعلوا الحرائق في البقاع الساحلية الشرقية القليلة الأمطار التي أرادوا سكناها. وكما انتشرت الغابات في السابق بأشكال غير منتظمة على سطح البسيطة ونمت تدريجيًّا، يزداد انتشار حقول الرماد الآن بشكل مشابه على نحو غير منتظم على حساب الأشجار المورقة الخضراء. وإذا ما حلق المرء اليوم بالطائرة فوق حوض الأمازون أو جزيرة بورنيو[1] وشاهد سحب الدخان التي تبدو للعيان مثل جبال راسخة فوق سطح الأدغال الذي يشبه بدوره المستنقعات، عندئذٍ

(1) ثالث أكبر جزيرة في العالم تقتسمها إندونيسيا وماليزيا وبروناي. المترجم.

يمكن للمرء أن يكوّن على أفضل نحو تصورًا عن التداعيات المحتملة لهذه الحرائق التي تستمر أحيانًا لأشهر. وما بقي من غابات أوربّا مصونًا في عصور ما قبل اكتشاف النار، قُطِّع لاحقًا من أجل بناء البيوت والسفن ومن أجل الحصول على الفحم النباتي الذي يُستخدم بكميات هائلة في مصاهر الحديد. وبالفعل لم يكن يوجد في كل أنحاء الجزر البريطانية في القرن السابع عشر سوى مساحات لا تذكر من بقايا الغابات المتروكة للتلف والتحلل. والآن تشتعل الحرائق على الجهة الأخرى من المحيط. وليس عبثًا أن اسم البرازيل، هذا البلد الشاسع الذي يصعب حصر مساحته يعود في أصله إلى الكلمة الفرنسية التي تعني الفحم النباتي. إن تفحيم كل أنواع النباتات العليا، والإحراق الذي لا نهاية له لكل مادة قابلة للاشتعال هو دافعنا للانتشار في الأرض. من القناديل إلى مصابيح الشوارع في القرن الثامن عشر، ومن مصابيح الشوارع إلى وهج أعمدة الإنارة الباهت على الطريق السريع البلجيكي، كل هذا احتراق، والاحتراق هو المبدأ الأعمق لكل شيء ننتجه، فإنتاج خطاف صنارة للصيد وصنع فنجان من البورسيلين وإنتاج برنامج تليفزيوني، كل هذه الأشياء تستند في نهاية المطاف إلى عملية الاحتراق ذاتها. والماكينات التي اخترعناها لديها - مثل أجسامنا - قلب يحترق ببطء. لم تكن الحضارة الإنسانية من بدايتها سوى وهج يزداد كثافة من ساعة لأخرى، ولا أحد يعلم إلى أي درجة يمكن أن يصل، ومتى ينطفئ تدريجيًّا. حاليًّا لا تزال مدننا تضيء والحرائق تنتشر من حولها. في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا والمجر وبولندا وليتوانيا وكندا وكاليفورنيا تحترق الغابات في الصيف، ناهيك عن الحرائق الهائلة التي لا تنخمد أبدًا في المناطق الاستوائية. لقد رأيت في اليونان قبل عدة سنوات، في جزيرة كانت تغطيها الغابات عند مطلع القرن العشرين، بأي سرعة تلتهم الحرائق النباتات اليابسة.

في مكان بعيد قليلًا عن المدينة الميناء التي كنت أقيم فيها، وقفت آنذاك على حافة الطريق وسط مجموعة من الرجال المنفعلين، وراءنا كان الليل المدلهمّ وأمامنا بعيدًا في الأسفل في قاع أخدود كانت النيران المتسارعة المتقاقزة التي تصعد حتى إلى المنحدرات الحادة بقوة الرياح. ولن أنسى أبدًا أشجار العرعر التي ظهرت داكنة في انعكاسها، وهي تشتعل واحدة تلو الأخرى بمجرد أن تلمسها ألسنة اللهب الأولى مصدرة صوتًا يشبه الانفجار المكتوم، وكأنها مصنوعة من رماد الجمر، وتنهار بعدها على الفور وسط غبار الشرر الساكن.

في طريق الخروج من دانيتش مررت أولًا بدير الفرنسيسكان، ثم بحقول عدة، وعبر غابة صغيرة مهملة شهدت على ما يبدو نموًّا مفرطًا في الآونة الأخيرة، وتشابكت فيها أغصان أشجار الصنوبر القزمي والبتولا وأعواد نبات الرتم، بحيث تطلب الأمر مني جهدًا كبيرًا للمضي قدمًا عبرها. وما كدتُ أفكرُ في أن أعود أدراجي حتى انفتح المرج أمامي فجأة وامتد غربًا بألوان تتراوح ما بين الليلكي الباهت والقرمزي، واخترقه في الوسط طريق أبيض اللون بتعرجات طفيفة. تائهًا في الأفكار التي تدور في رأسي بلا انقطاع وكالمُخَدَّر من الازدهار الخلاب للنباتات، تمشيت على الطريق الرملي الفاتح اللون إلى أن وجدتني، ولذهولي، إن لم أقل لفزعي، مرة أخرى أمام الغابة الموحشة نفسها، التي خرجت منها قبل نحو ساعة، أو كما بدا لي الآن أنني خرجت منها في ماضٍ غابر. في هذا المرج الخالي من الأشجار لا يوجد شيء يمكن تحديد الاتجاهات على أساسه سوى فيلا غريبة بها برج زجاجي ذكرتني على نحو عبثي بأوستند. ظهرت الفيلا، كما تبين لي آنئذٍ، مرارًا أثناء تجوالي غير المكترث من جهات غير متوقعة إطلاقا، فتارة تكون قريبة وتارة أخرى بعيدة، على اليسار ثم على يميني بل ذات مرة انتقل البرج خلال فترة وجيزة جدًّا من ناحية من المبنى إلى ناحية أخرى، وكأنني رأيت عوضًا عن الفيلا

الحقيقية صورَتَها في المرآة. وما زاد من تيهي عمومًا، أن لافتات الطريق عند التفريعات والتقاطعات، كانت كلها بلا استثناء خالية من أي كتابة وبدلًا من وجود أية معلومات عن المكان أو المسافات كان فقط سهمٌ صامت يشير إلى هذا الاتجاه أو ذاك، وقد اكتشفت ذلك بحيرة متزايدة أثناء مواصلة السير. وإذا ما اتبع المرء حدسه، سيتبين حتمًا عاجلًا أو آجلًا أن الطريق يبتعد أكثر فأكثر عن الهدف الذي يريد المرء الوصول إليه. لم يكن ممكنًا السير عبر الحقل بسبب شجيرات الخلنج المتشابكة التي يصل طولها إلى الركبة، ولذلك لم يكن أمامي خيار آخر سوى أن أبقى على الطريق الرملي المتعرج وأن احتفظ في ذهني بقدر الإمكان بدقة بكل علامة دالة مهما كانت صغيرة وكل تغير ولو طفيف في المنظر. لعدة مرات عدت أدراجي قاطعًا مسافات أطول في الطريق الذي قد لا تتبين معالمه بصورة واضحة إلا من المنصة الزجاجية في برج الفيلا البلجيكية، وفي كل مرة كنت أصاب بحالة من الهلع المتزايد. السماء الرصاصية شديدة الدنو، واللون البنفسجي للمرج الذي يعكر صفو الرؤية بشكل مرضي، والصمت الهادر في الأذن كهدير البحر داخل قوقعة، والذباب الذي تحاوطني أسرابه، كل شيء بدا لي مخيفًا وفظيعًا. لا يمكنني القول إلى متى ظللت أجول تائهًا وأنا في هذه الحالة وكيف وجدت المخرج في النهاية. الشيء الوحيد الذي ما زلت أتذكره هو أنني وجدتني فجأة أقف في الخارج على طريق زراعي تحت شجرة بلوط كبيرة، وأن الأفق كان يدور بي وكأنني قفزت من أرجوحة دوارة. بعد أشهر من هذه التجربة التي بقيت غامضة بالنسبة لي إلى اليوم، حلمت مرارًا بأنني موجود في مرج دانيتش، وسرت مجددًا عبر الطرق الملتفة بلا نهاية كالمتاهة، ولم أتمكن من الخروج، كما ظننت، من الحديقة المتاهة التي صممت خصيصى من أجلي. منهكا إلى حد الموت ومستعدًا لكي أستلقي في أي مكان، وصلت عند حلول الغسق إلى مكان مرتفع قليلًا، شُيدت عنده

مثلما هي الحال في منتصف متاهة أشجار الطقسوس في سومرليتون مقصورة صينية صغيرة. وعندما نظرت من هذا الموقع البانورامي إلى الأسفل رأيت المتاهة بنفسي، الأرضية الرملية الفاتحة والخطوط الدائرية المرسومة بوضوح لأسياج الشجيرات الداكنة كالليل تقريبًا التي تربو في ارتفاعها على طول الإنسان العادي، وهي مقارنة بالمتاهات التي دخلتها في الماضي تعد نموذجًا بسيطًا، وكنت أعرف في الحلم بثقة مطلقة أن هذا النموذج يمثل قطاعًا عرضيًّا لمُخّي.

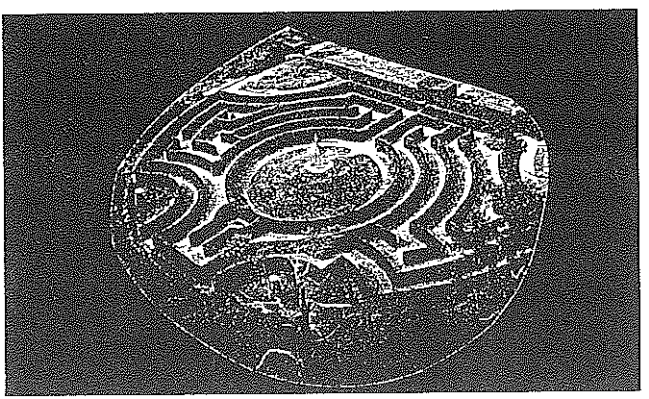

خارج المتاهة انتقلت الظلال فوق دخان المرج، ثم ظهرت النجوم تباعًا من عمق الفضاء.

Night, the astonishing, the stranger to all that is human, over the mountain – tops mournful and gleaming draws on.[1]

الليل، المدهش الغريب بالنسبة إلى كل ما هو بشري، يمضي حزينًا ولامعًا فوق قمم الجبال.

كان الأمر وكأنني موجود في أعلى نقطة على الأرض، هناك حيث

(1) يقتبس زيبالد هنا من الترجمة الإنجليزية لمرثية «خبز ونبيذ» للشاعر الألماني هولدرلين بترجمة ميشائيل هامبورغر الذي سيرد ذكره لاحقا. المترجم.

تظل سماء الشتاء ساكنة فقط وتومض. وكأن المرج قد تجمد في الصقيع ونعست في حفر الرمل أفاعٍ وحيات وسحالٍ من الثلج الشفاف. من مكاني على دكة الاستراحة الصغيرة في المقصورة نظرت في كل الاتجاهات متجاوزًا المرج إلى الليل في الخارج. ورأيت أنه ثمَّت مناطق بأكملها من منطقة الساحل وهبوطًا إلى الجنوب مهدمة وغارقة وسط الأمواج. كانت الفيلا البلجيكية تتأرجح فعليًّا على حافة الجرف بينما يعبث شخص بدين يرتدي زي القبطان في حركة متعجلة بكشاف إضاءة في المنصة الزجاجية للبرج. وقد ذكرني مخروطه الضوئي المركزي القوي الذي يتحسس طريقه في الظلام بالحرب. ورغم أنني جلست خلال حلمي المرجي، من فرط ذهولي، بلا حراك في المقصورة الصينية، فقد وقفت في الوقت ذاته في الخارج على بعد قدم واحدة فقط من الحافة الخارجية وكنت على وعي بكم هو سيئ النظر إلى الهاوية. حامت طيور الزاغ الزرعي والغربان على ارتفاع متوسط، ولم يبدُ حجمها أكبر من خنفساء، وبدا الصيادون على الشاطئ مثل الفئران، وبالأعلى لم يتناهَ إلى سمعي هذا التلاطم المكتوم للأمواج التي تطحن عددًا لا يحصى من الأحجار الصغيرة. أسفل المنحدر مباشرة فوق كومة من الطين الأسود، كانت أطلال بيت مدمر. بين أجزاء مهدمة من الأسوار وصناديق ملابس محطمة وأفاريز للدرج وأحواض استحمام مقلوبة ومواسير تدفئة مثنيّة، كانت أجساد سكان البيت محشورة وهم في حالة تشنج غريبة، وكان منهم من دخل لتوه للنوم أو من جلس أمام التليفزيون أو كان يقطع سمكة فلاوندر بسكين السمك. بعيدًا بعض الشيء عن مشهد الدمار هذا ركع رجل هرم وحيد بشعر أشعث بجانب ابنته الميتة، وكلاهما ضئيل الحجم وكأنهما على خشبة مسرح تقع على بعد أميال. لم يكن ثمَّت تنهيدة أخيرة ولا كلمة وداع أخيرة ولا حتى هذا الرجاء الأخير الميؤوس منه:

أعرني مِرآةً، إذا ما غبشتها أنفاسها أو لوثت الحجر، لمَ؟ لأنها ستكون حيةً عندئذٍ[1]. لا، لا شيء من هذا. كل شيء صامت وساكن. ثم تدرك بالكاد وبصوت خفيض نغمات مارش جنائزي. يقترب الليل من آخره، ويبزغ الفجر. في جزيرة ما في البحر الباهت اللون بالخارج ترتسم معالم مفاعل سايزويل النووي الذي يشبه في هيئته ضريحًا، هناك حيث ظن المرء بوجود منطقة دوغربانك الرملية الضحلة[2]، وحيث كانت أسراب سمك الرنجة تتكاثر، وحيثما كانت أيضًا قبل زمن بعيد جدًّا دلتا الراين، وحيثما نمت في التربة الغرينية سهول خضراء.

بعد نحو ساعتين من خلاصي الرائع من متاهة المرج وصلتُ أخيرًا إلى منطقة ميدلتون، حيث أردت أن أزور الكاتب ميشائيل هامبورغر[3] الذي يعيش هناك منذ عشرين عامًا. كانت الساعة الرابعة تقريبًا. لم يكن ثمَّت أحد لا في طريق القرية ولا الحدائق. أعطت البيوت انطباعًا منفرًا وتراءى لي وأنا أمسك بالقبعة في يدي وبحقيبة الظهر على كتفي وكأنني عامل مياوم من قرن غابر. كان جليًّا أنني في المكان الخطأ، لدرجة أنني ما كنت سأتعجب لو تقافز ورائي جمع من صبية الحواري وزفوني أو خرج أحد ملّاك البيوت في ميدلتون إلى عتبة الدار، ليصيح فيَّ: «ابتعد عن هنا!». في نهاية المطاف يثير كلُّ رحالة جوال حتى في يومنا هذا، بل خصوصًا في يومنا هذا، إذا لم يطابق الصورة المألوفة للسائح المتجول، يثير في

---

(1) اقتباس من الفصل الخامس، المشهد رقم 3 في مسرحية «الملك لير» لويليام شكسبير. المترجم.

(2) خلال العصر الجليدي الأخير كانت المنطقة جزءا من كتلة أرضية كبيرة تربط بين أوربا والجزر البريطانية. المترجم.

(3) ميشائيل هامبورغر(1922 – 2007) كاتب وشاعر ومترجم إنجليزي من أصل ألماني، ترجم العديد من الشعراء الألمان إلى الإنجليزية أبرزهم هولدرلين وباول تسيلان ونيللي ساكس وغونتر غراس. المترجم.

الحال شكوك السكان المحليين. وربما لهذا نظرت إليَّ الفتاة في دكان القرية بعينيها الزرقاوين في ذعر. كان الجرس المعلق على باب الدكان قد رن منذ بعض الوقت ووقفت لفترة في محل البقالة الصغير الذي رُصت فيه حتى السقف معلبات وبضائع أخرى لا تفسد، عندئذٍ خرجت لي من غرفة جانبية كان يومض فيها ضوء جهاز تليفزيون بارتعاش. ونظرت إلي مندهشة بفم شبه مفتوح وكأنني كائن من كوكب آخر. وبعد أن تماسكت قليلًا، تفحصتني بنظرة مستهجنة، ثبتتها في النهاية على حذائي المغبر، وعندما حييتها، حدقت في وجهي مرة أخرى في ذهول. لقد لاحظتُ مرارًا أن الناس في الريف يصابون بالرعب عند رؤيتهم لأجنبي وأنهم في الأغلب لا يفهمونه إلا بصعوبة وأحيانًا لا يفهمونه إطلاقًا ولو كان يتكلم لغتهم. الفتاة في دكان القرية في ميدلتون ردت أيضًا على طلبي لقنينة مياه معدنية بهز رأسها فقط من دون أن تفهم ما أريد. في نهاية المطاف باعت لي زجاجة مياه غازية Cherry – Coke مثلجة أفرغتها كالسُّم في جرعة واحدة طويلة وتركت العلبة الفارغة على سور مقبرة الكنيسة قبل أن أقطع المئة متر الأخيرة إلى بيت ميشائيل.

كان عمر ميشائيل تسعة أعوام ونصف العام عندما أتى في نوفمبر عام 1933 مع إخوته وأمه ووالديها إلى إنجلترا. كان أبوه قد غادر برلين قبلها بعدة أشهر، وجلس متلحفًا بأغطية صوفية في أحد تلك البيوت الحجرية غير المدفأة في إدنبره وأخذ يقلب في القواميس والكتب الدراسية، فرغم أنه كان أستاذًا في طب الأطفال في مستشفى شاريتيه البرليني، فقد كان عليه أن يخضع لاختبارات ترخيص مزاولة المهنة باللغة الإنجليزية التي لا يعرفها وفي سن تزيد على الخمسين عامًا، إن أراد أن يستمر في ممارسة مهنة الطب. في تدوينات السيرة الذاتية المتأخرة التي كتبها ميشائيل، يصف ذروة مخاوف العائلة المسافرة إلى المجهول من دون أب في

صالة جمارك دوفر، عندما رأوا في ذهول أن عصفوري الزينة الملونين اللذين كانا ملكًا للجد قد صودرا بعد وصولهما سالمين وتحملهما لمشقة النقل. كان فقدان هذين الطائرين المستأنسين والوقوف بلا حول ولا قوة ورؤية اختفائهما وراء حاجز كالبارافان، قد كشف لنا بوضوح لا مثيل له - كما يكتب ميشائيل - أي فظائع يرتبط بها الانتقال لبلد جديد في ظل هذه الظروف. كان اختفاء عصفورَي الزينة في صالة جمارك دوفر هو بداية اختفاء الطفولة البرلينية وراء الهوية الجديدة المكتسبة شيئًا فشيئًا على مدار العَقد التالي.

كم هو قليل ما تبقى فيَّ من موطني الأم، هكذا يقر كاتب المذكرات عند تأمله للذكريات القليلة المتبقية له التي لا تكفي حتى لرثاء غلام مفقود. لبدة أسد بروسي، مربية بروسية، تماثيل الكارياتيد التي تحمل الكرة الأرضية على أكتافها وضجيج المواصلات وأبواق السيارات الغامض الذي ينفذ من شارع ليتسنبورغ إلى منزلهم، وطقطقة التدفئة المركزية خلف ورق الحائط في الركن المظلم، الذي يُعاقب الأطفال بالوقوف فيه ووجوههم إلى الحائط، والرائحة المقززة لماء الصابون في المغسلة. اللعب بالبِلْي في حديقة في حي شارلُتنبورغ، قهوة الشعير ودبس البنجر وزيت كبد القد، وسكاكر توت العليق الممنوعة، من العلبة الفضية للجدة أنتونيا... ألم تكن كل هذه الأشياء خيالات وأوهام تحللت في الهواء الفارغ؟ المقاعد الجلدية في سيارة الجد «البويك» ومحطة «هازنشبرونغ» (قفزة الأرنب) في حي غرونهفالد، الساحل الشرقي وقرية هيرينغسدورف، كثيب رملي لا يحيط به سوى العدم المحض، نور الشمس وغروبها.

دائمًا عندما يظهر تصدع مثل هذا داخل الإنسان بسبب تغير ما وقع في حياته النفسية، يظن أنه يستطيع التذكر. لكن الحقيقة أن المرء بالطبع لا

يتذكر. انهارت مبانٍ كثيرة وتكوّم ركام كثير جدًّا. الرواسب والمخلفات الصخرية هي ما لا يمكن التغلب عليه. إذا نظرتُ اليوم إلى برلين في الماضي، هكذا يكتب ميشائيل، لا أرى سوى خلفية بلونين أزرق وأسود وعليها بقعة رمادية بقلم إردواز، أرقام وحروف غير واضحة، حرف ß وحروف أخرى لطختها ومسحتها خرقة السبورة. من المحتمل أن يكون هذا الموضع الأعمى هو أيضًا صورة لاحقة لمنظر الخراب الذي جُلت خلاله في عام 1947، عندما عدت لأول مرة لمسقط رأسي للبحث عن آثار من الزمن الذي ضاع مني. تجولت لبضعة أيام وأنا في حالة أقرب ما تكون إلى السرنمة مارًّا بالواجهات المهجورة وجدران الوقاية من الحريق والأطلال وعبر صفوف البيوت في شوارع شارلتنبورغ إلى أن وجدتني فجأة - على نحو عبثي كما بدا لي - أمام العمارة السكنية التي كان فيها بيتنا في شارع ليتسنبورغ. شعرت بنسمة الهواء البارد التي كانت تمس جبيني عندما أطأ المدخل وأتذكر إفريز الدرج المصنوع من الحديد الزهر وزخارف الجص على الجدران، والمكان الذي تقف فيه عربات الأطفال، وبدت لي أسماء السكان التي لم تتغير في معظمها والمكتوبة على صناديق البريد المصنوعة من الصفيح مثل عناصر أحجية كان لزامًا علي أن أحلها فقط بشكل صحيح، من أجل أن أجعل الأحداث الغريبة التي وقعت منذ رحيلنا، وكأنها لم تكن. لقد بدا كأن الأمر متوقف عليَّ أنا وحدي وكأنني أستطيع بجهد ذهني محدود أن أجعل التاريخ برمته مُلغًى، وكأنني فقط لو أردت لظلت الجدة أنتونيا التي رفضت الذهاب معنا إلى إنجلترا، تسكن كما في الماضي في شارع كانط، وكأنها لم تغادر كما جاء في بطاقة بريدية للصليب الأحمر وصلت إلينا بعد فترة وجيزة مما يسمى باندلاع الحرب، بل بقيت كما هي تعنى براحة أسماكها الذهبية، التي كانت تغسلها يوميًّا تحت صنبور الماء في المطبخ وتضعها إن كان الطقس

جيدًا لفترة وجيزة على إفريز النافذة من أجل الهواء المنعش. ما كان الأمر ليتطلب أكثر من لحظة تركيز قصوى، لتركيب مقاطع الكلمة المفتاح التي تخفيها الأحجية ثم يعود كل شيء كما كان. لكنني لم أتمكن من تخمين هذه الكلمة ولا استطعت أن أصعد الدرج وأدق الجرس على باب بيتنا. عوضًا عن ذلك غادرت المبنى وواصلت السير إلى الأمام من دون هدف ومن دون أن أكون قادرًا على فهم أي فكرة مهما كانت بساطتها، إلى أن وصلت إلى فيست - كرويتز أو هاليشس - تور أو تيرغارتن، لم أعد أدري بالضبط، ما أذكره فقط هو أنني وصلت في النهاية إلى أرض خلاء، هذا ما لا أزال أعرفه، وأن هناك صفوفًا من الآجر المأخوذ من أطلال البيوت رُصت بدقة، دائمًا عشرة في عشرة في عشرة، ألف قالب في كل مكعب، أو تسع مئة وتسعة وتسعون لأن القالب الألف كان موضوعًا في كل مرة فوق المكعب، وكأنه علامة على العقاب، أو لتسهيل العد. وإذا ما فكرت اليوم في هذه الساحة، لا أرى إنسانًا واحدًا بل ملايين من قوالب الآجر، إلى حد ما نظام مكتمل من قوالب الطوب يمتد للأفق، وفوقه سماء برلين في نوفمبر التي ستتساقط منها الثلوج في الحال في شكل دوامات صغيرة، مشهد صامت كالموت لبوادر الشتاء، أسأل نفسي أحيانًا إن كان أصله يعود إلى هلوسة، خصوصًا عندما أظن أنني أنصت من وسط الفراغ الذي يفوق أي تصور للنغمات الأخيرة من افتتاحية أوبرا «القناص» لكارل ماريا فون فيبر، ومن بعدها أظل أيامًا وأسابيع أسمع من دون توقف صوت حك إبرة الغراموفون. كثيرًا ما تكون هلوساتي وأحلامي - يكتب ميشائيل في هذا الموضع - في منطقة تحمل في جانب منها معالم برلين المدينة العالمية وفي جانب آخر ملامح سافوك الريفية. إنني أقف مثلًا أمام النافذة في الطابق العلوي لبيتنا، لكن نظرتي لا تتجه إلى مروج الأهوار المألوفة وأشجار الصفصاف المتمايلة باستمرار، بل

تنحدر من ارتفاع يقدّر بعدة مئات من الأمتار باتجاه مستعمرة من الحدائق الصغيرة[1] التي تمتد على مساحة واسعة وكأنها بلد كامل ويتخللها طريق ضيق مستقيم للسيارات، تسير عليه عربات تجرها الخيول خارجة من المدينة باتجاه بحيرة فانزيه. أو أن أعود وقت الغسق من رحلة طويلة. حاملًا حقيبة الظهر على كتفي وأقطع الأمتار الأخيرة باتجاه البيت الذي تقف أمامه على نحو غير مفهوم أنواع مختلفة من المركبات، سيارات ليموزين ضخمة وكراسيّ متحركة بمحركات وفرامل يد هائلة الحجم وأبواق تنبيه مطاطية على الجنب وسيارة إسعاف كئيبة بلون عاجي تجلس فيها شماستان. تحت نظراتهما أخطو مترددًا فوق العتبة، وعندها لا أعود أعرف أين أنا! تغوص الحجرة في ضوء كاب، والحوائط عارية، والأثاث اختفى. أدوات المائدة الفضية ملقاة على الأرضية الباركيه، كثير من السكاكين والملاعق والشوك الثقيلة وأدوات المائدة الخاصة بوجبات السمك لأعداد لا تحصى من البشر لكي يأكلوا اللوياثان[2]. يقوم رجلان يرتديان معطفين رماديين بنزع سجادة جدارية، من صناديق البورسيلين تبرز خرق صوفية. على الأغلب يحتاج الأمر في زمن الحلم إلى ساعة أو أكثر لكي أدرك أنني لست في بيتي في ميدلتون بل في بيت والديِّ أمي الواسع في شارع بلايبتروي، الذي كانت أروقته المتحفية تؤثر فيّ خلال زياراتي في الطفولة بقدر يكاد لا يقل عن الأثر الذي كانت تتركه في أجنحة قصر الهدوء «سانسوسي». والآن تجمَّع الكل هنا، الأقارب البرلينيون، والأصدقاء الألمان والإنجليز، وأهل زوجتي، وأولادي،

(1) هو نظام للحدائق شائع في المدن الألمانية حيث تقسم الأرض إلى مساحات صغيرة يمكن لسكان المدينة تأجيرها وزراعة خضرواتهم فيها وأيضًا تعد مساحة للاسترخاء بعيدًا عن أجواء المدينة الصاخبة. المترجم.

(2) Leviathan: هو وحش بري يظهر في الميثولوجيا اليهودية المسيحية. المترجم.

الأحياء والأموات. أعبر وسطهم من دون أن يتعرفوا عليَّ، من صالون للآخر، عبر كل القاعات والصالات والممرات المكتظة بالضيوف إلى أن أصل في الطرف القصي لدهليز منزلق غير ملحوظ إلى صالة استقبال غير مُدفأة كانت تُعرف في بيتنا في إدنبره بـ«المجد البارد». على مقعد صغير خفيض يجلس أبي هناك ويتدرب على التشيلو، بينما ترقد جدتي على مائدة عالية وقد ارتدت ملابس احتفالية. والبوز البراق لحذائها اللامع ينظر نحو السقف وقد فردت منديلًا رماديًّا من الحرير على وجهها. وكما هو معتاد دائمًا في أوقات اكتئابها التي تتكرر بانتظام لا تنبس لأيام ببنت شفة. من النافذة أرى في الأفق منطقة في شليزيا. تلمع قبة ذهبية من واد تحيطه جبال تغطيها غابات زرقاء. هذه ميسوفيتسه، مكان في بولندا، أسمع أبي يقول ذلك، وفيما ألتفت أرى النفَس الأبيض الذي حمل كلماته حتى وسط الهواء القارس البرودة.

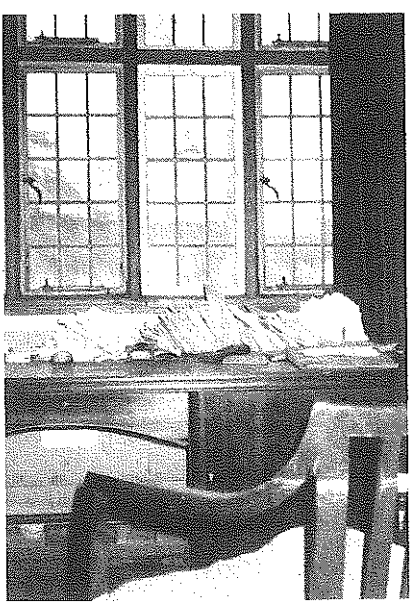

بدأ الأصيل يقترب من نهايته عندما وصلت إلى بيت ميشائيل الواقع وسط مروج الأهوار في أطراف ميدلتون. كنت ممتنًا لأنني أستطيع أن أستريح في الحديقة الهادئة بعد مشقة ممرات التيه في المرج التي بدت لي الآن وأنا بصدد الحديث عنها تأخذ لا إراديًّا طابع قصة مختلقة فحسب. أخرج ميشائيل إبريقًا من الشاي، كانت تتصاعد منه بين الفينة والأخرى سحابة صغيرة من البخار، وكأنه لعبة محرك بخاري. بخلاف ذلك ساد السكون التام، ولم يُسمع حتى حفيف الأوراق الرمادية للصفصافات الموجودة في أرض المرج على الناحية الأخرى من الحديقة. تحادثنا عن فكرة شهر أغسطس الفارغ والصامت. لأسابيع لم يكن ثمَّت طائر واحد يمكنك رؤيته. وكأن كل شيء قد فُرغ على نحو ما، يقول ميشائيل. كل شيء على وشك الاختفاء، ما عدا الأعشاب الضارة فهي تستمر في النمو، فلبلاب الحقول يخنق الشجيرات والجذور الصفراء لنبتة بنات النار تواصل زحفها تحت الأرض وأعواد الأرقطيون تفوق في طولها رأس الإنسان العادي، وينتشر العفن البني والقراديات، بل حتى الورق الذي يكتب عليه المرء بعناء كلمات وجملًا، له ملمس يُشعرك بأنه مغطى بالفطر. لأيام وأسابيع يحطم المرء رأسه من دون جدوى، ولا يدري إن سُئل، إن كان يواصل الكتابة من باب العادة أو اشتهاء للتقدير والاعتراف أو لأنه لم يتعلم شيئًا آخر، تعجبًا من الحياة أو حبًا في الحقيقة، أو بسبب اليأس أو الغضب، وكذلك يصعب بالقدر نفسه القول إن كانت الكتابة تزيد من ذكاء المرء أو من جنونه. ربما يفتقد كل شخص منا للنظرة الأعم تحديدًا بالقدر الذي يواصل فيه بناء منجزه الخاص، وربما نميل لهذا السبب إلى الخلط بين التعقد المتنامي لتركيباتنا الذهنية وتطور ما في معرفتنا، بينما ندرك في الحال أننا لن نستطيع أن نفهم أبدًا الأمور الغامضة التي تحدد في الحقيقة مسارنا الحياتي. وإذا ما رافق المرء ظل

هولدرلين طوال حياته، لأنه ولد بعد يومين منذ ذكرى مولده؟ فهل المرء على استعداد لأن يخلع العقل مثل معطف قديم ويكتب رسائل وقصائد يذيلها بخادمكم المطيع سكاردانيللي[1] ويبعد عنه الضيوف المزعجين الذين يأتون للقائه بمخاطبتهم بسموكم وجلالتكم؟ هل يبدأ المرء في سن الخامسة عشرة والسادسة عشرة في ترجمة مراثٍ، لأنه طُرد من موطنه؟ هل يُحتمل أنه كان من الضروري السكن في هذا البيت لأن الرقم 1770، عام ميلاد هولدرلين كان مكتوبًا على مضخة مياه حديدية في الحديقة؟

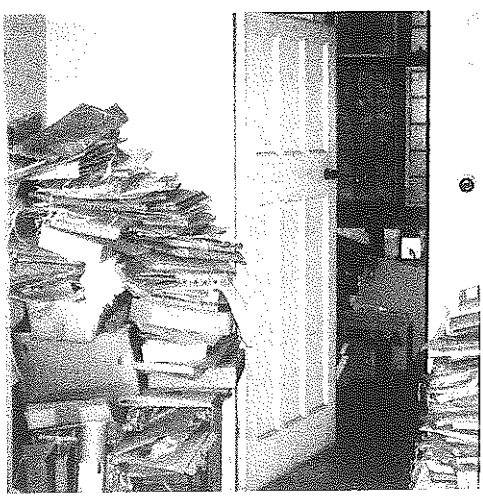

لأنه عندما سمعت أن إحدى الجزر القريبة تسمى باطموس، رغبت جدًّا في أن أسكن هناك وأن أصل إلى الكهف المظلم. أو لم يهد

(1) تجنب الشاعر الألماني فريدريش هولدرلين (1770 – 1843) في العقد الأخير من حياته التواصل مع الناس ولأن زواراً كثيرين كانوا يرغبون في المجيء لزيارته في البرج الشهير الذي كان يسكنه في مدينته توبينغن فقد كان يصطنع الجنون. ومنذ عام 1837 بدأ باستخدام أسماء مستعارة لقصائده مثل سكاردانيللي. المترجم.

هولدرلين نشيد باطموس إلى دوق هومبورغ. أو لم يكن هومبورغ هو اسم عائلة أمه قبل الزواج؟ كم من فترات زمنية تتجاوزها التآلفات الانتقائية والمراسلات؟ وكيف يتأتى أن يرى المرء نفسه في شخص آخر، وإن لم يرَ ذاته، يرى مع ذلك سلفه؟ فكون أني عبرت صالة الجمارك الإنجليزية للمرة الأولى بعد ميشائيل بثلاثة وثلاثين عامًا، وأنني أفكر الآن في التخلي عن وظيفتي كمعلم، كما فعل هو، وأنني أعذب نفسي بالكتابة في نورفوك وهو في سافوك، وأن كلينا يتشكك في جدوى عمله وكلينا يعاني حساسية من الكحول، كل هذه الأمور ليست مثيرة للدهشة. لكن لماذا تولد لدي منذ زيارتي الأولى لميشائيل الانطباع وكأنني أعيش في منزله أو أنني قد عشت فيه ذات مرة، مثله هو بالضبط، ولم أتمكن من إيجاد تفسير لذلك. ما أعرفه فقط أنني وقفت مأخوذًا في غرفة الأتيليه العالية التي يطل شباكها على الناحية الجنوبية أمام المكتب الثقيل المصنوع من الماهوغني وكان من أثاث شقة برلين. وكما قال لي ميشائيل فقد توقف عن استخدامه للعمل بسبب البرودة التي تسود في الأتيليه حتى في عز الصيف. وعندما انخرطنا في حديث عن صعوبة تدفئة البيوت القديمة، بدا لي أكثر فأكثر كأنني أنا الذي توقف عن العمل في هذا المكان البارد، وليس هو، وكأن حافظة النظارة والمراسلات وأدوات الكتابة القابعة منذ أشهر في الضوء الشمالي اللطيف من دون أن تمس، كانت ذات مرة حافظة نظارتي ومراسلاتي وأدوات كتابتي. السلال المصنوعة من الصفصاف التي يوجد بها فروع أشجار صغيرة كحطب للمدفأة، والأحجار البيضاء والرمادية الفاتحة المجلية، والأصداف والأشياء الأخرى التي يعثر عليها المرء على شاطئ البحر في تجمعها الصامت على الصوان أمام الحائط ذي اللون الأزرق الباهت، والكرتونات والمظاريف المرصوصة في ركن عند الباب المؤدي إلى مخزن المؤن

في انتظار إعادة استخدامها، كل هذه الأشياء بدت لي كأنها طبيعة صامتة من صنع يدي التي تفضل الحفاظ على ما لا قيمة له. عند النظر داخل مخزن المؤن الذي كان يجذبني على نحو خاص، حيث ترقد بعض برطمانات الفواكه المحفوظة مهملة على الأرفف الخالية في معظمها، وبعض تفاحات صغيرة جدًّا بلون أحمر ذهبي كانت تومض على رف أمام النافذة التي أظلمتها شجرة طقسوس، أجل لقد كانت تشع مثل التفاحة في الأمثولة التوراتية، تملكني - ولا بد من الإقرار بذلك - تصوُّرٌ مُنافٍ تمامًا لأي عقل بأن هذه الأشياء، الحطب والكرتونات والفواكه المحفوظة وقواقع البحر والهدير الذي بداخلها، كلها ظلت باقية هنا منذ زمن بعيد وأن ميشائيل يقودني في جولة في بيت أقمت فيه ذات مرة منذ زمن بعيد. لكن هذه الأفكار عادة ما تتلاشى بالسرعة ذاتها التي خطرت لي بها. وعلى أي حال فلم أواصل متابعتها في السنوات التي مضت مذاك الوقت، ربما لأنه لا يمكن للمرء أن يستمر في متابعتها من دون أن يُجن. لكن الأمر الأكثر إدهاشًا لي بعد كل هذا هو أنني قد وقعت منذ فترة قصيرة أثناء إعادة قراءة مذكرات ميشائيل على اسم ستانلي كيري الذي كنت أعرفه خلال فترة إقامتي في مانشستر والذي كدت أنساه تمامًا ولسببٍ ما لم أنتبه له إطلاقًا خلال قراءتي الأولى لكتاب ميشائيل. يكتب ميشائيل في الموضع ذي الصلة عن أنه في إبريل عام 1944، أي بعد تسعة أشهر من انضمامه إلى فرقة ويست كنت الملكية، قد نُقل إلى كتيبة استقرت في مصنع مهجور لغزل القطن في بلاكبيرن الواقعة بالقرب من مانشستر. وأن زميلًا قد دعاه بعد وصوله إلى بلاكبيرن لقضاء عطلة «اثنين الفصح» في منزله في بيرنلي، وهي مدينة أوقظت لديه بأحجارها الأسفلتية السوداء اللامعة أثناء هطول المطر ومصانع نسيجها المتوقفة عن العمل وأسطح بيوتها الحادة التي تشبه أسنان التنين في مواجهة

السماء انطباعًا بالبؤس أكثر من أي شيء آخر رآه في إنجلترا. الغريب أيضًا أنه عندما أتيت بعد 22 عامًا في خريف 1966 من سويسرا إلى مانشستر، كانت بيرنلي هي هدف أول رحلة قمت بها في عيد كل الأرواح[1] مع شخص كان سيشغل قريبًا وظيفة مدرس ثانوي، أو بمعنى أصح كنا في منطقة المستنقعات العليا فوق المدينة. وما زلت أرى أمام عيني بدقة تامة، مشهد هبوطنا عائدين من المستنقع إلى مانشستر بسيارة مدرس الثانوي النقل الصغيرة الحمراء، مرورًا ببيرنلي وبلاكبيرن أثناء حلول الغسق في الساعة الرابعة بعد الظهر. ولم يقتصر الأمر على أن رحلتي الأولى خارج مانشستر كانت مثل ميشائيل في عام 1944 إلى بيرنلي، بل كان من أول الأشخاص الذين تعرفت إليهم في مانشستر ستانلي كيري الذي ذهب معه ميشائيل آنذاك من بلاكبيرن إلى بيرنلي. عندما بدأت وظيفتي كمدرس في جامعة مانشستر، كان ستانلي كيري بخلاف الأستاذين المشرفين على قسم اللغة الألمانية هو المحاضر الأقدم. وكان معروفًا بغرابة أطواره التي تبدت في تجنبه لزملائه وفي أنه كان يخصص الجزء الأساسي من وقت التدريس والفراغ، لا لتعميق معارفه بتخصصه في اللغة الألمانية، بل في تعلم اليابانية التي كان يحقق تقدمًا مذهلًا في تعلمها. وعندما وصلت إلى مانشستر كان مشغولًا بالتدرب على فن الخط الياباني. وكان يقضي ساعات وساعات عاكفًا على أوراق كبيرة يرسم عليها بالريشة وبتركيز كبير الحرف تلو الآخر. إنني أتذكر الآن أيضًا كيف صرح لي ذات مرة أن الصعوبة الأساسية في الكتابة تتمثل في التفكير في الكلمة المراد كتابتها فقط بسن القلم وحده وأن ينسى المرء تمامًا ما يريد وصفه فيما عداها. وأتذكر أيضًا أن ستانلي

---

(1) عيد كاثوليكي في الثاني من نوفمبر، يتلو مباشرة عيد كل القديسين في الأول من نوفمبر. المترجم.

قد أدلى بهذا التصريح الذي يصلح للكتّاب مثلما يصلح لمتعلمي الخط، أثناء وقوفنا في الحديقة اليابانية خلف فيلّته في ويثنشو. كان المساء يقترب. وبدأت الظلمة تهبط فوق الدكك التي تغطيها الطحالب وفوق الحجارة، لكن مع آخر أشعة للشمس تسللت من بين أشجار القيقب، كان يمكن رؤية آثار جرافة تمشيط الحديقة بين الحصى تحت أقدامنا. كان ستانلي يرتدي كما هي عادته دائمًا بذلته الرمادية المجعدة بعض الشيء وحذاءً بنيًّا من جلد الغزال، وكالعادة كان يميل أثناء حديثه بجسده كله إلى الأمام من باب الاهتمام وأيضًا من باب التهذب اللازم. يُذَكِّر الوضع الذي كان يتخذه بإنسان يسير في مواجهة الريح أو من يمارس رياضة التزلج الطائر، وهو على أهبة الاستعداد لمغادرة منصة القفز. وفعلًا لم يكن من النادر أثناء الحديث مع ستانلي أن يتولد لدى المرء انطباع وكأنه يحلق في اتجاه الهبوط. وعندما كان ينصت، كان يضع رأسه جانبًا على كتفه وهو يبتسم في تعبير عن الغبطة. لكن عندما كان يتكلم هو نفسه، كان الأمر يبدو كأنه يصارع يائسًا لالتقاط أنفاسه. ولم يندر أن يتجهم وجهه. ومن فرط الجهد المبذول تظهر قطرات العرق على جبينه، وتخرج الكلمات منه في دفعات وعلى نحو متسارع، وهو ما كشف عن تعقيدات نفسية هائلة داخله، وجعلنا ندرك آنذاك أن قلبه سيتوقف عن الخفقان قبل أوانه بكثير. وعندما أتذكر ستانلي كيري الآن، لا أصدق أن مسار حياتي أنا وميشائيل قد تقاطع مع هذا الإنسان الخجول، وأننا عندما قابل كل منا إياه، ميشائيل عام 1944 وأنا عام 1966، كان كلانا في الثانية والعشرين من العمر. وكلما قلت لنفسي إن مثل هذه المصادفات تتكرر بوتيرة تفوق تصورنا – لأننا جميعًا، واحدًا تلو الآخر، نسير انطلاقًا من مَنْشئنا وآمالنا في الطرق نفسها المرسومة لنا – تضاءلت قدرة عقلي على مواجهة أشباح التكرار التي تداهمني كثيرًا. وما أكاد أجلس وسط جماعة،

حتى أشعر كأنني كنت شاهدًا من قبل على تكرار الآراء نفسها من الأشخاص أنفسهم بالطريقة نفسها وبالكلمات والتعابير والإيماءات ذاتها. الإحساس الجسدي الأقرب لهذه الحالة الغريبة التي تدوم أحيانًا لوقت طويل، هو هذا الدوار الذي ينجم عن فقدان الكثير من الدم ويمكن أن يتطور إلى شلل لحظي للقدرة على التفكير ولأعضاء الكلام والأطراف. ربما يتعلق الأمر في هذه الظاهرة التي لا يوجد لها تفسير ليومنا هذا بشيء أشبه باستباق النهاية، أو بالقفز في الفراغ، أو بنوع من فقدان الصواب، الذي يشبه جهاز غراموفون يكرر النغمة نفسها ليس بسبب عطب في الجهاز نفسه، بقدر ما هو بسبب خلل غير قابل للإصلاح في البرنامج الذي غُذيّ الجهاز به. وسيان أكان الأمر بسبب الإجهاد الشديد أم بسبب آخر، فقد ظننت في مساء هذا اليوم من أغسطس في بيت ميشائيل ولعدة مرات أن الأرض تميد بي. وعندما حان الوقت للوداع، دخلت آنه التي استراحت لبضع ساعات إلى الغرفة وجلست معنا. لا أستطيع أن أتذكر إن كانت هي من فتح باب الحديث عن أن الناس في يومنا هذا لم يعودوا يرتدون ملابس الحداد، ولا حتى إسورة سوداء أو زرًّا أسود في طية صدر السترة. لكنها على أي حال حكت في هذا السياق عن شخص يدعى السيد سكوريل (سنجاب) وهو من سكان ميدلتون والآن في سن التقاعد تقريبًا، وقالت إنه بقدر ما تعود بها الذاكرة لم يرَه أحد يرتدي شيئًا آخر سوى ملابس الحداد، حتى في شبابه وقبل أن يتوظف لدى متعهد الدفن في ويستليتون. وبخلاف ما يوحي به اسمه فإن السيد سكوريل لم يكن سريعًا ولا خفيف الحركة، بل كان عملاقًا عبوسًا وثقيل الحركة، وعلى الأغلب عيّنه متعهد الدفن كحامل نعش بسبب قوته البدنية الهائلة، لا بسبب هوسه بالحداد. ويزعمون في المنطقة، حسبما قالت آنه، أن سكوريل لا يمتلك أي ذاكرة، وأنه لا يستطيع أن يتذكر شيئًا

وقع له في طفولته، أو العام الماضي أو الشهر أو الأسبوع الماضيين. ولهذا فإن كيفية حزنه على الأموات تظل لغزًا مستغلقًا، لم يمكن لأحد حله. الغريب أيضًا أن سكوريل، ومن دون أن يلقي بالًا لذاكرته المعدومة، كان لديه منذ طفولته رغبة في أن يصبح ممثلًا. وظلَّ يلح بأمنيته هذه على من كانوا يشتغلون بالمسرح في ميدلتون ونواحيها، إلى أن أعطوه أخيرًا دورًا في مسرحية «الملك لير» في عرض في الهواء الطلق في مرج ويستليتون. كان عليه أن يظهر فقط في المشهد السابع من الفصل الرابع في دور الرجل النبيل الذي يتابع الأحداث صامتًا وفي النهاية يقول جملة أو جملتين. لعام كامل، قالت آنه، ظل سكوريل يتعلم هاتين الجملتين وفي الليلة الحاسمة نطق بهما بشكل مؤثر حقًّا. وصار إلى يومنا هذا يكرر هذه الجملة أو تلك في مناسبة أو غير مناسبة. كما شهدتُ هذا ذات مرة بنفسي، عندما رد على تحيتي الصباحية بصوت عالٍ عبر الشارع قائلًا:

يقولون إن ابنه المنفي في ألمانيا مع إيرل كنت.

وبعدما انتهت آنه من قصتها، رجوتها أن تطلب لي تاكسي. وعندما عادت بعد الاتصال الهاتفي، قالت إنها تذكرت ثانية وهي تضع السماعة الحلم الذي حلمت به قبيل استيقاظها من قيلولتها. قالت إنها كانت مع ميشائيل في نوريتش، ولأنه كان عليه أن يبقى هناك بسبب بعض الالتزامات، طلبتُ أنا لها تاكسي. وعندما وصل، كان عبارة عن سيارة ليموزين ضخمة وبراقة. وفتحتُ لها باب السيارة ودخلتْ لتجلس في المقعد الخلفي. تحركت السيارة الليموزين بلا ضجيج، وقبل أن تستند بظهرها إلى الوراء، كانت قد غادرت المدينة وغاصت في أعماق غابة ضخمة تتخللها أشعة ضوئية وامضة وتمتد حتى باب البيت في ميدلتون. وبإيقاع لا يمكن القول إن كان سريعًا أم بطيئًا، واصلت السيارة سيرها، لكن ليس في شارع ولكن فوق قضبان ناعمة رائعة مع بعض الانحناءات الخفيفة أحيانًا. كانت

الأجواء التي تتحرك خلالها العربة أكثف من الهواء وتكاد تكون أقرب إلى تيار مائي هادئ. رأيتُ الغابة حتى في أصغر التفصيلات التي يصعب وصفها بوضوح تام، وهي تمرق أمامي في الخارج: الزهورات الدقيقة الحجم وسط طبقة الطحالب، وأوراق الحشائش الرقيقة كالشعر، ونبتات السرخس المرتعشة وجذوع الأشجار الرمادية والبنية الناعمة والخشنة السامقة، التي اختفت على ارتفاع عدة أمتار وسط أوراق الأجمات التي نمت بينها. وفي الأعلى امتد بحر من نباتات الميموزا واللوبيليا، وفيه أيضًا تدلت من الطابق التالي لهذه الغابة الغزيرةِ النموِّ سُحبٌ من مئات النباتات المتسلقة بعضها وردي اللون والبعض الآخر أبيض من فوق أغصان الشجر المحملة بزهور الأوركيديا والبروميليا التي تشبه عوارض السفن الشراعية. وفوقها على ارتفاع لا تكاد تدركه الأبصار، تمايلت قمم أشجار النخيل، بفروعها المروحية الشبيهة بالريش بلون أخضر داكن، أسفله على ما يبدو طبقة من لون ذهبي أو نحاسي، على غرار اللون الذي رسم به ليوناردو دافينشي قمم الأشجار في لوحاته. كما في لوحة «البشارة» مثلًا، أو في بورتريه «جينيفرا دي بنشي». وبقدر ما كان ذلك جميلًا إلى حد يفوق الخيال، قالت آنه، فلم يبقَ في ذهني منه سوى تصور غير واضح، ولم أعد قادرة على وصف إحساس التنقل بالسيارة الليموزين التي كانت على ما يبدو دون سائق بشكل صحيح. في الحقيقة لم تكن السيارة تسير بل تتهادى، إحساس لم أشعر به منذ سنوات الطفولة عندما استطعت أن أخطو لبضع بوصات فوق الأرض. كنا قد خرجنا أثناء حديث آنه معًا إلى الحديقة التي أدركها الليل. أثناء انتظار التاكسي وقفنا إلى جانب مضخة هولدرلين، وفي الضوء الخافت الساقط من غرفة الجلوس على فتحة البئر المسوَّرة، رأيت بفزع اقشعرَّ له بدني خنفساء غواصة تعوم على سطح الماء من ضفة مظلمة إلى أخرى.

8

بعد يوم من زيارتي لميدلتون، تحدثت على البار في فندق كراون Crown Hotel في سافوك مع هولندي يدعى كورنيليس دي يونغ، وقد جاء الآن، بعد زيارات عديدة إلى سافوك، بنيّة شراء واحدة من الضِّياع التي تزيد في مساحتها على ألف هيكتار، والتي لا يندر أن تعرض وكالات العقارات مثلها هنا. ترعرع دي يونغ، كما حكى لي، في إحدى مزارع قصب السكر الضخمة بالقرب من سورابايا في إندونيسيا، وبعد دراسته في أكاديمية الزراعة في فاغينينغن واصل العمل بالتقاليد العائلية ولكن بشكل محدود كمُزراع لبنجر السكر في ديفنتر بهولندا. ويرجع تخطيطه لنقل مصالحه وأشغاله الآن إلى إنجلترا لأسباب اقتصادية في المقام الأول. فالضِّياع الكبيرة المترابطة الأجزاء كما هي معروضة للبيع باستمرار في إيست أنغليا، لا تُطرح في الأسواق الهولندية، والبيوت الإقطاعية التي يحصل عليها المرء عمليا مجانًا مع هذه الأراضي، غير موجودة في هولندا. ووفقًا لـ دي يونغ فإن الهولنديين استثمروا أموالهم في عصر الازدهار بشكل أساسي في المدن، بينما استثمرها الإنجليز في الريف. واصلنا حديثنا في هذا البار حتى موعد الإغلاق عن صعود وأفول كلتا الأُمَّتين، وعن الصلات الوثيقة على نحو غريب بين تاريخ السكر وتاريخ الفن التي امتدت حتى القرن العشرين، فجزء معتبر من المكاسب الهائلة التي حققتها زراعة وتجارة قصب السكر المملوكة لعدد قليل من العائلات ظل لفترة طويلة، بسبب الإمكانات المحدودة

لاستعراض الثروة المتراكمة، يستخدم في تشييد وتجهيز وصيانة مقرّات الإقامة الريفية والقصور المدنية الفخمة. وكان دي يونغ هو من نبهني إلى أن الكثير من المتاحف المهمة مثل «ماوريتسهاوس» في لاهاي أو متحف «تيت غاليري» في لندن تعود في تأسيسها إلى أموال وقف من الأسر المالكة لصناعة السكر أو ترتبط بشكل ما بتجارة السكر. وقال دي يونغ إن رأس المال المتراكم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عبر أشكال عديدة من اقتصاد العبودية، لا يزال متداولًا ويراكم فوائد من فوائده، ويتكاثر ويتضاعف، ويولد بطاقة ذاتية مزيدًا من الازدهار. وإحدى الوسائل المجربة لشرعنة مثل هذه الأموال تمثلت منذ زمن بعيد في دعم الفنون. شراء وعرض المقتنيات الفنية، وكما نلاحظ اليوم، هذه المبالغة المستمرة في أسعار الأعمال الفنية في المزادات الكبرى التي تصل لحد السخافة. خلال أعوام قليلة سيتجاوز سعر لوحة مرسومة لا تزيد مساحتها على نصف متر مربع حاجز المئة المليون. أحيانًا، قال دي يونغ، يتراءى لي وكأن كل الأعمال الفنية مغطاة بطبقة من السكر أو أنها كلها من السكر، مثل نموذج معركة «ازترغوم» الذي صنعه حلواني البلاط الفيناوي في شكل كعكة والتهمتها الإمبراطورة ماريا تيريزيا في إحدى نوبات اكتئابها الفظيعة، فلم تُبقِ منها شيئًا.

في الصباح بعد أحاديث السكر التي امتدت من بين أشياء أخرى لتصل إلى أساليب زراعة وإنتاج السكر في جنوب شرق آسيا، ركبت مع دي يونغ إلى وودبريدج، لأن الأراضي الزراعية التي وضعها نصب عينيه تمتد من طرف هذه المدينة الصغيرة باتجاه الغرب وتحاذي في جانبها الشمالي منتزهَ بولج المهجور، الذي كنت أنوي بأي حال زيارته. فهناك في بولج تحديدًا وقبل نحو مئتي عام ترعرع الكاتب إدوارد فيتزجيرالد، الذي سيجري الحديث عنه في السطور التالية، ودُفن فيها أيضًا في صيف عام 1883. بعد أن ودَّعت كورنيليس دي يونغ بحرارة بدت لي متبادلة من قبله، ذهبت من الطريق السريع A12 عبر الحقول إلى بردفيلد، حيث وُلد فيتزجيرالد في 31 مارس 1809 في المبنى المسمى بالبيت الأبيض الذي لم يتبقَّ منه حاليًا سوى صوبة الحمضيات. لقد دُمر الجزء الأساسي من المبنى، الذي شيد في منتصف القرن الثامن عشر ليتسع لعائلة كبيرة العدد وعدد كبير أيضًا من الخدم، في مايو 1944 وسُوِّي بالأرض من قذيفة صاروخية كانت على الأغلب تستهدف لندن، وقد خرجت فجأة - ككثير من أسلحة الانتقام الألمانية التي كان الإنجليز يسمونها doodle bugs أو الخنافس - عن مسارها الجوي وأحدثت في بردفيلد النائية ما يمكن أن يسمى ضررًا عديم الفائدة. لم يَبقَ شيءٌ أيضًا من البيت الإقطاعي «بولج هول» الذي سكنه آل فيتزجيرالد في عام 1825. فبعد أن احترق في عام 1926 ظلت الواجهات المسخمة قائمة وسط المنتزه. ولم تُهدم الأطلال الباقية كليًّا إلا بعد الحرب، غالبًا من أجل الحصول على مواد للبناء. أما المنتزه نفسه فمهمل في الوقت الحاليّ وقد بهت لون النجيل منذ سنوات. وأشجار البلوط تموت تدريجيًّا فرعًا تلو الآخر وطرق السيارات التي أُصلحت مؤقتًا بكسور من الطوب الآجر مليئة بالحفر التي تجمعت فيها مياه سوداء. والغابة الصغيرة التي تحيط بكنيسة بولج

الصغيرة، التي لم يُرمّمها آل فيتزجيرالد بحرص، مهملة أيضًا. أخشاب متعفنة وحديد صدئ ونفايات أخرى مكومة في كل مكان. غاصت القبور لنصفها في التربة وغشيتها أشجار القيقب التي يزداد تكاثفها أكثر فأكثر. تلقائيًّا يفكر المرء أنه لا عجب أن فيتزجيرالد، الذي كان يحتقر الجنازات مثلها مثل أي شكل آخر من أشكال الاحتفالات، لم يرغب في أن يُدفن في هذا المكان المظلم. وأمَرَ خِصِّيصى أن ينثر رماده فوق سطح البحر اللامع. لكن أن يُدفن رغم ذلك هنا بجوار الضريح القبيح لعائلته، فهو من قبيل السخرية الشريرة التي لا يستطيع المرء أن يفعل شيئًا حيالها، ولو أوصى بغير ذلك. كانت عائلة فيتزجيرالد من أصول أنجلو - نورماندية واستقرت لأكثر من سِتّ مئة عام في أيرلندا، إلى أن قرر والدا إدوارد الاستقرار في مقاطعة سافوك.

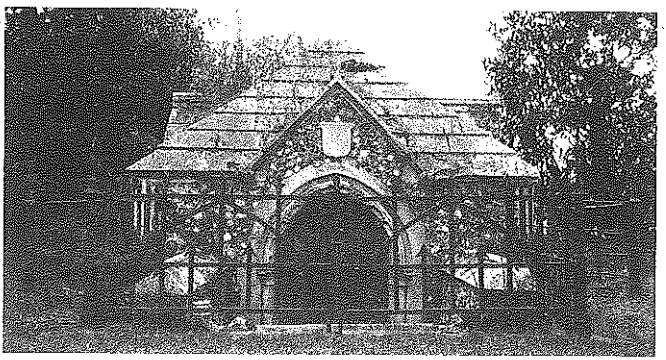

تعد ثروة العائلة، التي جُمعت على مدى أجيال عبر النزاعات مع إقطاعيين آخرين ومن القمع الوحشي للسكان المحليين وعبر سياسة زواج لا تقل قسوة، أسطورية حتى في هذا العصر الذي فاق فيه ثراء الطبقات العليا في المجتمع كل الحدود المعتادة. وكانت مكونة - بغض النظر عن الممتلكات في إنجلترا - في المقام الأول من أراض أيرلندية لا يمكن حصرها، وكل ما على هذه الأراضي من ممتلكات منقولة أو ثابتة

وبالإضافة إلى آلاف من الفلاحين الذين يعتبرون من الناحية العملية مثل الأقنان. كانت ماري فرانسيس فيتزجيرالد، والدة إدوارد فيتزجيرالد هي الوريثة الوحيدة لهذه الثروة ومن دون شك أغنى امرأة في المملكة. تخلى ابن خالتها جون بارسل الذي تزوجته حفاظًا على شعار العائلة stesso sangue, stesso sorte أي: الدم نفسه، النوع نفسه، عن لقبه العائلي لصالح لقب زوجته اعترافًا بتفوق مكانتها. في المقابل كان من البدهي ألا تسمح ماري فرانسيس فيتزجيرالد بأن يقلص زواجها من جون بارسل بأي شكل من حرية تصرفها في ممتلكاتها. لوحات البورتريه التي وصلت لنا تصورها على أنها سيدة قوية بأكتاف مائلة إلى الوراء وصدر مهيب، وكان كثيرون من معاصريها يرون أنها تشبه كثيرًا في هيئتها العامة الدوق ويلنغتون. وكما كان متوقعًا اضمحل في ظلها دور ابن الخالة الذي تزوجته ليتحول إلى كائن عديم الأهمية إن لم نقل محتقر، خصوصًا أن كل محاولاته في الحفاظ على استقلال مركزه كمستثمر في مجال التعدين ومن خلال مشاريع مضاربات أخرى عديدة في هذه الصناعة المتطورة بسرعة غير عادية، باءت بفشل وراء الآخر وأدى ذلك في نهاية المطاف إلى أنه قد أفنى ثروته غير القليلة وكذلك الأموال التي منحتها له زوجته عن آخرها. وبعد قضية إشهار إفلاس أمام محكمة في لندن، لم تتبقَّ له سوى السمعة بأنه مفلس لا رجاء منه أبقت عليه زوجته من باب الرحمة. ووفقًا لهذه الظروف بقي هو أيضًا معظم الوقت في مقر العائلة في سافوك، وانشغل بصيد طيور السمان والشنقب وأشياء مشابهة، في حين أقامت ماري فرنسيس في قصرها اللندني. أحيانًا كانت تأتي إلى بردفيلد بعربة لونها أصفر كناري تجرُّها أربعة أحصنة سوداء، وعربة خاصة بحقائبها ويتبعها جمع غفير من الخدم والوصيفات، من أجل أن ترى أبناءها ومن أجل أن تحافظ من خلال فترة تواجدها القصيرة على حقها في التسلط حتى في

هذا المجال البعيد جدًّا عنها. ودائمًا عندما تصل أو ترحل كان إدوارد وإخوته يقفون كالمتحجرين خلف نافذة غرفة الأطفال في الطابق العلوي أو يختبئون بين الشجيرات عند وصولها خائفين من سطوتها إلى درجة تجعلهم لا يجرؤون على أن يهرعوا إليها أو يلوحوا بأيديهم لها مودعين. يتذكر فيتزجيرالد وهو في الستين من عمره أن أمه كانت خلال زياراتها إلى بردفيلد تصعد أحيانًا إلى غرفة الأطفال وتذرع الغرفة جيئة وذهابًا لفترة ما مثل عملاقة غريبة ملفوفة في فساتينها ذات الحفيف مع سحابة من العطر وتعطي هذه الملاحظة أو تلك، ثم سرعان ما تهبط الدرج الحاد الانحدار وتختفي، تاركة إيانا نحن الأطفال في وضع غير مريح.

ولأن الأب كان يتيه أكثر فأكثر في عالمه الخاص، كانت تربية الأطفال متروكة للمربية والمعلم المنزلي الذيْن كانت غرفتهما أيضًا في الطابق الأعلى وكانا بالطبع يميلان إلى أن ينفثوا على الأولاد غضبهما المكبوت بسبب الإهانات غير القليلة التي يتعرضان لها من قبل ربيّ عملهما. وكان الجدول اليومي للأطفال يتحدد على أساس من الخوف من مثل هذه الإجراءات العقابية والإذلالات المرتبطة بها وواجبات الكتابة والحساب التي من ضمنها وأبشعها على الأغلب كتابة تقرير أسبوعي إلى السيدة ماما، وتناول الوجبات التعيس مع المعلم والمربية. وبخلاف هذا النظام الصارم ساد ملل لا حدود له، لأنهم كانوا يفتقدون أي تواصل مع أطفال في عمرهم ولم يعرفوا ماذا يفعلون بوقت فراغهم، سوى أن يجلسوا ساعات طويلة شاردين على ألواح الأرضية الخشبية المطلية بالأزرق أو أن ينظروا من النافذة إلى المنتزه الذي يكاد لا يظهر فيه كائن حي. أقصى شيء أن يدفع أحد البستانيين بعربة الحديقة فوق رقعة النجيل أو أن يعود الأب مع حارس الغابة من الصيد. فقط في الأيام القليلة النادرة التي كان الجو يصفو فيها تمامًا، هكذا يتذكر فيتزجيرالد لاحقًا، كان يمكنني أحيانًا النظر إلى ما هو أبعد من بردفيلد والتطلع بصورة غائمة من فوق قمم الأشجار

إلى أشرعة المراكب البيضاء التي تعبر من أمام الساحل الواقع على بعد 10 أميال، وكنت أحلم في غير وضوح بالتحرر من قفص الأطفال. عندما عاد من الدراسة في كامبريدج كان رعب فيتزجيرالد من بيت عائلته المفروش بالسجاجيد الثقيلة والمليء بالأثاث المذهب والأعمال الفنية وتذكارات الرحلات هائلًا، إلى درجة أنه رفض أن يدخله ثانية. وعوضًا عن أن يسكن هناك حسبما تمليه تقاليد طبقته، انتقل إلى كوخ صغير به غرفتان في طرف المنتزه وخلال السنوات الخمس عشرة التالية، من 1837 إلى 1853 عاش حياة العزوبية التي كشفت الكثير عن عاداته الغريبة فيما بعد. وقد انشغل معظم الوقت في صومعته هذه بالقراءات المسهبة باللغات المختلفة، وبكتابة عدد لا يحصى من الرسائل وبتدوينات خاصة بمعجم للأماكن العامة، مع نقل كلمات وعبارات لقاموس اصطلاحي للغة الملاحة البحرية ولحياة البحر وكذلك صنع دفاتر القصاصات scrap – books من أي نوع يمكن تصوره. وكان يحبذ على وجه الخصوص التعمق في مراسلات من عصور خلت، مثلًا كرسائل مدام دي سيفنيه[1] de Sévigné، التي كان يرى إلى حد كبير أن وجودها حقيقي أكثر من أصدقائه الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة. كان يقرأ ما كتبته لمرات عديدة ويقتبس منها في رسائله، كما طوَّر شيئًا فشيئًا ملاحظاته التي كتبها عنها ووضع خططًا لقاموس «سيفنيه»، لا يكتفي فيه فقط بالتعليق على كل من راسلوها وكل من وردت أسماؤهم في المراسلات، بل كان من المفترض أيضًا أن يكون بمثابة مفتاح لتاريخ تطور فنها الكتابي. لم يكمل فيتزجيرالد مشروع «سيفنيه» مثلما لم يكمل مشروعات أدبية أخرى، وربما لم يكن يرغب أيضًا في إكمالها. ولم ترَ هذه المادة الضخمة النور إلا في عام 1914، عندما

(1) ماري دي رابوتان شانتال ماركيزة سيفنيه، أو مدام دي سيفنيه (1626 – 1696) هي كاتبة فرنسية تعد من أعلام الأدب الفرنسي الكلاسيكي، اشتهرت من خلال أدب المراسلات. المترجم.

اقترب العصر من نهايته، وأشرفت إحدى حفيدات إخوته على تحرير هذه الأوراق التي كانت محفوظة في علبتين من الورق المقوى في «ترينتي كوليج» وأصدرتها في مجلدين، يصعب العثور عليهما حاليًا. أما العمل الوحيد الذي أنهاه فيتزجيرالد خلال حياته ونشره كان ترجمته الرائعة لرباعيات الخيام، حيث اكتشف في عمر الخيام الذي تفصله عنه ثمانية قرون أليفه المُنتقى. يصف فيتزجيرالد الساعات اللانهائية التي عكف فيها على ترجمة القصيدة ذات المئتين وأربعة وعشرين بيتًا، على أنها محادثة مع الشاعر الميت، وأنه حاول أن يوصل لنا رسالة منه. الأبيات الإنجليزية التي ألفها لهذا الغرض تختلق بجمالها الذي يبدو بعيدًا عن المقاصد حجبًا لهوية ناظمها يدحض أي ادعاء له بكتابتها، وتشير كلمة بكلمة إلى نقطة غير مرئية يُتاح فيها لشرق القرون الوسطى والغرب الآفل أن يتلاقيا بشكل مختلف على خلاف المسار البائس للتاريخ.

For in and out, above, about, below

'Tis nothing but a Magic Shadow – Show,

Play'd in a Box whose Candle is the Sun,

Round which the Phantom Figures come and go.

في عام 1859 نُشرت الرباعيات وفي العام نفسه أيضًا تُوفي وليام براون، الذي لم يعد ربما يتمتع بعد بمكانة خاصة عند فيتزجيرالد، متأثرًا بإصابته بجروح بليغة في حادث صيد. تقاطعت طرق كليهما في البداية خلال رحلة تجوال في ويلز، عندما كان فيتزجيرالد في الثالثة والعشرين وأتم براون لتوه السادسة عشرة. بعد موت براون مباشرة استدعى فيتزجيرالد الذكريات مجددًا في رسالة وصف فيها مدى تأثره حين رآه ثانية في ذاك الصباح، بعد أن تبادلا أطراف الحديث قليلًا على متن قارب بخاري انطلق من بريستول، في البنسيون الذي نزلا به في تينبي Tenby – وفي وجنته بعض من آثار الطباشير من لعب البلياردو – وكأنه

افتقد غيابه دهرًا. في السنوات التي تلت اللقاء الأول في ويلز تبادل براون وفيتزجيرالد الزيارات في سافوك أو بيدفوردشير، وقاما معًا برحلات في الريف بعربة يجرها حصان مارين عبر الحقول وكانا يؤوبان عند الظهيرة إلى مطعم ويتأملان السحب المتجهة نحو الشرق وكانا يشعران أحيانًا ربما بتيار الزمن على جبينهما.

شيء من ركوب الخيل، والسواقة والأكل والشرب... إلخ (ولا ننسَ التدخين) يملأ اليوم، هكذا يعقب فيتزجيرالد.

في معظم الأحيان كان براون يجلب معه عدة صيد السمك وبندقيته وشيء للرسم، وفيتزجيرالد كان يحضر معه كتابًا ما، لكنه نادرًا ما كان يقرأ شيئًا، لأنه لم يكن قادرًا عن أن يزوغ ببصره عن صديقه. لم يكن واضحًا إن كان فعلًا ثمَّت مكاشفةٌ حول الشوق الذي كان يحركه تجاه براون، لكن مجرد قلقه المستمر على حالته الصحية كان أمارة واضحة على عمق مشاعره الملتهبة. من دون شك جسَّد براون لفيتزجيرالد نوعًا ما صورة مثالية، لكن لذلك تحديدًا بدا له منذ البداية واقعًا تحت ظلال الفناء وهو ما جعله يخشى من أن النظر إليه ربما لن يكون متاحًا لوقت طويل، لأن فيه أمارات الفناء.

ولم يغير زواج براون لاحقًا من مشاعر فيتزجيرالد تجاهه، لكنه أكد له الهاجس القاتم الذي كان يساوره بأنه لن يتمكن من الاحتفاظ به وبأن صديقه مرهون للموت. إعلان الحب الذي لم يجرؤ فيتزجيرالد على الأغلب على النطق به أبدًا، وجد طريقه لأول مرة في رسالة العزاء التي أرسلها إلى أرملة براون، التي يُرجح أنها قد تركت الرسالة تسقط من يدها في تعجب أو ذهول ما. كان فيتزجيرالد في عامه الخمسين، عندما فقد وليم براون. وقد أخذ منذ ذاك الحين ينغلق على نفسه أكثر فأكثر. وإن كان قد رفض لفترة طويلة في الماضي الذهاب إلى حفلات العشاء الفخمة التي كانت أمه تدعوه إليها بانتظام في لندن، لأنه كان يجد طقس

المائدة هو الأبشع من بين كل العادات البشعة للمجتمع الراقي، فقد تخلى الآن عن الزيارات التي كان يقوم بها أحيانًا إلى المعارض الفنية ودور الموسيقى في العاصمة. ولم يخرج إلا في حالات استثنائية من محيطه الضيق. سأنغلق على نفسي في أبعد بقعة من سافوك وأربّي لحيتي، هكذا كتب، وبالتأكيد كان الحال سيبقى على ما هو عليه لو لم ينغص عليه بقاءه في المنطقة نوعٌ جديد من ملاّك الأراضي الذين يستغلون أراضيهم قدر ما يستطيعون. يقول شاكيًّا إنهم يقطعون الأشجار والأجمات، بحيث لم يعد للطير مكان يلجأ إليه. تختفي غابة وراء الأخرى. أما أحواض النجيل الواقعة على جانب الطريق حيث كانت تزهر في الربيع زهورات الربيع العطري والبنفسج، فقد حُرثت وسُويت بالأرض، وإذا ما مشى المرء اليوم من بردفيلد إلى هاسكتون على طريق السير الذي كان في السابق جميلاً، يشعر وكأنه يقطع صحراء. وبسبب النفور الذي تملك فيتزجيرالد منذ الطفولة تجاه طبقته، ضاقت نفسه بتنامي استغلال الأراضي بلا هوادة عامًا بعد عام، وبمضاعفة الملكية الخاصة بوسائل تزداد مع الوقت ريبة وشبهة وبتقليص الحقوق العامة بصورة راديكالية: وهكذا، سأذهب إلى الماء حيث لا يوجد أصدقاء مدفونون ولا تنتهي طرق السير.

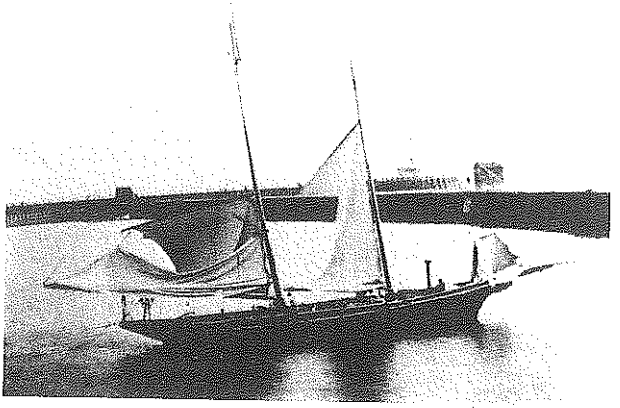

وبالفعل قضى فيتزجيرالد معظم وقته بعد عام 1860 على شاطئ البحر أو على متن يخته الذي سمَّاه «سكاندال» Scandal المصمم لأعالي البحار، الذي صُنع بناء على طلبه. انطلاقًا من وودبريدج هبط إلى مصب نهر ديبين ثم سار بمحاذاة الساحل شمالًا إلى لويستوفت حيث عين طاقم بحارته من صيادي الرنجة وبحث بينهم عن وجه يشبه وليم براون. وقد أبحر فيتزجيرالد أيضًا خارج بحر الشمال، وكما كان يرفض دائمًا أن يرتدي ملابس للمناسبات الخاصة، فقد رفض أيضًا أن يرتدي ملابس الإبحار باليخوت التي كانت موضة آنذاك. وارتدى معطفًا قديمًا واعتمر قبعة أسطوانية تُثبت برباط. تنازله الوحيد لصالح أناقة المظهر المتوقعة من ملاك اليخوت تمثَّل في لفاع من الريش الأبيض يقول إنه كان يحب ارتداءه على سطح اليخت، وكان يمكن رؤيته من بعيد وهو يتطاير من خلفه مع هبات الريح. في أواخر صيف 1863 قرر فيتزجيرالد أن يبحر بيخته «سكاندال» إلى هولندا لكي يشاهد بورتريه لويس تريب الابن[1] الذي رسمه فرديناند بول عام 1652 والمعروض في متحف لاهاي. بعد وصوله إلى روتردام أقنعه مرافقه، واسمه جورج مانبي من وودبريدج، أن يذهبا أولًا للفرجة على هذه المدينة الكبيرة ذات الميناء. وهكذا، يكتب فيتزجيرالد، قضينا اليوم كله في عربة مفتوحة وأخذنا نسير تارة في هذا الاتجاه وتارة أخرى في الاتجاه الآخر، حتى لم أعد أعرف مطلقًا أين أنا، وفي المساء سقطت ميتًا من التعب في سريري. وانقضى اليوم التالي في أمستردام على نحو مماثل وفي اليوم الثالث وصلنا أخيرًا بعد مرورنا بكل أنواع الحوادث الغبية إلى لاهاي، بعد أن أغلق المتحف أبوابه حتى مطلع الأسبوع القادم. اعتبر فيتزجيرالد الذي شعر بضيق شديد من وعثاء

(1) لويس تريب (1638 - 1655) هو ابن لعائلة معروفة من التجّار الهولنديين. المترجم.

الترحال برًّا، أن هذا الإجراء غير المفهوم بالنسبة له (إغلاق المتحف) هو تصرف خبيث من الهولنديين تجاهه شخصيًّا، وفي نوبة غضب ويأس مريعة بلغ به الأمر إلى حد سبِّ الهولنديين وسبِّ مرافقه جورج مانبي وسبِّ نفسه وأصرَّ على الذهاب فورًا إلى روتردام والإقلاع باتجاه العودة للوطن. عاش فيتزجيرالد أشهر الشتاء في وودبريدج، حيث اكترى عدة غرف لدى صانع لأسلحة الصيد في سوق البلدة. وكثيرًا ما كان الناس يرونه يتجول في المدينة شارد الفكر، مرتديًّا عباءته الأيرلندية، وفي معظم الأحيان كان يرتدي أيضًا خفًّا منزليًّا، حتى في الطقس السيئ. وخلفه كان يسير كلبه اللبرادورا الأسود بليتسوى الذي أهداه له براون. في عام 1869 وبعد شجار مع زوجة صانع الأسلحة، التي رأت في العادات الغريبة للمستأجر إهانة لها، انتقل فيتزجيرالد إلى مقر إقامته الأخير في بيت فلاحي متداع على أطراف البلدة، حيث كان يجهز فيه، حسب تعبيره، للفصل الختامي. ومع مرور الوقت تضاءلت أكثر فأكثر متطلباته التي كانت في الأصل متواضعة جدًّا. وإذا كان قد اقتصر في غذائه منذ عقود على الطعام النباتي، لأنه كان يجزع من تناول معاصريه لكميات هائلة من اللحم نصف المطهي، فقد تخلى الآن عما بدا له مجهودًا عبثيًّا في الطبخ، ولم يتناول بخلاف الخبز والزبد والشاي إلا أقل القليل من الطعام. وفي الأيام الطيبة كان يجلس في الحديقة محاطًا بالحمام الأبيض، وما عدا ذلك كان يقف لفترات طويلة أمام النافذة حيث يرى مرعًى للإوز محاطًا بأشجار مقلمة. وقد ظل في هذه العزلة في حال جيدة، حسبما تشي به رسائله، رغم أنه كان عرضة في أوقات ليست بالقليلة لمداهمات ما كان يسميه بشيطان الميلانخوليا الأزرق الذي دمر قبل سنوات كثيرة حياة أخته الجميلة أندالوسيا. في خريف عام 1870 سافر مرة أخرى إلى لندن لحضور عرض «الناي السحري». وفي اللحظة الأخيرة قرر وقد أصابته

كآبة من ضباب نوفمبر، أن يعدل عن الزيارة المزمعة لدار الأوبرا في «كوفينت غاردن» التي كانت حسب تعبيره ستفسد عليه ذكرياته الغالية عن مغنيتي الأوبرا ماريا ماليبران وهنريته سونتاغ:

الأفضل هو حضور عروض الأوبرا هذه كما كانت في مسرح ذاكرتك الخاصة.

لكن بعد ذلك بفترة وجيزة لم يعد فيتزجيرالد قادرًا على استدعاء مشاهد ذكريات كهذه، لأن طنينًا لا يتوقف في رأسه طغى على الموسيقى. كما أن نور عينيه أخذ يضعف بصورة ملحوظة. وتحتم عليه في معظم الأحيان أن يرتدي نظارات بعدسات زرقاء وخضراء، واحتاج إلى الصبي ابن مدبرة منزله لكي يقرأ له. وصورته الفوتوغرافية الوحيدة التي التُقطت له بناء على طلبه في سبعينيات القرن التاسع عشر، تظهره وهو يشيح بنظره عن الكاميرا بسبب عينيه المريضتين اللتين ترمشان كثيرًا عند النظر مباشرة إليها، كما كتب إلى بنات إخوته. اعتاد فيتزجيرالد أن يذهب بضعة أيام في كل صيف لزيارة صديقه جورج كراب الذي كان مسؤولًا عن أبرشية في ميرتون التابعة لنورفوك. في يونيو 1883 ذهب لآخر مرة إلى هذه الرحلة، تبعد ميتون عن وودبريدج نحو ستين كيلومترًا، لكن الرحلة بالقطار عبر شبكة الخطوط المعقدة التي كانت لا تزال في زمن فيتزجيرالد قيد التطوير، كانت تتطلب يومًا كاملًا مع تغيير القطارات خمس مرات. ترى ما الذي جاش في صدر فيتزجيرالد وهو يستند بظهره إلى مقعد عربة القطار المبطنة ويرى أسيجة النباتات وحقول القمح وهي تمر أمامه. لم يرد إلينا ما يوثّق ذلك، لكن ربما كان ذلك شبيهًا برحلة سابقة له في عربة تجرها الخيل من ليستر إلى كامبريدج، فعند رؤيته لمنظر الطبيعة الصيفي.. شعر كأنه ملاك، لأن دموع السعادة ترغرغت في عينيه فجأة من دون أن يدري سبب ذلك. في ميرتون أحضره

كراب من المحطة بعربة تجرها الخيل. كان يوما طويلًا وحارًّا على نحو غير مألوف، لكن فيتزجيرالد تحدث عن هواء بارد وتلفّع جيدًا في العربة بشاله الأيرلندي. على المائدة شرب القليل من الشاي، لكنه رفض أن يأكل شيئًا. قرب التاسعة طلب كأسًا من البراندي وماءًا وصعد إلى غرفته لكي يستريح. في وقت مبكر من صباح اليوم التالي سمعه كراب يجول في الغرفة، لكن عندما ذهب بعد ذلك لإحضاره للإفطار، وجده ممددًا على السرير وقد فارق الحياة.

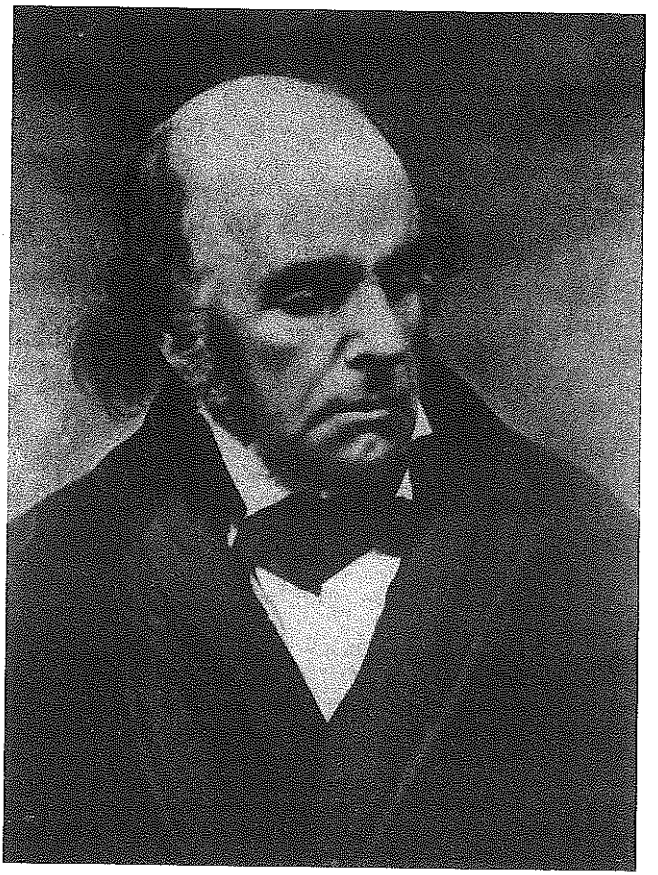

أصبحت الظلال أطول عندما ارتحلتُ من بولج بارك إلى وودبريدج، حيث قضيت الليلة في فندق Bull Inn. الغرفة التي أعطاني إياها صاحب الفندق كانت أسفل السطح. عبر بئر السلم تناهى إلى سمعي رنين الكؤوس والأكواب وهمهمات الزبائن في البار، وكنت أسمع أحيانًا أيضًا صيحة عالية أو ضحكة. بعد موعد إغلاق البار، ساد الهدوء شيئًا فشيئًا. وسمعت قرقعة وأنين العوارض الخشبية لهذا المبنى القديم، بعد أن تمددتْ بفعل حرارة النهار وها هي تعود الآن لتنكمش مليمترًا تلو الآخر. لا إراديًا اتجهت عيناي في ظلمة الغرفة الغريبة في الاتجاه الذي صدرت منه هذه الأصوات وبحثت عن الشق الذي ربما يمر بطول السقف حيث يتقشر الجير من الحائط أو ينهمر غبار الخرسانة كالمطر خلف الكسوة الخشبية للجدران. وعندما أغلقت عيناي لبرهة، شعرت وكأنني في كابينة بإحدى السفن وكأننا في أعالي البحار وكأن البيت كله قد ارتفع على حافة موجة واهتز بأعلى قليلًا ثم هبط بتنهيدة في الأعماق. لم أنعس إلا عند الفجر مع صيحة شحرور في أذني. وسرعان ما صحوت بعدها ثانية من حلم أجلس فيه مع فيتزجيرالد رفيقي في اليوم السابق على طاولة زرقاء من الصفيح في الحديقة وقد أرتدى أكمام قميص وجابوطًا[1] من الحرير الأسود واعتمر قبعة أسطوانية. من حوله أينعت نباتات الخطمي التي يفوق طولها طول الإنسان العادي وفي حفرة رملية أسفل أجمة من البيلسان ينبش الدجاج في الأرض وفي الظل رقد كلبه بليتسوى ممددًا على الأرض. أما أنا فجلست من دون أن أستطيع رؤية نفسي في الحلم. وهكذا جلست مثل الشبح أمام فيتزجيرالد ولعبت معه دورَ دومينو. على الجانب الآخر من حديقة الزهور امتد حتى حافة

(1) الجابوط: هو زينة للعنق من الدانتيل أعرض وأقصر من ربطة العنق، ترتديها النساء وكان الرجال يرتدونها في زمن فيتزجيرالد وما قبل. المترجم.

العالم، حيث تسمق مئذنة خُراسان، منتزه خاو تمامًا على درجة واحدة من الخضار. لكنه لم يكن منتزه فيتزجيرالد في بولج، وإنما المنتزه التابع لضيعة عند سفح جبال سليف بلوم في أيرلندا، حيث حللتُ قبل عدة سنوات ضيفًا لفترة قصيرة. بعيدًا جدًّا في الأفق تعرفت في الحلم على البيت ذي الطوابق الثلاثة الذي تغطيه نباتات اللبلاب، ويعيش فيه آل آشبيري، حياتهم المنعزلة، على الأرجح إلى يومنا هذا. على أي حال، عندما تعرفت إليهم آنذاك، كانت حياتهم منعزلة جدًّا، إن لم نقل غريبة. هابطًا من الجبل سألت في دكان صغير مظلم في كلاراهيل عن مكان يمكنني المبيت فيه، وانخرطت مع صاحب الدكان واسمه السيد أوهير - كان يرتدي معطفًا غريبًا من الشيت الخفيف بلون القرفة - في حديث طويل تمحور حسبما أتذكر حول قانون الجاذبية لنيوتن. وفي لحظة ما خلال هذا الحديث قطع السيد أوهير حديثه فجأة وصاح: ربما يمكنك الإقامة عند آل آشبيري. إحدى بناتهم جاءت إلى هنا قبل أعوام مع ورقة تعرض فيها الإقامة مع المبيت والإفطار. كان من المفترض أن أعرضها في فترينة الدكان. لا أذكر مصير هذه الورقة وما إذا كان قد جاءهم زبائن أم لا! ربما أزلتها أنا عندما بهت لون الحروف في الشمس. أو ربما أتوا هم بأنفسهم وأزالوها.

أوصلني السيد أوهير في سيارته النقل إلى هناك وانتظر في ساحة البيت الأمامية التي يغطيها النجيل بكثافة حتى دعوني لدخول البيت. لم يُفتح الباب إلا بعد عدة طرقات ثم وقفت كاثرين أمامي بفستانها الصيفي الأحمر الذي بهت لونه، متخشبة على نحو غريب وكأنها قد تجمدت أثناء حركتها عند رؤيتها للغريب الذي أتى من دون سابق إنذار. بعينين مفتوحتين نظرت إليَّ أو بالأحرى نظرت عبري. واستغرق الأمر فترة من الوقت حتى أفاقت من جمودها وتحركت خطوة إلى الجنب لتفسح لي

المجال بإشارة بيدها اليسرى يصعب فهمها لكي أدخل وأجلس على مقعد في مدخل البيت. عندما ذهبت من دون أن تنبس بكلمة لفت انتباهي أنها تسير حافية على البلاطات الحجرية. ثم اختفت بلا صوت في ظلمة الخلفية، وعادت أيضًا بلا صوت من وسط الظلام بعض بضع دقائق، لا يمكن حسبما بدا لي أن تخضع لأي قياس. ثم أومأت لي وقادتني عبر درج واسع وسهل الصعود إلى درجة مذهلة إلى الطابق الأول، ثم عبر عدة ممرات مختلفة إلى حجرة واسعة ينظر المرء من نوافذها العالية عبر أسطح الإصطبلات والمخازن وعبر حديقة المطبخ إلى مرعًى جميل يتماوج مع الريح. وعلى مسافة أبعد ومض عند ثنية نهرية الماء المتدفق جانبًا باتجاه الشاطئ المنخفض. وخلف ذلك وسط خضار متنوعة كانت ثمَّت أشجار وفوقها الخط الباهت الذي يميز الجبال ويكاد يكون مائعًا أمام زرقة السماء المتجانسة. اليوم لم أعد أعرف كم من الوقت ظللت منغمسًا في هذا المنظر أمام النافذة الوسطى من النوافذ الثلاث، لكنني ما زلت فقط أذكر أنني سمعت كاثرين التي انتظرت عند الباب تسألني:

هل هي مناسبة؟

وأنني قد تلعثمَّت قائلًا شيئًا غبيًّا والتفت إليها. ولم أنتبه على نحو صحيح إلى الغرفة التي تشبه الصالة إلا بعد ذهاب كاثرين. غطت ألواح الأرضية الخشبية طبقة من التراب الناعم كالمخمل. وقد نُزعت منها الستائر وورق الحائط. وكانت الجدران الجيرية البيضاء التي تتخللها بقع مزرقة كبشرة جسد يحتضر تشبه - كما قلت لنفسي - واحدة من الخرائط البديعة لأقصى الشمال التي تخلو تقريبًا من أي علامات أو إشارات. واقتصر كل أثاث الغرفة على مائدة وكرسي وسرير حديدي ضيق قابل للطي مثل تلك الأسرة التي كانوا يأخذونها في الماضي في الحملات العسكرية لكي تستخدمها الرتب العليا. وكلما رقدت خلال الأيام التالية

على هذا السرير للراحة، كان وعيي يبدأ في التحلل عند أطرافه، بحيث كان يصعب علي أحيانًا أن أقول كيف جئت إلى هنا، وأين أنا عمومًا. ومرارًا بدا لي كأنني أرقد في مشفى عسكري ميداني وأعاني من حمى الجرح. من الخارج سمعت صيحات الطواويس التي تخترق العظام، لكن في خيالي لم أرَ الفناء الذي اتخذت فيه مكانها فوق الكراكيب المتكومة عبر السنين، بل رأيت ساحة معركة في لومباردي تحوم فوقها حداءات الجيف، ومن حولها بلد دمرته الحرب. كانت الجيوش قد واصلت زحفها منذ فترة، ورقدت أنا وحدي في البيت المنهوب أفيق من إغماءة لأغرق في أخرى. وقد ازداد تكاثف هذه الصور في رأسي لأن آل آشبيري كانوا يعيشون في بيتهم وكأنهم لاجئون قد شاركوا في ارتكاب شيء فظيع ولا يجرؤون على الاستقرار في مكان. كان لافتًا أن جميع أفراد العائلة كانوا يتجولون في الممرات وبيت الدرج. نادرًا ما كان يمكن رؤيتهم يجلسون كُلٌّ بمفرده، أو معًا، وينعمون ببعض الاسترخاء. حتى وجبات الطعام كانوا يتناولونها وقوفًا. والأعمال التي كانوا يقومون بها انطوت في حد ذاتها على قدر من عدم التخطيط وانعدام المعنى، ولم تبدُ أنها تعبير عن تكرار اليومي المعتاد ولا عن هوس غريب أو اضطراب عميق مزمن. يبني الابن الأصغر إدموند منذ فصله من المدرسة عام 1974 سفينة ضخمة طولها عشرة أمتار، رغم أنه صرح أمامي بشكل عابر أنه لا يفهم شيئًا في بناء السفن وليست لديه النية أن يمخر عباب البحر بهذا القارب المعوج.

لن يُدشن. إنه مجرد عمل أقوم به. لا بد أن أقوم بعمل شيء.

كانت السيدة آشبيري تجمع بذور الزهور في قراطيس ورقية وتدون عليها الاسم والتاريخ والمكان واللون وكل البيانات الأخرى، وقد رأيتها بعد ذلك وهي تقلب هذه القراطيس بحذر في أحواض زرع مهملة وأحيانًا

في مكان أبعد وسط المروج فوق رؤوس الزهورات الميتة وتربطها بخيط. ثم كانت تقطع سيقان الأزهار مع القراطيس الفارغة وتجلبها للبيت وتعلقها على حبل غسيل مصنوع من عدة قطع من الحبال ومعلق بالطول والعرض في قاعة المكتبة السابقة. وكان عدد السيقان المغطاة بالقراطيس البيضاء المعلقة أسفل سقف المكتبة كبيرًا جدًّا إلى درجة أنها شكلت ما يشبه سحابة ورقية. وعندما كانت السيدة آشبيري تقف على سلم المكتبة منشغلة بتعليق أو نزع حافظات البذور ذات الحفيف، كان نصفها يختفي مثل قديسة تصعد إلى السماء. كانت القراطيس المنزوعة من على الحبل تُحفظ وفقًا لنظام غير واضح على أرفف المكتبة التي تحررت منذ زمن بعيد من أحمال الكتب. لا أظن أن السيدة آشبيري كانت تدري في أي منطقة يمكن للبذور التي جمعتها أن تنمو، كما لم تعرف كاثرين ولا أختاها كلاريسا وكريستينا لماذا يقضين كل يوم عدة ساعات في حياكة أكياس مخدات ملونة وملاءات وأشياء مماثلة من الكميات الهائلة من قصاقيص الأقمشة التي جمعنها في إحدى الغرف الشمالية؟! وكأنهن أطفال عماليق وقعوا في إسار تعويذة سحرية شريرة، جلست الفتيات الثلاث العازبات المتقاربات في العمر على الأرض وسط جبال مُزق القماش وواصلن العمل، ونادرًا ما تحدثن معًا. ذكرتني الحركة التي كن يجذبن بها الخيط إلى أعلى بعد كل غرزة بأشياء تعود لزمن بعيد جدًّا، إلى درجة أنني شعرت بالقلق على الزمن القليل المتبقي. حكت لي كلاريسا بشكل عابر أنها وإخوتها كن يفكرن في تأسيس محل للأثاث الداخلي، لكن هذه الخطة فشلت بسبب عدم خبرتهن وأيضًا لأنه لا يوجد زبائن لمثل هذا المشروع. وربما لذلك كن يقمن عادة في اليوم التالي أو اليوم الذي يليه بفك خياطةٍ ما قمن بحياكته. ومن المحتمل أيضًا أن ما كان يدور في مخيلتهن شيء ذو جمال خارق بحيث كانت

المنتجات النهائية تشعرهن بلا شك بالإحباط. هذا ما فكرت فيه عندما قمن خلال إحدى زياراتي لورشتهن بعرض بعض القطع التي لم تتعرض للتمزيق، لأن واحدة على الأقل من هذه القطع، فستان عروس مكونًا من مئات المزق الحريرية ومطرز بخيوط حريرية أو بمعنى أصح مغطى بالخيوط على طراز نسيج العنكبوت كان معلقًا فوق مانيكان بلا رأس، وكاد كعمل فني مفعم بالألوان أن ينطق بالحياة ببهاء وكمال لم تصدقهما عيناي آنذاك، مثلما لا تصدقهما ذاكرتي الآن.

في المساء السابق على سفري وقفت مع إدموند في الشرفة وقد استندنا إلى الإفريز الحجري. ساد السكون بحيث ظننت أنني أسمع وطّ الخفافيش التي تقطع الأجواء مسرعة في خطوط متعرجة. غرق المنتزه في الظلام عندما قال إدموند فجأة وبعد صمت طويل:

لقد أعددتُ جهاز عرض الصور في المكتبة. أمي تسأل إن كنت تريد أن تعرف كيف كانت الأمور هنا فيما مضى.

في الداخل كانت السيدة آشبيري تنتظر بدء العرض في قاعة المكتبة. جلستُ إلى جانبها تحت سماء القراطيس وأُطفئ النور، وبدأ الجهاز في الرجرجة وظهرت على الحائط العاري فوق رف المدفأة صور الماضي الصامتة أحيانًا في أوضاع ثابتة تقريبًا، وأحيانًا متقطعة بعضها وراء البعض ومتسارعة أو غير واضحة بسبب شطب كثيف فوقها. وكانت كلها بلا استثناء لقطات خارجية. من النافذة في الطابق الأعلى، يمكن للمرء أن يرى في محيط نصف دائري الأراضي المحيطة وجزيرة الأشجار والحقول والمروج، وبالعكس إذا كان المرء قادمًا من المنتزه باتجاه ساحة البيت الأمامية لا يرى المرء من على البعد سوى الواجهة الأمامية للبيت التي تبدو في البداية في حجم لعبة ثم تسمق عالية أكثر فأكثر وفي النهاية تخرج تقريبًا من إطار الرؤية. لا تظهر أي آثار للإهمال. كانت طرق سير العربات

مفروشة بالرمل، والأسيجة النباتية كانت مقلمة، والأحواض في حديقة المطبخ مرتبة بنظافة. ومباني المزرعة التي تهدم نصفها في الأثناء كانت لا تزال في حال جيدة. وفيما بعد في يوم صيفي ساطع نرى آل آشبيري وقد جلسوا لتناول الشاي فيما يشبه خيمة مفتوحة. كان يومًا جميلًا، قالت السيدة آشبيري، كان حفل تعميد إدموند. لعبت كلاريسا وكريستينا كرة الريشة، وكاثرين كانت تحمل على ذراعها كلب تيرير اسكتلندي أسود اللون. وفي الخلفية اقترب ساقٍ مسن من المدخل حاملًا صينية ثقيلة. وظهرت عند الباب خادمة ترتدي قلنسوة على رأسها ووضعت يدها أمام عينيها لتفادي ضوء الشمس. وضع إدموند بكرة صور جديدة. كثير من الصور التي تلت لها علاقة بالعمل في الحديقة وفي الضيعة. أتذكر صورة شاب ضعيف البنية يمسك بعربة يدوية عتيقة جدًّا، وماكينة لجز الحشائش يجرها حصان صغير ويحركها حوذي قزم تسير في خطوط مستقيمة على النجيل ذهابًا وإيابًا، ومنظرًا داخل صوبة مظلمة ينمو فيها الخيار، وصورة لحقل كاد لونه أن يكون أبيض كالثلج بسبب الإضاءة الزائدة، انشغل فيه عشرات عمال الحصاد بحش أعواد القمح وربطها في حزم. وعندما انتهى شريط الصور الأخير ساد السكون في قاعة المكتبة حيث لم يعد الآن ثمَّت مصدر للإضاءة سوى نور المدخل الخافت. لم تشرع السيدة آشبيري تتحدث إلا بعد أن أدخل إدموند جهاز عرض الصور في علبته وخرج. حكت لي أنها تزوجت في عام 1946، مباشرة بعد تسريح زوجها من الخدمة العسكرية وأنهما على عكس التصور الذي وضعاه لحياتهما المستقبلية قد انتقلا بعد أشهر قليلة من الزواج إلى أيرلندا بعد الموت المفاجئ لحماها لكي يتوليا إدارة الممتلكات الموروثة التي كان يصعب بيعها آنذاك. في ذاك الوقت، قالت السيدة آشبيري، لم تكن لديها أدنى فكرة عن الأوضاع في أيرلندا التي لا تزال غريبة عليها إلى يومنا هذا.

تقول، أتذكر أنني في الليلة الأولى صحوت على شعور بأنني خارج العالم. سطع القمر على النافذة وضوؤه كان غريبًا جدًّا على طبقة الشحم الشمعي التي غطت الأرضية جراء تساقط قطرات الشمع على مدى أكثر من مئة عام، إلى درجة أنني ظننت أنني أسبح في بحيرة من الزئبق. عمومًا لم يصرّح زوجي إطلاقًا بشيء عن الأوضاع في أيرلندا، رغم أنه أو ربما لأنه قد شهد حتمًا أشياء مروعة خلال الحرب الأهلية. تدريجيًّا ومن خلال أجوبته المقتضبة عن أسئلتي بهذا الخصوص تمكنت أخيرًا من فهم بعض الأشياء من خلال قصة عائلته وقصة طبقة الملاك التي افتقرت بعد الحرب الأهلية على نحو ميؤوس منه. لكن هذه الصورة التي استطعت تكوينها بهذه الطريقة لم يكن فيها أبدًا ما يزيد على بعض الملامح الغائمة. وبخلاف زوجي المتحفظ جدًّا، كان مصدر معلوماتي الوحيد عن الأوضاع الأيرلندية المأساوية من جهة والمثيرة للسخرية من جهة أخرى هو الأساطير التي نشأت خلال عملية الانهيار البطيء طويل الأمد في رؤوس الخدم الذين وُرثوا مع بقية الأثاث ويمكن القول إنهم جزء من القصة. على سبيل المثال بعد سنوات عدة من انتقالي إلى هنا تمكنت أخيرًا من خلال كبير الخدم كوينسي من معرفة شيء مما جرى في الليلة المروعة وسط صيف عام 1920، التي أُحرق فيها بيت آل راندولف الواقع على بعد ستة أميال من هنا، وكان آل راندولف ساعتها يتناولان العشاء عند حموي المقبلين. وحسب رواية كوينسي جمع المتمردون الجمهوريون الخدم في البهو وصارحوهم بأنهم بعد مرور مهلة ساعة يمكن فيها للخدم أن يجمعوا أغراضهم ويصنعون الشاي للمناضلين من أجل الحرية، سيشعلون حريقًا كبيرًا على سبيل الانتقام. كان أول شيء فعلوه هو إيقاظ الأطفال والإمساك بالكلاب والقطط التي اضطربت تمامًا بسبب حدسها الغريزي بالكارثة. بعد ذلك، وحسب وصف كوينسي

الذي كان آنذاك الخادم الخصوصي للكولونيل راندولف، وقف كل سكان البيت على ساحة النجيل في الخارج بين أمتعة وقطع أثاث عديدة وكل الأشياء العبثية التي يجمعها المرء وهو في حالة ذعر. يحكي كوينسي أنه اضطر للصعود جريًا للطابق الثاني مرة أخرى لإنقاذ ببغاء السيدة راندولف التي تبين في اليوم التالي أنها فقدت جراء الكارثة عقلها الذي كان إلى ذاك الحين راجحًا سليمًا ولا تشوبه شائبة. وفي نهاية المطاف تحتم عليهم جميعًا أن يشهدوا بلا حول ولا قوة الجمهوريين وهم يجلبون حاوية بنزين ضخمة من صندوق السيارة إلى الفناء وهم يهتفون Heave! ho ويجرونها على درجات البهو ثم يتركونها تسيل. وبعد دقائق من إلقاء الشعلات خرجت ألسنة اللهب من النوافذ ومن السطح. وبعد ذلك بقليل كان يمكن للمرء أن يظن أنه ينظر إلى كوة فرن عملاقة تعج عن آخرها بالوهج المتزايد والشرر. لا أظن، قالت السيدة آشبيري، أن المرء يستطيع أن يتخيل ولو بشكل تقريبي ما دار في أذهان المنكوبين في تلك اللحظة. عمومًا لقد وصل الخبر المفزع إلى آل راندولف من خلال بستاني هرب على دراجة. ورغم أنهم كانوا يترقبون وقوعه دائمًا، لم يظنوا أبدًا أنه ممكن الحدوث. تحركوا بالسيارة برفقة حموي باتجاه النيران التي كانت يمكن رؤيتها من بعيد. وعندما وصلوا إلى موقع الدمار، كان هؤلاء الذين أضرموا النار في بيتهم قد اختفوا منذ فترة، ولم يتبق أمام آل راندولف سوى أن يحتضنوا أطفالهم ويجلسوا بين هذا الجمع من الناس الذين تجمدوا وفقدوا النطق من فرط الرعب، وقد تقرفصوا أمام الحريق وكأنهم نجوا من سفينة غارقة على طوف خشبي. ولم تخمد النيران تدريجيًّا إلا قرب الفجر وبرزت من وسط الدخان معالم الأطلال السوداء. وبعد ذلك، قالت السيدة آشبيري، هُدمت هذه الأطلال. أنا نفسي لم أرَها. ويقال إنه نحو مئتين إلى ثلاثِ مئة بيت إقطاعي قد أُحرق خلال الحرب الأهلية.

ولم تكن ثمَّت تفرقة بين الأملاك المتواضعة وبين القصور الريفية التي يمتلكها علية القوم مثل قصر سامر هيل Summerhill الذي قضت فيها الإمبراطورة النمساوية إليزابيت أيامًا سعيدة. حسبما أعرف، قالت السيدة آشبيري، لم يتعرض المتمردون أبدًا للأشخاص. من الواضح أن إضرام النيران في البيوت كان وسيلة ناجعة لإبعاد وطرد العائلات المتماهية مع السلطة الإنجليزية المكروهة سواء كان ذلك عن حق أو غير حق. وفي السنوات التالية على الحرب غادر البلاد أيضًا من لم يتعرضوا لحرق بيوتهم، كلما سنحت الفرصة لذلك. وتبقى فقط هؤلاء الذين لم يكن لديهم أي دخل سوى ما يكسبونه من تشغيل ضياعهم. وكل محاولة لبيع بيت وضيعة كان محكومًا عليها بالفشل، أولًا لأنه لم يكن ثمَّت مشترين وثانيًا لأن عائد بيع البيت لم يكن ليكفي للعيش في بورنماوث أو كينسينغتون مثلًا أكثر من عدة أشهر. من جانب آخر لم يعرف أحد كيف ستسير الأمور في أيرلندا. توقف العمال في قطاع الزراعة، وطلبوا أجورًا لم يكن دفعها ممكنًا. وتقلص الإنتاج الزراعي أكثر فأكثر وتضاءل الدخل أكثر فأكثر. ازداد انعدام الأفق من عام إلى عام وأصبحت معالم الإفقار البادية للعيان أكثر كآبة. ومعظم الوقت كان مجرد الحفاظ على البيوت ولو بحد أدنى يكاد يكون مستبعدًا تمامًا. تقشر طلاء الأبواب وأُطر النوافذ، ونسلت خيوط الستائر وانسلخ ورق الحائط عن الجدران، واهترأت الأثاثات المبطنة وهطل المطر في كل مكان داخل البيوت. وفي كل مكان كانت ثمَّت أحواض من الصفيح وأوانٍ وطناجر يتجمع فيها ماء المطر. وسرعان ما أصبح الناس مضطرين أن يتركوا الطوابق العليا، بل أجنحة كاملة من البيت، وأن ينسحبوا إلى بعض الغرف ذات الاستخدام العملي نوعًا ما. أظلم زجاج النوافذ في الطوابق المغلقة خلف نسيج العناكب، وانتشر العفن الجاف، ونقلت الحشرات بَوْغ الفطر إلى أقصى

زوايا البيت، وعلى الأسوار والأسقف برزت أشكال وحشية من الفطر ذي اللون البنفسجي المائل للبني والأسود، ولم يكن نادرًا أن يعادل حجمها رأس ثور. بدأت ألواح الأرضية في الانهيار وهبطت عوارض الأسقف وتحللت كسوة الجدران الخشبية والسلالم من الداخل، بعد فترة طويلة من التعفن، لتتحول بين ليلة وضحاها إلى غبار كبريتي أصفر. وكثيرًا ما كانت تقع فجأة انهيارات كارثية وسط التداعي الزاحف الذي أصبح جزءًا من الحياة العادية ولم يعد ملحوظًا أو يمكن رصده بين يوم وآخر، ومعظمها كان يحدث بعد فترات ممطرة طويلة أو مواسم جفاف أو حتى عند تغير الطقس. وإذا ما ظن الناس لتوهم أنهم قادرون على الحفاظ على مستوى معين، يضطرون بسبب تدهور مفاجئ وعنيف للوضع أن يخلوا أماكن أخرى، إلى أن يجدوا أنفسهم محاصرين بلا مفر في آخر موقع، كسجناء في بيوتهم. يقال إن أحد أعمام أبي زوجي في كاونتي كلير، هكذا تروي السيدة آشبيري، قد اقتصرت سكناه في النهاية على مطبخ بيته الذي كان في الماضي يدار بأرقى مستوى. ويُزعم أنه ظل لسنوات يتناول عشاءً مكونًا من وجبة بطاطا بسيطة يعدها له كبيرُ خدمِه الذي اضطر أن يتحول إلى طاهٍ، لكنه كان يتناول عشاءه كما في الماضي مرتديًا جاكتًا أسود ومع زجاجة من نبيذ البوردو من القبو الذي لم يكن قد فرغ تمامًا من مخزونه بعد. ووفقًا لكوينسي فقد كان سريرًا عمِّ الأب وكبير الخدم - كلاهما يدعى وليام وقد ماتا في اليوم نفسه وفي عمر يزيد على الثمانين بكثير - في المطبخ أيضًا. وكم من مرة فكرتُ، تضيف السيدة آشبيري، ما إذا كان شعور كبير الخدم بالواجب هو الذي أبقاه على قيد الحياة حتى ذلك الحين الذي لم يعد سيده بحاجة إليه، أم أن عم الأب قد استسلم سريعًا بعد وفاة خادمه المنهك، لأنه يعرف أنه ليس باستطاعته البقاء ليوم واحد دون مساندة منه. على الأغلب كان الخدم الذين عملوا لعقود مقابل مبالغ

زهيدة وما كان باستطاعتهم، مثلهم مثل سادتهم، أن يجدوا في عمرهم هذا ملاذًا آخر يقيمون فيه، هم من كان يحافظ نوعًا ما على سير الحياة اليومية. وإذا ما رقدوا في انتظار الموت، تكون نهاية من يقومون بخدمتهم في العادة وشيكة. الوضع عندنا هنا ليس مختلفًا، حتى لو كان الانهيار العمومي قد حدث متأخرًا بعض الشيء. وقد أدركتُ مبكرًا أن احتفاظ آل آشبيري بممتلكاتهم حتى فترة ما بعد الحرب، كان يعود إلى مبالغ نقدية كانت تُضَخ باستمرار من إرث أكبر في بداية الثلاثينيات وقد أخذ في الاضمحلال ليتبقى منه جزء ضئيل جدًّا عند وفاة زوجي. وبغض النظر عن ذلك كنتُ دائمًا على قناعة بأن الأمور ستتخذ في وقت ما فجأة منعطفًا أفضل. لم أرغب في أن أصدق أن المجتمع الذي كنا ننتمي له قد انهار منذ زمن بعيد. بعد وصولنا إلى أيرلندا بوقت قصير بيعت قلعة غورمانستون في المزاد، وبيعت ضَيعتا سترافان وكارتون عام 1949 وفرنش بارك عام 1953 وكيليين روكينغهام عام 1957 وباورسكورت 1961، ناهيك بالضياع الصغيرة. ولم يتبين لي حجم زيف عائلتنا إلا عندما أصبحتُ أعتمد على نفسي تمامًا وتحتم علي أن أوفر قوت عائلتنا. ونظرًا لأنه كانت تنقصني الأموال لدفع أجور العاملين، لم يكن أمامي خيار آخر سوى أن أُوقف الزراعة. وأنقذنا بيع الأراضي لعدة سنوات من حدوث الأسوأ. وطوال ما كنا نحتفظ بخادم أو خادمين في البيت، كان لا يزال بالإمكان أن نحافظ أمام الناس في الخارج وأيضًا أمام أنفسنا على مظهر به قدر من الاحترام. إلى أن مات كوينسي فلم أعد أعرف ما أفعل. في البداية حملت الفضيات وأواني البورسيلين بنفسي إلى المزاد، ثم بعد ذلك وشيئًا فشيئًا أخذت اللوحات والمكتبة والأثاث. وبالطبع لم أجد مشتريًا للبيت المهمل على الدوام، وهكذا ظللنا مقيدين به مثل الأرواح الملعونة في مكانها. وكل مشروعاتنا بما فيها الخياطة اللامتناهية للبنات وعمل الحديقة الذي بدأه

إدموند ذات مرة وخطة استقبال نزلاء في المنزل، قد باءت بالفشل. إنك أول ضيف على الإطلاق يتمكن من الوصول إلى هنا منذ أن علقنا الإعلان في نافذة دكان البقالة في كلاراهيل منذ نحو عشر سنوات. مع الأسف أنا إنسان غير عملي نهائيًا، وسجينة للتأمل الأبدي. جميعنا حالمون لا نصلح لخوض معترك الحياة، أولادي لا يختلفون عني.

أحيانًا أظن أننا لم نعتد قط على الوجود على هذه الأرض وأن الحياة خطأ كبير مستمر وغير مفهوم.

عندما انتهت السيدة آشبيري من قصتها، بدا لي كأن أهميتها تكمن بالنسبة إليَّ في الطلب الذي لم تصرّح به بأن أبقى معهم وأن أشاركهم حياتهم التي تزداد براءة يومًا بعد يوم. ولكوني لم أفعل ذلك، فقد ظل هذا الخطأ حتى اليوم يخايلني أحيانًا كظل يقبع فوق الروح. في اليوم التالي وأثناء الوداع بحثت طويلًا عن كاثرين، ووجدتها أخيرًا في حديقة المطبخ التي تعج بزهور ست الحسن والناردين وأعواد حشيشة الملاك والراوند. بفستانها الأحمر الصيفي الذي ارتدته يوم وصولي، استندت إلى جذع شجرة التوت التي كانت تمثل في الماضي النقطة المركزية لحوض نباتات يحده سور عالٍ من الطوب الآجر. اتخذت لنفسي طريقًا وسط الأعشاب والنبتات الشيطانية إلى جزيرة الظل التي كانت كاثرين تنظر منها باتجاهي.

جئت لأودعك.

قلت وأنا أدخل تحت عريشة الأوراق التي شكلتها الأغصان الناتئة. كانت تمسك بين يديها قبعة حمراء بلون فستانها وذات حافة عريضة مثل القبعات التي تُرتدى في المزارات الدينية، وبدت لي وأنا أقف عندها بعيدة جدًّا. اخترقتني نظرتها بعينين فارغتين.

تركت عنواني وهاتفي، بحيث إذا أردتِ...

لم أُنهِ الجملة، ولم أعرف ماذا أقول بعد. على أي حال لم تكن كاثرين تصغي. وقالت بعد بعض الوقت:

في لحظة ما ظننا أنه ربما بإمكاننا تربية دود القز في واحدة من الغرف الخالية، لكننا لم نفعل قط. إنها واحدة من الأشياء التي لا حصر لها التي يفشل المرء في القيام بها.

بعد سنوات من هذه الكلمات القليلة التي تبادلتها في النهاية مع كاثرين آشبيري، رأيتها مرة أخرى في برلين في مارس 1993، أو ظننت أنني رأيتها. ركبت المترو إلى محطة «شليزيشيس تور» وبعد عدة جولات في المنطقة البائسة هناك وجدت جمعًا صغيرًا من الناس يقفون أمام مبنى مهجور كان في السابق مرآبًا للعربات التي تجرها الخيول أو ما شابه ذلك، وينتظرون السماح لهم بالدخول. ووفقًا لملصق فإن المسرح الموجود خلف هذه الواجهة غير المسرحية على الإطلاق يقدم عرضًا مأخوذًا عن مخطوط لم يكن معروفًا لي حتى ساعتها للمسرحي الألماني ياكوب ميشائيل راينولد لينتس[1]. وداخل القاعة الكابية تبين أن على المرء أن يجلس على مقاعد خشبية خفيضة، ومن خلال ذلك يدخل المرء في حالة طفولية تتوق لما هو رائع. وقبل أن أتمكن من مراجعة هذه الأفكار ظهرت هي على المسرح - ويالله العجب بالفستان نفسه والشعر الفاتح اللون نفسه وبالقبعة ذاتها - هي أو قرينتها، كاترينا قديسة سيينا، في غرفة خاوية بعيدًا عن بيت أبيها، متعبة من قيظ النهار والأشواك والحجارة. كانت الخلفية، كما أذكر، عبارة عن ملصق باهت للجبال، ربما منحدر جبلي في ترينتين عند سفح الألب، بلون خضار الماء وكأنه برز من وسط محيط قطبي. وعندما غربت الشمس غاصت كاترينا تحت شجرة غير مرئية وخلعت حذاءها

(1) ياكوب ميشائيل راينولد لينتس (1751 - 1792) هو مسرحي ألماني معاصر لغوته. المترجم.

ووضعت قبعتها جانبًا، وقالت: أظن أنني أريد أن أنام هنا، أغفو قليلًا على الأقل. اهدأ يا قلبي. الليل الساكن سيغطي الغرائز المريضة بمعطفه...

أربع ساعات كاملة يحتاج إليها المرء للسير من وودبريدج إلى أورفورد هابطًا باتجاه البحر. تمر الشوارع والطرق عبر منطقة خاوية رملية، وفي نهاية صيف طويل جاف تكون مناطق واسعة منها أشبه بالصحراء تقريبًا. كانت هذه المنطقة منذ القدم قليلة السكان جدًّا، وغير مستزرعة تقريبًا ولم يكن بها في الحقيقة سوى مراعٍ للغنم تمتد من طرف السماء لطرفها الآخر. وعندما اختفى الرعاة والقطعان في بداية القرن التاسع عشر، بدأت أعشاب المروج والأشجار الخفيضة في الانتشار. هذا التطور دعمه بقوة أصحاب الضياع في ريندلسهام وسادورن هول وأورويل بارك وأش هاي هاوس الذين يتقاسمون هذه الأراضي بينهم وذلك من أجل توفير الشروط المناسبة لصيد الطرائد الصغيرة الذي كان موضة تزداد شيوعًا في العصر الفيكتوري. بعد أن تمكنوا من تكوين ثروات هائلة من مشروعاتهم الصناعية، اشترى رجال من الأوساط البرجوازية بيوتًا إقطاعية وأراضٍ بسبب حاجتهم إلى شرعنة انتمائهم إلى الطبقات الأرقى. وعلى هذه الأراضي تخلوا عن المبادئ التي يقدرونها كثيرًا فيما يخص الاستغلال الاقتصادي العقلاني لصالح الصيد الخالي تمامًا من أي نفع الذي يهدف فقط للدمار المحض، ومن الواضح أنه لم يكن ثمَّت من يرى في ذلك خطأً أو عيبًا. وإذا كان الصيد في المنتزه البري الخاص أو في البرية كان قبل ذلك امتيازًا يُمنح من البلاط الملكي أو من صاحب الإقطاع، فقد أقام الآن كلُّ من أراد أن يحول مكسبه في البورصة إلى تقدير وسمعة في بيته ولعدة مرات في الموسم ما يسمى بحفلات الصيد وذلك بأكبر قدر من الأبهة. ارتبط التقدير الذي تمكن المضيف لهذه الحفلات من الحصول عليه، بغض النظر عن مكانة

وأسماء المدعوين بعلاقة دقيقة بعدد الحيوانات التي قُتلت. وكانت كل إدارة الضيعة قائمة على ضمان تكاثر الحيوانات البرية. وقد رُبِّيَ سنويًّا آلاف من طيور الدراج في أقفاص، وكانت تُطلق لصيدها لاحقًا في هذه الأراضي الشاسعة المهدرة زراعيًّا التي أصبح دخول معظمها متعذرًا. ونظرًا إلى أن سكان المنطقة قد وجدوا أن حقوقهم تتقلص باستمرار، ما داموا لا يشتغلون في تربية الدراج أو رعاية الكلاب أو كرعاة أو مطاردين للصيد أو أي عمل مرتبط بالصيد، فلم يكن نادرًا أن يتخلوا عن بيوتهم التي عاشوا فيها على مدى أجيال. والملحوظ أنه قد بُني في بداية القرن العشرين، في خليج هوليسلي خلف الشاطئ مباشرة معسكر للعمل القسري للعاطلين، أُطلق عليه فيما بعد اسمColonial College أي الكلية الاستعمارية، وكان نزلاؤه يُرحَّلون بعد قضاء مدة معينة إلى نيوزيلندا أو أستراليا. والآن يوجد في مبنى هذا المعسكر سجن مفتوح للأحداث، تراهم يعملون في الحقول المحيطة في مجموعات وهم يرتدون ستراتهم ذات اللون الأحمر المائل للبرتقالي المشع. بلغت تقليعةُ صيد الدراج ذروتها في العقد السابق على الحرب العالمية الأولى. وشغّلت ضيعة سادبورن هول وحدها أربعة وعشرين من رعاة الصيد وخياط خصوصي لتفصيل وصيانة المعاطف التي يلبسونها. أحيانًا كانت حصيلة طيور الدراج المقتولة في يوم واحد تصل إلى ستة آلاف طائر، ناهيك بالطيور الأخرى والأرانب. وقد دُونت هذه الأرقام المثيرة للدوار بنظافة في سجلات العائلات المتنافسة. وكانت إقطاعية بودسي في ساندلينغ تعد من أهم ضياع الصيد والزراعة، وقد امتدت على الضفة الشمالية لنهر الديبين بمساحة تزيد على ثمانية آلاف فدان. بنى السير كاثبرت كويتلر رجل الأعمال المنحدر من طبقة أدنى، في مطلع ثمانينيات القرن التاسع عشر مقر إقامة عائلته في مكان مميز عند مصب النهر. وقد كان في جانب

منه أشبه بقصر إقطاعي على طراز عصر إليزابيث وفي جانب آخر أقرب لقصر مهراجا هندي.

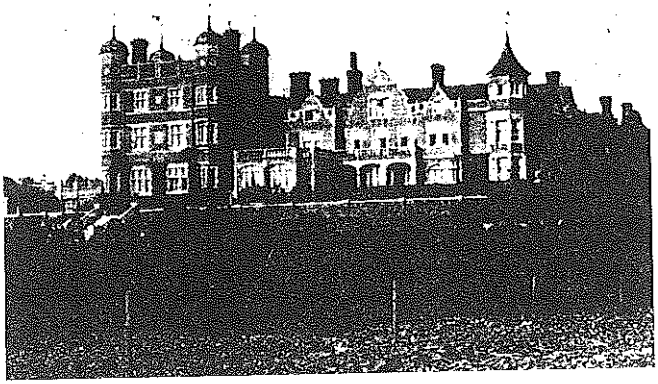

وبالانتهاء من هذه المعجزة المعمارية كان كويتلر على قناعة بأنها بمثابة استعراض حاسم لشرعية المكانة التي بلغها، مثلما كانت الحال مع الشعار الذي اختاره ليعكس رفضًا لأي حلول توافقية برجوازية وهو Plutôt mourir que changer أي الموت بدلًا من التغيير. لقد وجد الرجال من أمثاله أنفسهم في ذروة وعيهم بسلطتهم. ومن موقعهم لم يكن ثمَّت سبب لئلا تسير الأمور هكذا دائمًا من نجاح باهر لآخر. وليس من قبيل الصدفة أن الإمبراطورة الألمانية كانت تقضي عطلة الاستجمام في فليكستو على الضفة الأخرى للنهر التي تحولت في السنوات الأخيرة إلى منتجع راق. وكان رسو اليخت القيصري هوهنتسولرن[1] Hohenzollern هناك لأسابيع علامة واضحة على الفرص التي أُتيحت الآن أمام روح المبادرة الرأسمالية. لقد أمكن لساحل بحر

(1) اسم الأسرة الحاكمة في ألمانيا في ذلك الوقت. المترجم.

الشمال أن يتحول برعاية قيصرية إلى مستعمرة صحية مزدهرة ومزودة بكل إنجازات العصر الحديث ترتادها الطبقات الراقية. مثل الفطر فوق الأراضي القاحلة، انتشرت بنايات الفندق في كل أنحاء المكان. وأُنشئت كورنيشات وشواطئ للاستحمام، كما امتدت المراسي داخل البحر. وحتى منطقة «شينغل ستريت» التي تعد إلى حد كبير أكثر البقاع المهملة في المنطقة، ولا يوجد بها اليوم سوى صف وحيد بائس من البيوت والأكواخ ولم أرَ فيها قط أي إنسان، قد شهدت آنذاك - إذا ما صدّق المرء ما جاء في المصادر - تشييد منتجع صحي يتسع لمئتي نزيل، كان يحمل الاسم الفخيم German Ocean Mansions ولم يعمل به سوى موظفين من ألمانيا، وقد اختفى في الأثناء من دون أي أثر. وعمومًا بدا خلال هذه السنوات أن صلات عديدة ربطت بين الإمبراطورية الألمانية والإمبراطورية البريطانية عبر بحر الشمال، وتبينت ملامحها المميزة في المقام الأول في اضطراب الذوق الهائل لدى هؤلاء الذين يسعون بأي ثمن لأن يكون لهم مكان تحت الشمس. بلا شك كانت قلعة الأحلام الأنغلو - هندية التي بناها كاثبرت كويتلر وسط الكثبان ستلائم الحس الفني لدى القيصر الألماني الذي اشتهر بأنه لم يكن يحب شيء أكثر من حبه للبذخ بكل أنواعه المتخيلة. وفي المقابل يمكن للمرء أن يتصور كويتلر، الذي كان يبني مع كل مليون جديد يضيفه إلى ثروته برجًا جديدًا في قصره على الشاطئ، كضيف على متن اليخت هوهنتسولرن ومعه مثلًا قادة القوات البحرية، وهم يؤدون معًا التمارين الرياضية التي تسبق عادة على ظهر السفن في أعالي البحر قداس الأحد. يا لها من خطط جريئة كان لرجل مثل كويتلر أن ينفذها بتحفيز من شخص يشبه في الميول والأفكار مثل القيصر فيلهلم، من قبيل إنشاء جنة الهواء المنعش الممتدة من فليكستو مرورًا بنوردني ووصولًا إلى زولت في ألمانيا والهادفة

للحفاظ على اللياقة البدنية للأمة. ومن قبيل تأسيس حضارة جديدة في بحر الشمال، إن لم نقل تحالف أنغلو - غرماني عالمي يكون شعاره كاتدرائية رسمية تشيد فوق جزيرة هيلغولاند لتكون مرئية من كل مكان في أعالي البحار. لكن بالطبع اتخذت القصة في الواقع مسارًا مختلفًا تمامًا، لأنه دائمًا عندما يكون المرء بصدد تخيل المستقبل الأروع، تكون الكارثة التالية على وشك الوقوع. أُعلنت الحرب، ورُحِّل عمالُ وموظفو الفنادق الألمان إلى موطنهم، ولم يعد ثمَّت مصطافون، وذات صباح ظهر منطاد «تسيبلين» فوق الساحل وبدا كأنه حوت طائر. وعلى الناحية الأخرى من بحر المانش توالى وصول القطارات التي تحمل قوات ومعدات لا حصر لها إلى ميدان القتال وحرثت نيران القذائف مناطق كاملة من الأراضي الزراعية، وفي منطقة الموت بين الجبهات لمعت الجثث بضوء فوسفوري. خسر القيصر الألماني إمبراطوريته وتدريجيًّا أيضًا تداعت إمبراطورية كاثبرت كويتلر الذي رأى بعينيه ثروته - التي كانت لا تنضب في الماضي - وهي تتضاءل فجأة، وأنه لم يكن ثمَّت مجال لاستثمار معقول لممتلكاته. في غضون ذلك أسهم رايموند كويتلر الذي كان إرث بودسي من نصيبه في تسلية مصطافي فيلكستو الذين لم يعودوا من الطبقة الراقية ذاتها، بالقيام بقفزات مظلية مثيرة على الشاطئ.

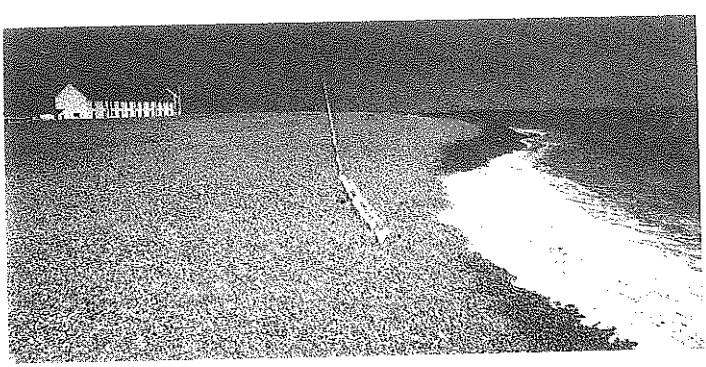

في عام 1936 اضطر لبيع باودسي مانور Bawdsey Manor للدولة. وكان عائد البيع كافيًا لتسوية ديون الضرائب ولتغطية نفقات ولعه بالطيران الذي غطى على كل شيء. وبخلاف ذلك كان رايموند كويتلر الذي عاش عند تسليمه لممتلكات العائلة في مسكن السائقين السابق، يحرص عند سفره إلى لندن على النزول فقط في فندق «دورشستر Dorchester» الفخم. وكبرهان على التقدير الخاص الذي يولونه له كان يُستقبل في كل مرة بطقوس آل كويتلر، حيث يُرفع علمٌ عليه طائر دراج ذهبي على خلفية سوداء بجانب العلم البريطاني. امتياز نادر من المحتمل أن يعود الفضل فيه إلى السمعة النبيلة التي تمتع بها لدى العاملين بالفندق المتحفظين جدًّا، وذلك منذ أن تخلى عن الأراضي التي اشتراها عم أبيه، وعلى ما يبدو من دون أي ندم. وبغض النظر عن بعض الأموال السائلة لم تَبْقَ لديه أي ممتلكات أخرى سوى طائرته ومدرج إقلاع في ساحة معزولة. ومثلما تفككت ضيعة بودسي، تفككت في سنوات ما بعد الحرب العالمية الأولى ضياع عديدة. تُركت البيوت إما عرضة للانهيار وإما استخدمت لأغراض أخرى كمدارس داخلية للأولاد، وسجون ومشافٍ للمختلين عقليًّا ودور للمسنين ومراكز لاستقبال اللاجئين من الرايخ الثالث. كانت بودسي مانور لفترة طويلة مقرًّا ومعملًا لمجموعة أبحاث، كانت تعمل تحت إدارة روبرت واطسون - واط لتطوير نظام الرادار الذي أصبح يغطي بشبكته غير المرئية كل أنحاء الفضاء. مرارًا وتكرارًا يمر المرء عندما يتجول فوق الهضبة على ثكنات عسكرية ومساحات مسيجة حيث تقبع مخازن الأسلحة شبه مختبئة خلف أشجار الصنوبر البري المتفرقة في هناجر مموهة وخنادق نما فوقها العشب، وبهذه الأسلحة يمكن - عند الضرورة - أن تتحول بلدان وقارات بأكملها إلى أكوام من الحجر والرماد يتصاعد منها الدخان. داهمني هذا التصور حين كنت على مسافة غير بعيدة من أورفورد وشعرت بالتعب من الطريق الطويل وحاصرتني

عاصفة رملية. اقتربتُ من الطرف الشرقي لغابة ريندلسهام التي تمتد لعدة أميال مربعة والتي تحول معظمها إلى حطب في ليلة الإعصار في 16أكتوبر 1987. خلال بضع دقائق قليلة أظلمت السماء التي كان نورها ساطعًا للتو وهبت ريح كانت تنثر الغبار فوق الأراضي الزراعية القاحلة من خلال دوامات تدور بشكل جنوني.

بدأ ما تبقى من ضوء النهار يتلاشى، واختفت معالم الأشياء في الغسق ذي اللون البني الطيني الخانق لكل شيء الذي سرعان ما أخذت الزوابع تزعزعه بلا هوادة. قرفصتُ خلف جدار من جذوع الأشجار المتكومة بعضها بجانب بعض ورأيت الظلام يرخي سدوله تدريجيًّا في الأفق. عبثا حاولت أن استكشف عبر الفوضى التي تزداد كثافة أشياء كانت لا تزال لتوها موجودة في مرمى البصر، لكن مع كل لحظة ضاق المكان أكثر فأكثر. بل سرعان ما اختفى كلُّ خطٍّ أو شكل بالقرب مني. اندفع تيار الغبار الناعم من اليسار إلى اليمين ومن اليمين إلى اليسار ومن كل جهة في كل اتجاه. لقد ارتفع عاليًا ثم تساقط كالمطر من علٍ. ثم لم يكن ثمَّت

شيء يُرى سوى وميض مرتجف استمر على الأرجح لنحو ساعة. ومثلما عرفت لاحقًا فقد شهدت المناطق الداخلية بعيدًا عن الساحل تقلبات جوية عنيفة. عندما هدأت العاصفة ظهرت تدريجيًّا من وسط الظلمة كثبان الرمال المموجة الشكل التي دفنت حطب الغابة تحتها. زحفت خارجًا من التجويف الذي تشكل من حولي منقطع النفس بفم وحلق جافين وكأنني، هكذا فكرت، الناجي الوحيد من قافلة هلكت في الصحراء. من حولي ساد صمت القبور، لا نسمة واحدة هبت، ولا صوت طائر يُسمع، لا حفيف، لا شيء، ورغم سطوع الضوء أكثر من ذي قبل، ظلت الشمس التي كانت ساعتها في أوجها مختفية خلف هذه السحابة من مسحوق حبوب الطلع الناعم كالغبار، التي ظلت عالقة في الهواء لفترة طويلة. هذا ما سيتبقى من الأرض التي تطحن نفسها بنفسها تدريجيًّا. طوال بقية الطريق كنت في حالة من الخدر. أتذكر فقط أن لساني قد التصق بسقف حلقي وظننت أنني أسير في مكاني. وعندما وصلت أخيرًا إلى أورفورد، قمت أولًا بالصعود إلى سطح برج الحصن حيث يمكن للمرء أن ينظر من أعلى عبر بيوت الآجر الخفيضة في المنطقة وعبر الحدائق الخضراء والأهوار الباهتة اللون إلى شاطئ البحر الذي يتلاشى في غبش الأفق شمالًا وجنوبًا. انتُهي من بناء حصن أورفورد عام 1165 وظل لقرون طويلة هو حائط الصد الأهم في وجه حملات الغزو التي كانت تشكل تهديدًا مستمرًا. ولم تتخذ إجراءات دفاعية جديدة إلا عندما فكر نابليون في غزو الجزر البريطانية - من المعروف أن مهندسيه الجسورين قد خططوا لبناء نفق تحت بحر المانش وحلموا بتكوين أسطول عملاق من المناطيد - وقد تضمنت هذه الإجراءات بناء حصون دائرية منيعة على الشاطئ لا تفصل بينها إلا بضعة أميال قليلة. وبين فليكستو وأورفورد وحدهما تمَّت سبعة من هذه الحصون المسماة بأبراج مارتيللو، التي لم

تخضع قط، حسب علمي، لأي اختبار لجدواها.

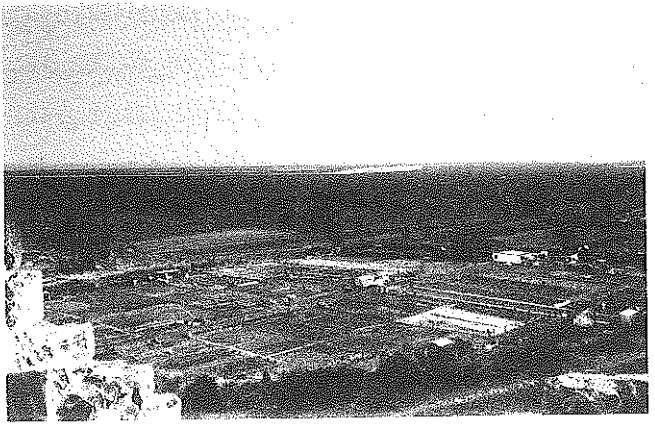

وسرعان ما سُحبت الحاميات العسكرية منها وظلت الأبنية الخاوية منذ ذلك الحين مأوى للبوم على وجه الخصوص، فقد كان ينطلق من فوق أسوار الحصون ليقوم بتحليقه الليلي في سكون. في مطلع الأربعينيات من القرن العشرين بنى المهندسون انطلاقًا من بودسي وبطول الساحل الشرقي صواري الرادار الأولى، وهي عبارة عن أبنية خشبية ضخمة يفوق ارتفاعها ثمانين مترًا، كان يمكن سماع أزيزها في الليالي الهادئة، ولم يكن أحد ليعلم شيئًا عن الغرض منها مثلما هي الحال مع مشاريع سرية عديدة أخرى كان يجري تطويرها في الماضي في مركز الأبحاث العسكرية في محيط أورفورد. وأتاح كل هذا بالطبع المجال لتخمينات حول شبكة لا مرئية من الإشعاعات المميتة، وعن غاز أعصاب جديد أو أيضًا عن سلاح دمار شامل تفوق آثاره كل خيال ممكن، وكان من المفترض أن يُستخدم في حال حدوث أي محاولة للإنزال من قبل الألمان. وبالفعل كان يوجد بأرشيف وزارة الدفاع قبل فترة وجيزة ملف يحمل عنوان إخلاء سكان «شينغل ستريت»، في سافوك. وعلى النقيض من الملفات المماثلة التي يتم الكشف عنها في العموم بعد ثلاثين عامًا،

كان من المفروض أن يبقى هذا الملف سريًّا لمدة خمسة وسبعين عامًا لأنه يتضمن، وفقًا لشائعةٍ لم يكن وأدُها ممكنًا، تفاصيل عن حادث فظيع وقع في «شينغل ستريت»، وليومنا هذا لم يتحمل أحد مسؤوليته أمام الرأي العام فيما يخص ذلك. وهكذا تناهي إلى سمعي مثلًا أنه قد جُربت في «شينغل ستريت» في ذاك الوقت أسلحة بيولوجية طورت من أجل جعل بقاع كاملة غير قابلة للسكنى. وسمعت أيضًا عن نظام مواسير يمتد إلى البحر، وفي حال حدوث غزو يندلع بواسطتها حريق نفطي بسرعة انفجارية وبكثافة من شأنها أن تجعل سطح الماء يبدأ في الغليان. وخلال هذه التجارب يُقال إن فرقة كاملة من المهندسين العسكريين الإنجليز قد لقيت حتفها بطريق الخطأ، إن جاز قول ذلك. وحسبما أفاد شهود فقد قضى أفراد الفرقة على أشنع نحو، وقد زعم هؤلاء الشهود أنهم قد رأوا بأعينهم الجثث المتفحمة والمتشنجة من الألم مسجاة على الشاطئ أو في البحر قابعة في قواربها. في حين ادعى آخرون أن من قُتلوا في الجدار الناري هم من فرق الإنزال الألمانية وقد ارتدوا زي الجيش الإنجليزي. وعندما أصبح ملف «شينغل ستريت» أخيرًا متاحًا للرأي العام سنة 1992 بعد حملة طويلة أطلقتها الجريدة المحلية هناك، تبين أنه بخلاف الإشارة إلى بعض تجارب غاز غير ضارة، لم يتضمن الملف أي شيء من شأنه أن يبرر تصنيفه ملفًا سريًّا ويؤكد صدق الحكايات الشائعة منذ نهاية الحرب. وقد كتب أحد المعلقين قائلًا: على ما يبدو أن بعض المواد الحساسة قد سُحبت من الملف قبل فتحه، وهكذا يستمر غموض «شينغل ستريت». ولم تكن شائعات كتلك المتعلقة ب «شينغل ستريت» لتصمد على هذا النحو، لو لم تقم وزارة الدفاع خلال فترة الحرب الباردة بمواصلة تشغيل ما يعرف بمؤسسات أبحاث الأسلحة السرية على ساحل سافوك. وقد أُحيط عملها بأقصى قدر من الكتمان. فمثلًا، لم يكن بيد سكان أورفورد

في أحسن الأحوال سوى تخمينات بشأن ما يجري في موقع الأبحاث في شبه جزيرة أورفوردنيس المقابلة التي كان يمكنهم رؤيتها بوضوح من داخل المنطقة، لكن الوصول إليها كان عمليًّا غير ممكن، مثلها مثل صحراء نيفادا أو الجزر المرجانية في المحيط الهادئ.

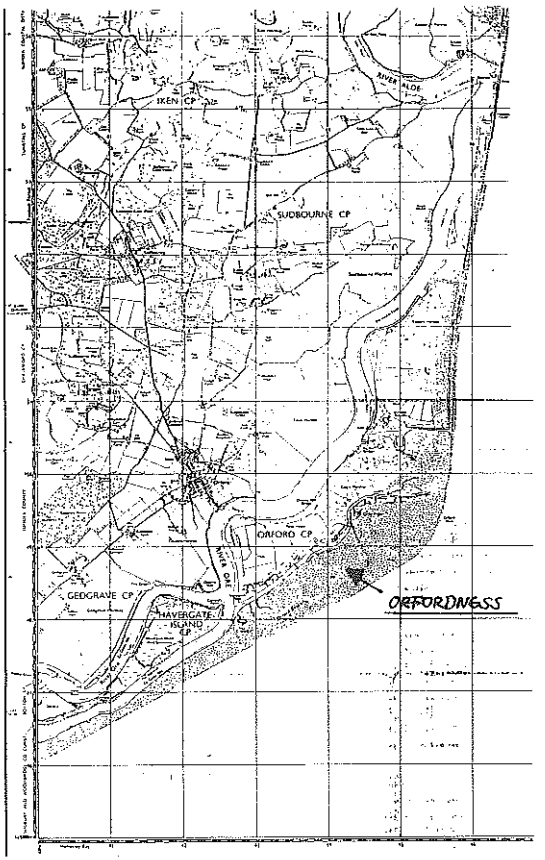

من جانبي ما زلت أذكر بدقة أنني قد وقفت خلال زيارتي الأولى لأورفورد في عام 1972 في الميناء وعبرت بنظري إلى تلك المنطقة التي غالبًا ما يكتفي السكان المحليون بنعتها بالجزيرة The Island وهي

أشبه ما تكون بمستعمرة عقاب في الشرق الأقصى. وكنت قد درست قبل ذلك على الخريطة الشكل المميز لساحل أورفورد وانجذبت للسان أورفوردنيس البري الذي يبدو خارجًا عن الحدود. لقد تزحزح عبر آلاف السنين، حجرًا وراء حجر، من الشمال أمام مصب نهر الأولد بحيث أن مجراه السفلي المتأثر بالمد والجزر والمسمى بنهر أور، وقبل أن يصب في البحر، يجري لمسافة تقارب اثني عشر ميلًا داخل خط الساحل الحالي. وإذا كان العبور إلى «الجزيرة» خلال إقامتي الأولى في أورفورد مستبعدًا تمامًا، فلم يعد الآن ثمَّت ما يحول دون ذلك. لقد فتحت وزارة الدفاع قبل عدة سنوات أبواب مركز الأبحاث السري. وعرض أحد الرجال الجالسين بلا عمل على حائط الميناء عليَّ ببساطة أن يقلني إلى هناك مقابل بضعة جنيهات وأن يعيدني لاحقًا حينما ألوح له من الجهة الأخرى، بعد أن أكون قد انتهيت من جولتي. وقد حكى لي أثناء عبورنا النهر بالقارب الأزرق الذي يعمل بالديزل، أن الناس لا يزالون يتجنبون أورفوردنيس إلى حد كبير. وحتى صيادو السمك الشاطئيون المعتادون على الوحدة قد تخلوا بعد عدة محاولات عن رمي صنانيرهم ليلًا هناك، بزعم أن الأمر غير مُجدٍ. ولكن الحقيقة هي أن الوحشة التي يتسم بها هذا الموقع المزروع وسط العدم كانت غير محتملة وقد أدت فعليًّا في بعض الحالات إلى أمراض نفسية دامت لفترات طويلة. عند وصولنا إلى الضفة الأخرى ودعت المراكبي وتجولت بعد تسلقي سدًّا عاليًا على طريقٍ أسفلتي غطته الحشائش عبر حقل ممتد عديم اللون. كان يومًا كئيبًا ومقبضًا سكنت فيه الريح سكونًا تامًّا بحيث لم تصدر أي حركة ولا حتى من سنابل حشائش البراري الرقيقة. بعد دقائق قليلة بدا لي كأنني أسير عبر بلد لم يُكتشف بعد. وشعرتُ، كما ما زلت أذكر الآن، بالتحرر التام وفي الوقت ذاته بكآبة لا حدود لها. خلا ذهني من أي فكرة. ومع كل خطوة كنت أخطوها كان الفراغ يتعاظم في داخلي ومن حولي ويزداد السكون عمقًا. وغالبًا لذلك

غمرني، حسبما أظن، فزع مميت عندما انطلق أرنب هاربًا من أمام قدميَّ مباشرة، وقد كان مختبئًا بين الحشائش على طرف الطريق. جرى في البداية بطول الطريق الأسفلتي المهدم ثم غير اتجاهه مرة أو اثنتين ليدخل الحقل ثانية. لا بد أنه قد تكور منقبضًا وتسمر في مكانه أثناء اقترابي وقد تسارعت دقات قلبه، إلى أن كادت أن تفوته فرصة إنقاذ حياته. وتحولت اللحظة الخاطفة التي دهمه الشلل فيها، إلى حركة الهروب المذعورة، وكانت أيضًا اللحظة التي تسلل فيها خوفه إليّ. ما زلت أرى بوضوح غير منقوص - يفوق قدرتي على الفهم - ما جرى في لحظة الفزع تلك التي لم تكد تتعدى جزءًا من الثانية. أرى طرف الأسفلت الرمادي وكل عود من أعواد الحشائش، أرى الأرنب وهو يقفز من مخبئه بأذنيه المتهدلتين إلى الوراء ووجهه الذي بدا من فرط الفزع متسمرًا ومشطورًا وإنسانيًّا على نحو غريب. وأرى نفسي في عينه التي التفتت إلى الوراء أثناء فراره وكادت أن تخرج من رأسه جراء الخوف، أراني وقد توحدت معه. فقط بعدها بنصف ساعة، عندما وصلت لحافة المنحدر العريضة التي تفصل السهل العشبي عن الضفة الشاسعة المفروشة بالحصى المنحدرة باتجاه شاطئ البحر، عندئذٍ فقط سمعت تدريجيًّا الدم يهدر في شرايين. ظللت لفترة طويلة واقفًا على الجسر المؤدي إلى أرض مؤسسة الأبحاث السابقة.

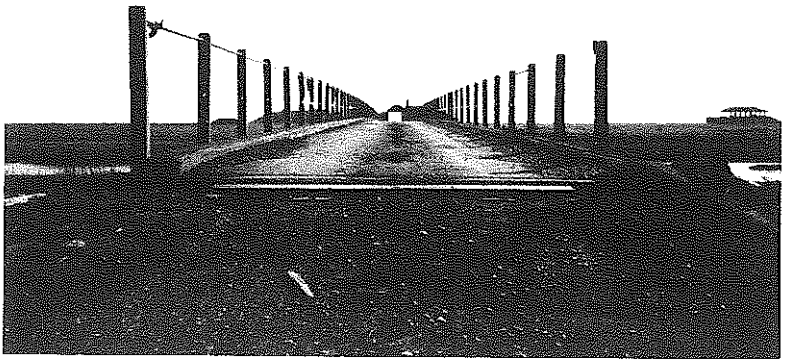

وورائي في الغرب تبدت على نحو يصعب رؤيته التلال الصغيرة للأراضي المأهولة. أما شمالًا وجنوبًا فقد لمع الحوض الغريني لذراع النهر الميت الذي تخلله مجرى مائي هزيل وضيق، وفي الأمام لم يكن ثمَّت شيء آخر سوى الدمار.

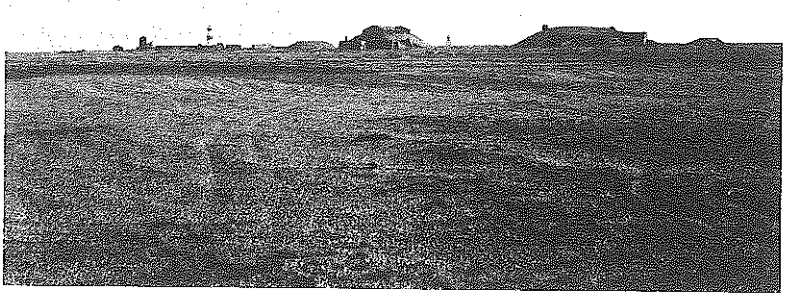

من بعيد برزت هذه المباني الخرسانية المحاطة بكميات هائلة من

الحجارة المكوّمة التي عمل فيها خلال معظم فترات حياتي مئاتٌ من التقنيين من أجل تطوير أنظمة للتسلح - غالبًا بسبب شكلها المخروطي - وكأنها تلال الدفن التي كان يُدفن فيها أصحاب السلطة في عصور ما قبل التاريخ وتدفن معهم فيها معداتهم وكل فضتهم وذهبهم. وقد تعزز الانطباع بأنني موجود في مكان يتخطى في أغراضه ما هو دنيوي من خلال عدة مبانٍ تشبه المعابد ولم أتمكن بأي طريقة من إيجاد أي رابط بينها وبين المنشآت العسكرية. لكن كلما اقتربت من الأطلال، تطاير هذا التصور عن جزيرة الموتى الغامضة وظننت أنني أسير وسط أنقاض

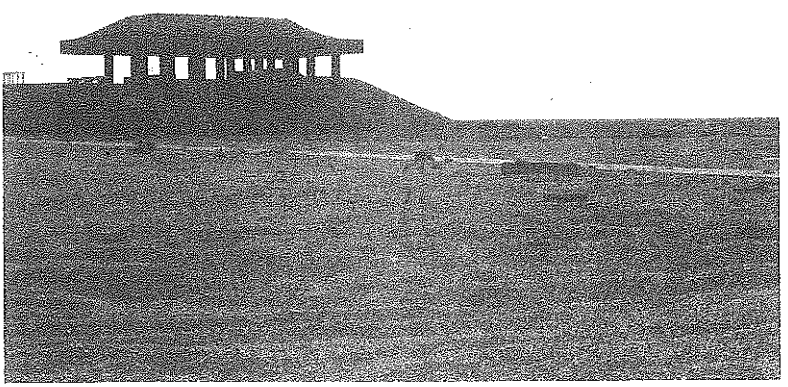

حضارتنا التي دُمرت جراء كارثة مستقبلية. مثل غريب وُلد من بعد نهاية هذه الحضارة، يتجول من دون أي معرفة بطبيعة مجتمعنا وسط جبال من المعدن وحطام الماكينات التي خلفناها، كان لغزًا بالنسبة إليَّ أن أعرف أي كائنات قد عاشت هنا، وما فائدة الأجهزة البدائية في داخل كل خندق، وفائدة قضبان السكة الحديد تحت الأسقف والخطاطيف على الجدران التي لا يزال بعضها مبطنًا بالقيشاني، ورؤوس رشاشات المياه

والمزالق والبالوعات. لكنني أثناء كتابتي لهذه السطور لا أستطيع إلى حد الآن أن أحدد في الحقيقة المكانَ الذي كنت فيه في أورفوردنيس ولا في أي وقت ذهبت فيه إلى هناك في ذاك اليوم. في نهاية المطاف، وهذا ما أعرفه، تجولت بطول السد المرتفع، من جسر سور الصين مرورًا ببيت المضخات القديم في اتجاه المرسى، على يساري وسط السهل ثكنة من الصفيح سوداء اللون وعلى اليمين على الجانب الآخر من النهر كانت اليابسة. عندما جلست على حاجز الأمواج أنتظر المراكبي، برزت شمس الغروب من بين السحب وغمرت شاطئ البحر الآخذ في الانحسار بشكل كبير. ارتفع المد في النهر ولمع الماء مثل الصفيح الأبيض ومن أبراج الراديو التي سمقت عالية من وسط مروج الأهوار صدر صرير منتظم لا يكاد يُسمَع. كانت أسطح وأبراج قلاع أورفورد قريبة المنال، وتبرز من بين قمم الأشجار. هناك، هكذا قلت لنفسي، كنت ذات مرة في موطني. ثم مع الضوء المواجه الذي يغشي البصر أكثر فأكثر، بدا لي فجأة كأن أشرعة طواحين الهواء التي اختفت منذ زمن بعيد، تدور في ثقل مع الريح هنا وهناك وسط الألوان الآخذة في القتامة.

9

بعد الإقامة في أورفورد سافرتُ بالحافلة الحمراء التابعة لشركة المقاطعات الشرقية باتجاه الداخل إلى يوكسفورد مرورًا بوودبريدج ومن هناك تحركت سيرًا على الأقدام في اتجاه الشمال الغربي على طريق روماني قديم في المنطقة التي لا يسكنها إلا عدد قليل جدًّا من السكان وتمتد أسفل بلدة هارلستون الريفية. سرت لمدة تقارب أربع ساعات ولم أرَ شيئًا سوى حقول القمح الممتدة حتى الأفق التي حُصد معظمها والسماء التي غطتها سحب دانية والمزارع التي تظهر بانتظام على بعد ميل أو ميلين بعضها من بعض وتحيط بها في معظم الأحيان جزر أشجار صغيرة. لم يقابلني أي سيارة تقريبًا أثناء سيري في هذا الخط المستقيم الذي لم يبدُ أن له نهاية. ولم أكن أعرف آنذاك وما زلت لا أعرف ليومنا هذا، إن كنت قد وجدت في السير وحيدًا نعمة أم عذابًا. في هذا اليوم الذي ظل في ذاكرتي ثقيلًا كالرصاص تارة وعديم الوزن تارة أخرى، كانت السحب تنقشع قليلًا بين الحين والآخر. وسقطت أشعة الشمس المتشعبة على الأرض وأضاءت هذه البقعة أو غيرها، تمامًا كما كانت تُصور في الماضي في اللوحات الدينية التي كانت ترمز لحكم قوة عُلْيا تفوقنا. كان الوقت ما بعد الظهيرة عندما وصلت إلى طريق السيارات الذي يقود من الطريق الروماني عبر ما يعرف بمطب الماشية ومرورًا بأحد المروج إلى «مزرعة موت Moat Farm» المحاطة بخندق مائي معتم، حيث يعمل أليك جيرارد منذ نحو عقدين على بناء نموذج لجبل

الهيكل في القدس. بعد تسريحه من عمله في مدرسة القرية، أُغرم أليك جيرارد الذي يرجح أن يكون في بداية الستينيات من عمره وعمل طوال حياته في الريف، ببناء النماذج. وقضى مثله مثل كثيرين من بنائي النماذج ليالي شتاء طويلة في البداية في تركيب كل أنواع الزوارق والقوارب الشراعية والسفن الشهيرة مثل Cutty Sark وMary Rose من قطع خشبية صغيرة تُلصق بالغراء. هذا الانشغال المتنامي الذي أضحى شغفًا وكذلك اهتمامه كواعظ ميثودي هاوٍ بالأسس الواقعية للقصص التوارتية، قد جعلاه يفكر ذات ليلة في نهاية الستينيات وأثناء إطعامه للماشية - كما قال لي - في بناء جبل الهيكل المقدسي، بالضبط على النحو الذي كان فيه منذ بداية التقويم الميلادي. «مزرعة موت» بيتٌ ساكن وكئيب. في كل مرة أتيت فيها للزيارة قادمًا من الشارع عبر الجسر العابر للخندق المائي في اتجاه باب المدخل، لم أكن أرى أي شخص. كذلك فإنَّ دقَّ مقرعة الباب النحاسية الثقيلة لا يستدعي خروج أحد من داخل المنزل. بلا حراك تقف شجرة الأوركاريا التشيلية في ساحة المنزل الأمامية. حتى البط في الخندق المائي لا يحرك ساكنًا. ولو نظرت عبر النافذة على الأثاث الذي ظل باقيًا وغافيًا في مكانه منذ زمن بعيد، أي إلى مائدة الطعام الناصعة كالمرآة والكراسي والكومود المصنوع من الماهوغني والمقاعد ذات المسند المكسوة بالمخمل والمدفأة وقطع الزينة والتماثيل البورسيلين الصغيرة الموضوعة على حافة المدفأة، لتولد لديك الانطباع أن سكان هذا البيت قد سافروا أو ماتوا.

لكن بمجرد أن ترغب في أن تدير ظهرك وتمشي بعد انتظار طويل وتنصت وشعور بأنك ربما جئت في وقت غير مناسب، تلحظ أن أليك جيرارد يقف في انتظارك بعيدًا على جانب الطريق. وهكذا كان الأمر في هذا اليوم في أواخر الصيف، عندما أتيت سيرًا على قدميَّ من يوكسفورد

إلى هنا. كالعادة كان أليك جيرارد يرتدي بذلة العمل الخضراء وعدسة الساعاتي. تبادلنا بعض الكلمات الخالية من المضمون أثناء دنونا من الحظيرة، حيث يقترب بناء المعبد من الاكتمال. لكن عملية اكتمال البناء تسير ببطء شديد جدًّا بسبب مساحة النموذج التي تبلغ نحو عشرة أمتار مربعة، وبسبب ضآلة ودقة الأجزاء المفردة، بحيث يصعب التعرف على مدى التقدم الذي أُحرز من عام لعام. رغم أن أليك جيرارد قد قال لي إنه قد قلص بمرور الوقت العملَ في الزراعة أكثر فأكثر، لكي يتفرغ كلية لبناء المعبد. لا يزال لديه بعض الماشية، لكنه قال إن احتفاظه بها يعود بالأحرى لحبه لها أكثر من سعيه لتحقيق الربح. والأراضي الزراعية

المحيطة بالمنزل، كانت، كما رأيت بعيني، كلها تقريبًا مجرد مروج. وكان يبيع القش وهو لا يزال على عوده إلى الجيران. أما هو نفسه فلم يركب أي جرار زراعي منذ زمن بعيد. ولا يكاد يمر يوم لا يعمل فيه على الأقل بضعَ ساعات على بناء المعبد. وقد قضى الشهر الماضي كله فقط في تلوين نحو مئة تمثال صغير لا يكاد يبلغ طول أي منها سنتيمترًا واحدًا، وفي تلك الأثناء فاق عدد هذه التماثيل في أرض المعبد الألفين. ناهيك، قال أليك جيرارد، بالتغييرات التي يتحتم علي أن أجريها على الهيكل المعماري باستمرار، إذا ما أفضت أبحاثي إلى نتائج جديدة. فالآثاريون مختلفون كما هو معروف على الموقع الدقيق للمعبد، كما أن رؤياي التي حققتها بجهد جهيد ليست بأي حال من الأحوال موثوقة أكثر من رأي العلماء المختلفين فيما بينهم، حتى لو كان النموذج الذي بنيته هو أدق تقليد للأصل، أُنجز حتى الآن. يأتي الزوار إليه بانتظام من مختلف أنحاء العالم، قال أليك جيرارد، مؤرخون من أوكسفورد وباحثون في التوراة من مانشستر، خبراء تنقيب عن الآثار من الأراضي المقدسة، يهود حريديم من لندن وممثلون للطوائف البروتستانتية في كاليفورنيا، وهؤلاء الأخيرون عرضوا عليه بناء المعبد من جديد في صحراء نيفادا وفقًا للمعلومات التي توصل إليها. وتزاحمت عليه المحطات التليفزيونية ودور النشر بخطط كثيرة، بل حتى اللورد روتشيلد عرض عليه أن يضع نموذج المعبد بعد الانتهاء منه في قاعة الاستقبال في قصره الريفي بالقرب من أيلزبيري ويجعله متاحًا للجمهور. وبالنسبة له شخصيًّا فإن الميزة الوحيدة لهذا الاهتمام الذي أثاره عمله هو أن جيرانه وكذلك أفراد العائلة الذين صرحوا بدرجة أو بأخرى بشكوكهم في صحة قواه العقلية، تراجعوا الآن قليلًا عن تعليقاتهم المستخفة. قال أليك جيرارد إنه يتفهم تمامًا أن من السهل اعتبار شخصٍ مجنونًا لكونه يغرق عامًا بعد عام في

أوهامه وينشغل في هذا الإصطبل الخالي من التدفئة بعمل يدَوي يتخطى كل الأطر المعتادة، وهو في نهاية المطاف خالٍ من المعنى وعديم النفع. خصوصًا عندما يغفل هذا الشخص في الوقت ذاته عن زراعة الحقول والحصول على أموال الدعم المخصصة له. صحيح أنه لم يكترث أبدًا لرأي جيرانه الذين ازدادوا سمنة بسبب سياسة الاتحاد الأوربّي الزراعية المثيرة للسخرية. لكن أن يبدو في بعض الأحيان بالنسبة لزوجته وأولاده كأنه فقد عقله، فهذا ما كان يصيبه بكآبة تزيد في حدها أحيانًا على ما تُقر به نفسه. قال أليك جيرارد: ولهذا كان اليوم الذي دخل فيه اللورد روتشيلد بسيارته الليموزين إلى مزرعتي يمثل حقًا منعطفًا مهمًا في حياتي، لأنني اُعتُبِرت منذ ذاك اليوم بين أهلي عالمًا منشغلًا بأشياء مهمة. ومن ناحية أخرى فبالطبع تعيقني أعداد الزائرين المتزايدة باستمرار عن العمل. والعمل الذي لم ينجز بعد، لا يزال هائلًا. بل يمكن القول إن إنجازه يبدو لي حاليًا أصعب مما كان عليه الحال قبل عشرة أعوام أو خمسة عشر عامًا، نظرًا إلى معارفي التي أصبحت أكثر دقة. ذات مرة سألني أحد هؤلاء البروتستانت الأمريكيين، إن كان تصوُّر المعبد قد جاءني بوحي إلهي. وعندما قلت له إن الأمر لا علاقة له بالوحي الإلهي، كان محبطًا. لو كان وحيًا إلهيًا، فلماذا كان علي أن أقوم بكل هذه التغييرات؟ لا، إنه مجرد بحث وعمل، ساعات لا نهائية من العمل.

واستطرد قائلًا، على المرء أن يدرس المشناه وكل المصادر المتاحة الأخرى والعمارة الرومانية والخصائص المُميزة لحصن متسادا وقصر هيروديون اللذين شيدهما هيرودس، فبهذه الطريقة فقط يمكنك التوصل للأفكار السليمة. كل عملنا لا يرتكز في نهاية المطاف على شيء سوى الأفكار التي تتغير مع مرور الزمن ولا يندر أن تجعل المرء يمزق ثانيةً ما كان يعتبره منتهيًا ويبدأ من جديد. ربما لم أكن أقدم إطلاقًا على بناء

المعبد لو كانت لدي فكرة عن المتطلبات التي يحتاج إليها عملي الذي يزداد تفاقمًا ودقة. في النهاية إذا ما كان ينبغي عمومًا توليد الانطباع بمطابقة الحياة الحقيقية، فإن كل واحد من مكعبات سقف الأعمدة التي يبلغ حجمها سنتيمترًا مكعبًا وكل واحد من مئات الأعمدة وكل حجر من آلاف الأحجار المشذبة الصغيرة، كلها تُصنع يدويًّا وتُلوَّن بشكل خاص. والآن بعد أن بدأت أشعر تدريجيًّا بضعف بصري، أتساءل أحيانًا إن كنت سأنجز هذا البناء في يوم من الأيام، وما إذا كان كل ما أنجزته حتى الآن هو عمل بائس وسيئ. لكن في أيام أخرى عندما يدخل ضوء المساء عبر النافذة وعندما أترك المجال لرؤيتي الشاملة أن تفعل مفعولها، أرى عندئذٍ لبضع لحظات المعبد بأبهائه ومساكن الحاخامات والحاميات العسكرية الرومانية والحمامات وسوق الأطعمة، ومواقع القرابين والأروقة ومحال الصيارفة، والبوابات الضخمة والسلالم والساحات ومناطق الأطراف والجبال في الخلفية، وكأن كل شيء قد اكتمل وكأنني أنظر إلى جنان الأبدية. وفي النهاية أراني أليك جيرارد صورة من الجو لمنطقة جبل الهيكل كما هو اليوم معروضة على صفحتين في مجلة سحبها من أسفل كومة من الورق: أحجار بيضاء وأشجار سرو داكنة وفي الوسط القبة الذهبية اللامعة للمسجد الأقصى التي ذكرتني على الفور بالمفاعل الذري الجديد في سايزويل الذي يضيء البر والبحر في الليالي المقمرة وكأنه مكان مقدس. قال أليك جيرارد ونحن نغادر الورشة: إن المعبد لم يدم أكثر من مئة عام. ربما يبقى هذا لمدة أطول قليلًا. على جسر الخندق المائي الصغير، حيث وقفنا لبعض الوقت حكى لي أليك جيرارد عن ولعه بالبط الذي كان بعض منه يتجول في الماء في سكون ويلتقط الطعام الذي كان يخرجه جيرارد من جيب سرواله من حين لآخر وينثره له. كنت أرعى البط دائمًا، حتى في طفولتي، ودائمًا ما بدا لي أن لون

ريشه وخصوصًا الأخضر الداكن والأبيض الناصع هو الإجابة الوحيدة المتاحة عن الأسئلة التي تحركني منذ الصغر. وبقدر ما أستطيع أن أعود بالذاكرة كان الأمر كذلك دائمًا. وعندما قلت له عند الوداع إنني أتيت من يوكسفورد على قدمي وإنني أرغب في مواصلة السير إلى هارلستون، قال أليك إنني أستطيع أن أذهب معه بالسيارة، لا سيما أنه سيذهب بأي حال للمدينة لقضاء غرض ما. خلال الربع ساعة التي استغرقتها المسافة إلى هارلستون جلسنا في كابينة شاحنته متجاورين وصامتين. ووددت ألا تُكتب نهاية لهذه الرحلة القصيرة وأن نستمر في طريقنا all the way to Jerusalem. لكن عوضًا عن ذلك كان علي أن أنزل في «سوان هوتيل Swan Hotel» في هارلستون، وهو بيت عتيق يعود لمئات السنين. وفي غرفه تكدست، كما تبين لي، أفظع أنواع الموبيليا التي يمكن للمرء تصورها. كان ظهر السرير الوردي اللون عبارة عن أدراج وأرفف متعددة من الفورمايكا بلون أسود رخامي، تشبه هيكلًا كنسيًّا وكانت طاولة التسريحة ذات الأرجل الرفيعة مزدانة بزخارف أرابيسك مذهبة والمرآة المثبتة في باب خزانة الملابس كانت تمنح من يقف أمامها مظهرًا مشوهًا. ونظرًا لأن الأرضية الخشبية كانت غير مستوية إلى حد كبير ومنحدرة بشدة تجاه النافذة، كانت كل قطع الأثاث مائلة على نحو ما بحيث يظل الشعور بأنك موجود في بيت آيل للسقوط يلاحقك حتى تغط في سبات عميق. ولذلك شعرت بارتياح ما عندما غادرت فندق «سوان» في الصباح التالي وخرجت في اتجاه الشرق من المدينة إلى الحقول. لم تكن المدينة التي عبرتها الآن في منحنًى واسع أكثر كثافة في سكانها من تلك التي تجولت فيها في اليوم السابق. بعد كل ميلين تقريبًا يمر المرء بقرية يندر أن يزيد فيها عدد البيوت على اثني عشر بيتًا وكل هذه القرى بلا استثناء تسمى على اسم القديس الحامي لأبرشيتها، أي

سانت ماري وسان مايكل وسان بيتر وسان جيمس وسان أندرو وسان لورانس وسان جون وسان كروس. ولهذا يطلق السكان على هذه البقعة اسم The Saints أي منطقة القديسين. ويقولون مثلًا: «اشترى أرضًا في القديسين. السحب ستغطي القديسين. هذا المكان موجود في بقعة ما في القديسين...» وهكذا دواليك. أنا أيضًا فكرت عند ذهابي إلى هذا السهل المستوي الخالي في معظم أنحائه من الأشجار لكنه رغم ذلك غير واضح المعالم، أنني ربما قد أتوه في القديسين. وكثيرًا ما أرغمني نظام طرق المشاة الإنجليزي الملتوي على تغيير اتجاهي أو أن سير عبر الحقول حسب الحظ في حال تعرض الطريق المرسوم على الخريطة للحرث، أو غطته النباتات. لعدة مرات ظننت أنني قد تهت، إلى أن بان هدفي عند الظهيرة في الأفق، وهو البرج الدائري لكنيسة إلغيتشول سانت مارغريت Ilketshall St. Margret وبعد نصف ساعة جلست مستندًا بظهري إلى شاهد قبر في مدفن القرية التي لم يطرأ تقريبًا أي تغير على تعداد سكانها منذ القرون الوسطى. ولم يكن من النادر في القرنين الثامن والتاسع عشر أن يعيش القسس الذين ينالون منصبًا كنسيًّا في هذه المنطقة النائية مع عائلاتهم في أقرب مدينة صغيرة. ويأتون مرة أو مرتين في الأسبوع لإقامة القداس أو الاطمئنان قليلًا على أحوال الرعية. ومن بين قساوسة إلغيتشول سانت مارغريت كان الأب أيفس Ives الذي كان عالم رياضيات وخبيرًا في اللغة اليونانية وآدابها يحظى باحترام كبير، وقد أقام مع زوجته وابنته في بانغي، وقيل عنه إنه كان يحب أن يشرب كأسًا من الشيري عند الغسق. في عام 1795 تكررت خلال شهور الصيف زيارات نبيل فرنسي شاب، هرب من أهوال الثورة إلى إنجلترا. يخوض أيفس معه نقاشات عن ملاحم هوميروس وفن الحساب لدى نيوتن والرحلات التي قام بها كلاهما إلى أمريكا، وعن المسافات التي قطعاها هناك والغابات

الشاسعة والأشجار ذات الجذوع السامقة التي تفوق في ارتفاعها أعمدة أضخم الكاتدرائيات. وعن شلالات نياغرا وما يعنيه هديرها الأبدي، لو لم يقف أيضًا إنسان على حافة الشلال ويدرك عزلته في هذا العالم. كانت شارلوت ابنة الخوري البالغة من العمر 15 عامًا تنصت بتفانٍ متنام لهذه الحوارات وخصوصًا عندما يؤلف الضيف النبيل قصصًا خيالية عن محاربين يرتدون زينة من الريش وعن فتيات الهنود الحمر اللائي تكشف بشرتهن الداكنة عن شيء من الشحوب الأخلاقي. بل ذات مرة اضطرت من فرط تأثرها إلى أن تهرع إلى الحديقة، عندما حكى أن كلبًا شجاعًا يمتلكه أحد الزهاد قد قاد فتاة كهذه تنجذب روحها إلى المسيحية عبر برية موحشة ومليئة بالمخاطر. وعندما سألها الراوي لاحقًا عما يؤثر فيها بشكل خاص في وصفه، صرحت شارلوت بأنها صورة الكلب بالأخص وهو ينير الطريق عبر الليل لأتالا الممتلئة رعبًا بالفانوس الذي حمله على عصا أمسكها بفمه. فقد كانت مثل هذه التفاصيل الصغيرة هي التي تهزها أكثر من الأفكار الكبيرة. وبالتأكيد كان من طبيعة تطور الأمور أن يتولى الفيكونت المنفي من بلاده الذي أحاطته شارلوت بهالة رومانسية - تدريجيًّا وبمرور الأسابيع - مهمة المعلم المنزلي والصديق المقرب. التدرب على اللغة الفرنسية والإملاء والمحادثة بها كانت أمورًا بديهية. لكن شارلوت عرضت على صديقها أن يتناولا خططًا دراسية موسعة عن الحضارات القديمة، وطوبوغرافيا الأراضي المقدسة وعن الأدب الإيطالي. لساعات طوال قرآ معًا ملحمة تاسو « Gerusalemme Liberata القدس المحررة» وكتاب«Nouva Vita الحياة الجديدة». ولم يكن من النادر أن تظهر أثناء ذلك بقعٌ حمراء قرمزية على رقبة الفتاة الصغيرة وجعلت قلب الفيكونت يدق حتى أسفل الجابوط. وإذا ما خبا الضوء قليلًا في داخل البيت وكان ضوء الغرب لا يزال يسطع في الحديقة كانت

شارلوت تمثل هذه المسرحية أو تلك من برنامجها والفيكونت ضاغطًا على طرف البيانو كان ينصت إليها صامتًا.

كان على وعي بأن الدراسة معًا ويومًا وراء الآخر ستقربهما أكثر وسعى إلى فرض أكبر قدر من التحفظ، وكان على قناعة بأنه لن يجرؤ على خلع قفاز شارلوت، لكنه كان يشعر في الوقت ذاته بانجذاب إليها تصعب مقاومته. بشيء من الارتياع، هكذا كتب لاحقًا في مذكراته من وراء القبر، توقعت أن اللحظة التي سيجب علي أن انسحب فيها قد اقتربت. كان عشاء الوداع مناسبة حزينة جدًّا لم يعرف أحد ما يقوله فيها. وفي النهاية ولدهشة الفيكونت لم تنتقل الأم إلى قاعة الاستقبال بل ذهب الأب وشارلوت إليها. لقد بدت الأم، كما لاحظ الفيكونت الذي كان بصدد الرحيل، مغرية جدًّا في هذا الدور الذي ضربت فيه بكل الأعراف القديمة عرض الحائط، وطلبت يدَه لابنتها التي قالت عنها إن كل مشاعرها أصبحت ملكًا له. لم يعد لديك وطن، هكذا قالت، وكل ممتلكاتك قد بيعت، ولم يعد والداك على قيد الحياة، فما الذي يعيدك إلى فرنسا. ابقَ عندنا وخذ إرثك هنا باعتبارك الابن الذي تبنيناه. من خلال هذا التدخل الذي باركه الأب أيفس، دخل الفيكونت الذي أصابته حالة من الذهول إزاء سخاء هذا العرض تجاه مهاجر معدم، في أكبر أزمة نفسية متخيلة. ووفق ما كتب، فلم يكن يتمنى شيئًا أكثر من أن يتمكن من أن يعيش بقية حياته مجهولًا في كنف هذه العائلة، ومن ناحية أخرى، حانت اللحظة الميلودرامية التي يتحتم عليه فيها أن يصارحهم بأنه متزوج. صحيح أن هذا الزواج الذي تم في فرنسا ورتبته أخواته من وراء ظهره، ظل زواجًا شكليًّا، لكن هذا لن يغير شيئًا من الوضع المحرج وغير المقبول الذي يتحمل هو نفسه أيضًا مسؤوليته. عندما رفض عرض مدام أيفس خافضًا بصره وقال بصيحة يائسة انتظري، أنا متزوج! سقطت المرأة مغشيًّا عليها

ولم يبقَ أمامه سوى أن يغادر البيت الكريم على الفور عازمًا على ألا يعود مرة أخرى. فيما بعد وعند كتابته لهذه الذكريات غير السعيدة، سأل نفسه ماذا لو تحول وعاش في هذه المقاطعة الإنجليزية النائية كصياد نبيل gentleman chasseur. على الأغلب لو فعلتُ ذلك لما كتبت أبدًا ولا حتى كلمة واحدة بل غالبًا كنت سأنسى في آخر المطاف لغتي. وتساءل: كم كانت فرنسا ستخسر، لو حدث وتبخرتُ في الهواء على هذا النحو؟ أو لم تكن في النهاية حياة أفضل؟ أليس من الظلم أن تهدر سعادتك من أجل ممارسة موهبتك؟ هل ستتخطى كتاباتي حدود قبري؟ هل سيتمكن أحد على الإطلاق من فهمها في هذا العالم المتغير دائمًا من بداياته؟ كتب الفيكونت هذه الأسطر في عام 1822. إنه الآن سفير ملك فرنسا في بلاط الملك جورج الرابع. ذات صباح وفي أثناء جلوسه للعمل في مكتبه يبلغه الساعي أن سيدة تدعى ساتون قد وصلت بعربتها وتطلب الحديث معه. وعندما ظهرت السيدة الغريبة برفقة غلامين يناهزان السادسة عشرة من العمر ويرتديان ملابس الحداد مثلها، عند عتبة الباب، بدا له كأنها تقف بصعوبة من فرط التأثر. أخذها الفيكونت من يدها وقادها لأحد المقاعد. يقف الغلامان بجانبها. لكن السيدة تقول بصوت خفيض ومنكسر وهي تزيح الأشرطة الحريرية السوداء المسدلة من قلنسوتها جانبًا، سيدي، هل تتذكرني؟ وأنا، كتب الفيكونت، تعرفت عليها ثانية، وبعد سبعة وعشرين عامًا جلستُ مرة أخرى بجانبها ورأيت من وراء طرحة التُّل هذه الدموع، تمامًا كما كانت في ذاك الصيف الذي طواه النسيان. وأنت يا سيدتي، هل تعرفت علي؟ سألتُها. لكنها من جانبها لم ترد، بل نظرت إلي بابتسامة حزينة جدًّا ما جعلني أدرك أنَّ كلًّا منا أحبَّ الآخر حبًّا يفوق ما كنت أعترف به لنفسي آنذاك. قالت: إنني أرتدي الحداد على أمي. أما أبي فقد مات قبل سنوات عدة. بهذه الكلمات سحبت يدها من يدي ووضعتها

على وجهها. واستطردت بعد بعض الوقت قائلة: ولداي هما ابنَا الأميرال ساتون الذي تزوجته بعد ثلاث سنوات من رحيلك عنا. سامحني. لن أستطيع أن أقول أكثر من ذلك اليوم. مددت لها ذراعي، وأنا اصطحبها عبر المبني هابطين الدرج إلى حيث تقف عربتها. واضعًا يدها على قلبي، شعرت بجسدها كله يرتعش. مثل خادمين أبكمين جلس الغلامان ذوا الشعر الداكن أمامها في العربة.

يا له من تغير يحدثه القدر! هكذا يكتب الفيكونت، لقد زرتُ السيدة ساتون أربع مرات خلال الأيام التالية في عنوانها الذي أعطته لي في كينسنغتون. وفي كل مرة، كان الولدان خارج البيت. تحدثنا وصمتنا وفي كل مرة يطرح فيها السؤال «هل تذكر؟» تخرج حياتنا الماضية بوضوح أكثر من قاع الزمن القاسي. وفي زيارتي الرابعة رجتني شارلوت أن أعطي توصية لدى جورج كانينغ الذي عُين للتو حاكمًا للهند لصالح ابنها الأكبر الذي ينوي الذهاب إلى بومباي. لقد أتت إلى لندن فقط بسبب هذا الطلب والآن يتحتم عليها العودة إلى بانغي. وداعًا! لن أراك ثانية أبدًا! وداعًا! بعد هذا الوداع المؤلم انعزلتُ ساعات طويلة في مكتبي في السفارة، وسطّرت قصتنا الحزينة على الورق فيما تخلل ذلك انقطاعات متكررة من التأمل والتفكير العبثيين. لكن الشيء الذي لم أستطع التخلص منه هو السؤال إن كنت قد خنت وفقدت شارلوت أيفس مرارًا وبشكل نهائي بالكتابة، لكن ما هو حقيقي أيضًا هو أنني لا أستطيع مواجهة وصد الذكريات التي كثيرًا ما تتمكن مني وبشكل مفاجئ بشيء آخر سوى الكتابة. وإذا بقيتْ حبيسة ذاكرتي، فإنها تزداد ثقلًا بمرور الوقت بحيث إنه سيتحتم عليَّ في النهاية على الأغلب أن أنهار تحت وطأتها المتزايدة باستمرار. شهورًا وسنوات ترقد الذكريات نائمة في داخلنا وتتكاثر باستمرار في سكون إلى أن تُستدعى بسبب أي شيء تافه وتُغشي أبصارنا على نحو غريب

مدى الحياة. كم مرة شعرت لذلك أن ذكرياتي ونقل الذكريات إلى الورق عمل مذل، ويستحق اللعنة في الأساس! ومع ذلك، ماذا كنا سنكون من دون ذكرياتنا؟ لن يكون باستطاعتنا ترتيب أبسط الأفكار، وأكثر القلوب امتلاءً بالمشاعر، كان سيفقد قدرته على حب الآخرين، ووجودنا سيكون عبارة عن تسلسل لانهائي من لحظات عبثية، ولن يكون ثمَّت أثر باقٍ للماضي. حياتنا، يا لها من حياة بائسة! مليئة بالتصورات الخاطئة، وعديمة الجدوى إلى درجة أنها ليست سوى ظلال الأوهام التي تطلق ذاكرتنا سراحها. الإحساس بالبعد يصبح في داخلي أكثر إفزاعًا. عندما سرت أمس في الهايدبارك بدوت لنفسي بائسًا إلى درجة لا يمكن وصفها ومنبوذًا وسط الجموع المبتهجة. ومن بعيد رأيت الإنجليزيات الشابات الجميلات بهذا الاضطراب الملتاع الذي كنت أشعر به لحظة العناق. واليوم لا أرفع بصري عن عملي. لقد أصبحت غير مرئي تقريبًا، وأشبه على نحو ما شخصًا ميتًا. ولذلك ربما أرى من موقعي سرًا مميزًا يحيط بالعالم الذي خلفته ورائي تقريبًا.

إن قصة اللقاءات مع شارلوت أيفس هي مجرد مقتطف صغير جدًّا من آلاف الصفحات التي تمتد عبرها مذكرات الفيكونت دو شاتوبريان. في عام 1806 في روما تتحرك داخله للمرة الأولى رغبة في سبر أغوار النفس ودراسة مدى عمقها أو ضحالتها. وفي عام 1811 يأخذ شاتوبريان المشروع مأخذ الجد ومنذ ذاك الوقت يعمل كلما أتاحت له ظروف حياته المفعمة بالمآثر وكذلك بالآلام على كتابة العمل الذي أخذ ينمو وينمو باستمرار. يجري تطور مشاعره وأفكاره على خلفية التغيرات الكبرى في تلك السنوات: تعاقبت أحداث الثورة الفرنسية، وحكم الرعب والمنفى وصعود وانهيار نابليون واستعادة حكم أسرة البوربون ومملكة المواطنين ضمن المسرحية التي لا تبدو لها نهاية على خشبة المسرح العالمي

والتي لا تني تترك بصمتها على المتفرج صاحب الامتيازات كما على الجموع المجهولة. تتغير الكواليس باستمرار. ننظر من على متن سفينة على ساحل فرجينيا ونزور ترسانة البحرية في غرينتش ونندهش للوحة العظيمة عن حريق موسكو ونتجول في حمامات بوهيميا ونشهد تدمير تيونفيل[1]. تضيء الشعلات أسوار حصون المدينة التي يحتلها آلاف الجنود. تتقاطع مسارات القذائف المشتعلة في الهواء المظلم وقبل كل ضربة مدفع يظهر انعكاس متوهج على السحب المتكاثفة باتجاه سمت السماء الأزرق. أحيانًا يموت ضجيج المعارك لبضع ثوانٍ. ثم يتناهى لسمع المرء قرع الطبول وأصوات البوق النحاسي وصيحات الأوامر المرتعدة شبه المجنونة التي تخترق النخاع: أيها الحراس، انتبهوا!

مثل هذا الوصف المبهرج للعروض العسكرية والعمليات الواسعة النطاق يشكل في السياق الأشمل للعمل على الذاكرة، ما يمكن أن يكون ذروات للتاريخ الذي يتطوح في عماء من كارثة إلى أخرى. يكتب المؤرخ الذي شهد هذه الأحداث ويستحضر ما رآه ثانية، خبراته على جسده في عملية لتشويه الذات. من خلال هذا النوع من الكتابة يتحول إلى شهيد مثالي لما فرضته النبوءة علينا، ويرقد فعليًّا وهو حيٌّ في القبر المتمثل في مذكراته. إن استعادة الماضي موجهة منذ البداية نحو يوم الخلاص وهو في حالة شاتوبريان الرابع من يونيو 1848 حينما سحب الموت القلم من يده في الدور الأرضي في Rue du Bac. كومبورغ ورين وبريست وسانت مالو وفيلادلفيا ونيويورك وبوسطن وبروكسل وجزيرة جيرسي ولندن وبيكلس وبانغي. ميلانو وفيرونا وفينيسيا وروما ونابولي وفيينا وبرلين وبوتسدام وإسطنبول والقدس ونيوشاتل ولوزان وبازل

(1) في عام 1792 حاصر أنصار الملكية بزعامة دوق براونشفايغ مدينة تيونفيل الفرنسية التي احتلها الثوار، لكن الحصار باء بالفشل. المترجم.

وأولم وفالدمونشن وتبليتسه وكارلوفي فاري وبراغ وبلزن وفورتسبورغ وكايزرزلاوترن وبينها دائمًا فرساي وشانتيي وفونتانبلو ورامبوييه وفيشي وباريس - هذه فقط بعض محطات الرحلة التي وصلت الآن لنهايتها. في بداية مسيرته كانت الطفولة في كومبورغ التي انطبع وصفها في ذاكرتي بعد القراءة الأولى بحيث لا يمكنني نسيانها. فرانسوا رينيه هو الطفل الأصغر من بين عشرة أطفال لم يعش الأربعة الأوائل منهم سوى بضعة أشهر. والبقية الباقية عُمِّدوا بأسماء جون بابتيست، ماري - آن، بينين، جولي ولوسيل. كانت البنات الأربع يتمتعن بجمال نادر وخصوصًا جولي ولوسيل وكلتاهما لقيتا حتفهما في وسط اضطرابات الثورة. عاشت أسرة شاتوبريان في عزلة تامة مع بعض الخدم في بيت إقطاعي في كومبورغ، كان يمكن لنصف جيش من الفرسان أن يرمح في أروقته وممراته الفسيحة. وبخلاف بعض الجيران من النبلاء مثل الماركيز دي مونلويه أو البارون غويون - بوفور لم يأت أحد لزيارتهم في القصر. خصوصًا في فترة الشتاء، يكتب شاتوبريان، كانت شهور تنقضي دون أن يدق عابر سبيل أو غريب على بوابة الحصن. كان الحزن المقيم داخل هذا البيت المنعزل أكبر بكثير من الحزن المخيم على المرج المحيط في الخارج. ومن يسير تحت أقْبيته تنتابه حالة مماثلة لحالة دخول دير للرهبان الكارتوزيين. في الساعة الثامنة مساء يدق جرس العشاء. وبعد العشاء نجلس لبضع ساعات أخرى أمام المدفأة. تولول الريح داخل المدفأة والأم تتنهد على الكنبة، والأب الذي لم أرَه قط جالسًا سوى على مائدة الطعام يتجول في القاعة العملاقة رواحًا وغدوًّا بلا توقف حتى موعد الصلاة. كان يلبس رداءً من الوبر الخشن الأبيض وقلنسوة من القماش نفسه. وحينما يبتعد خلال هذه الجولات عن منتصف القاعة التي تضيئها فقط نيران المدفأة الوامضة وشمعة وحيدة، يبدأ في الاختفاء

في الظل. وذات مرة غاص تمامًا في الظلام، ولم نسمع سوى خطواته حتى عاد في هيئته الغريبة وكأنه شبح. وخلال الصيف كثيرًا ما كنا نجلس مع حلول الليل في الخارج على سلم البيت. وكان الأب يصطاد ببندقيته البوم الطائر وكنا نحن الأطفال ننظر مع أمنا إلى قمم الأشجار السوداء في الغابة وإلى السماء، حيث كان يبزغ نجم وراء آخر. في سن السابعة عشرة، يكتب شاتوبريان، غادرت كومبورغ. فاتحني أبي ذات يوم بأن علي أن أشق طريقي بنفسي، وأن علي أن ألتحق بكتيبة نافار، وأن أسافر غدًا إلى كامباري مرورًا برين. خذ، قال لي، تلك مئة لوي دي أور. لا تهدرها ولا تجلب العار لاسمك أبدًا. كان يعاني عند وداعي له من شلل متقدم أودى بحياته في نهاية المطاف. كانت ذراعه اليسرى ترتعش باستمرار وكان عليه أن يمسكها بيده اليمنى. وهكذا وبعد أن أعطاني سيفه القديم، وقف معي أمام العربة المكشوفة التي كانت تنتظرني أمام الفناء الأخضر. انطلقنا في طريق السفر عند بركة السمك وشهدت مرة أخرى لمعان جدول الطاحونة والسنونوات وهي تعبر فوق أعواد البوص. ثم نظرت إلى الأمام على الحقل الواسع الذي أخذ ينفتح أمامي.

كانت لا تزال لدي ساعة مشي من إلغتشول سانت مارغريت إلى بانغي وساعة أخرى من بانغي عبر مروج الأهوار في وادي تافني وحتى الناحية الأخرى من ديتشنغهام. من بُعدٍ كان يمكن رؤية «ديتشنغهام لودج» عند سفح المنطقة التي تنحدر بشكل جارف من الشمال إلى الأراضي المنخفضة. في هذا البيت المنعزل على طرف السهل سكنت شارلوت أيفس بعد زواجها من الأميرال ساتون، وعاشت فيه لسنوات طويلة. عندما اقتربتُ لمع زجاج النوافذ في ضوء الشمس. وظهرت امرأة ترتدي مريلة بيضاء - ياله من منظر غريب! هكذا قلت لنفسي - تحت سقف المدخل الأمامي الذي يرتكز على عمودين ونادت كلبًا أسود كان

يتقافز في الحديقة. وبخلاف ذلك لم يكن ثمَّت أثر لمخلوق. صعدت المرتفع حتى وصلت للشارع الرئيس ومشيت عبر حقول حُصدت باتجاه المقبرة الواقعة على مسافة بعيدة خارج ديتشنغهام. هناك يرقد جثمان الابن الأكبر لشارلوت الذي كان يسعى لتحقيق حلم حياته في بومباي. وقد كُتب على نعشه الحجري:

هنا رقد في الثالث من فبراير 1850 صامويل أيفس ساتون، الابن الأكبر لنائب الأميرال ساتون، القائد السابق للفرقة الأولى مشاة، الرائد الشرفي والعضو بهيئة الضباط المتقاعدين.

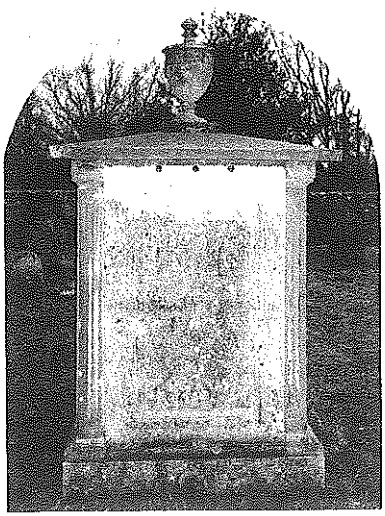

وإلى جانب قبر صامويل ساتون يبرز شاهد قبر أكثر فخامة مصنوع من لوح حجري ثقيل أيضًا وتتوّجه آنية لدفن الموتى. لكن ما لفت انتباهي من البداية هو تلك الفتحات الدائرية على الحافة العليا للشاهد الحجري. لقد ذكرتني بثقوب التهوية التي كنا نصنعها في الماضي في العلب التي كنا نحبس فيها حشرات جُعل الصيف التي اصطادناها مع طعامها من

أوراق الشجر. من المحتمل، هكذا قلت لنفسي، أن شخصًا حساسًا من ذوي المتوفاة قد حفر هذه الثقوب في الحجر في حال أرادت أن تتنفس في قبرها. اسم هذه السيدة التي اعتني بها على هذا النحو هو سارة كاميل، وقد توُفيت في 26 أكتوبر 1799. وكزوجة لطبيب ديتشنغهام من المحتمل أن تكون من معارف آل أيفس. ومن المحتمل أن شارلوت وأبويها كانوا حاضرين عند الدفن وربما عزفت لاحقًا خلال حفل التأبين مقطوعة موسيقية بطيئة على البيانو.

وحتي يومنا هذا لا يزال ممكنًا التعرف على المشاعر الراقية التي كانت سائدة في الأوساط التي تنتمي لها شارلوت وسارة من خلال النقش التذكاري المنحوت بحروف جميلة ورشيقة على الناحية الجنوبية من المقبرة ذات اللون الرمادي الفاتح، بإهداء من زوجها د. كاميل الذي عاش أربعين عامًا بعدها:

حاسمة في المبادئ وراسخة في تدينها
حياتها كانت مثالًا لطمأنينة الفضيلة
حسها المتواضع، وأناقتها الخفية في الفكر والسلوك
إخلاصها وطيبة قلبها
وفرت التقدير واستمالت الوجدان،
ألهمت الثقة ونشرت السعادة

كان القبر في ديتشنغهام هو تقريبًا المحطة الأخيرة في تجوالي عبر مقاطعة سافوك. أوشك الأصيل على الانتهاء وقررت لذلك أن أصعد عائدًا إلى الطريق الرئيس، ثم أواصل المسير لمسافة صغيرة باتجاه نوريتش حتى فندق «ميرميد» في هيدنهام، حيث يوشك البار بالتأكيد على فتح أبوابه. من هناك استطعت أن أتصل بالبيت لكي يأتي أحد لإحضاري.

مررت خلال الطريق الذي كان علي أن أقطعه بمبنى «ديتشنغهام هول» الذي بُني في عام 1700 من الطوب ذي اللون البنفسجي الفاتح وعلى غير العادة كانت ضلف شبابيكه بلون أخضر داكن، وكان يقع بعيدًا فوق بحيرة لولبية الشكل في وسط المنتزه الشاسع. وعندما انتظرتُ كلارا بعد ذلك في «ميرميد» خطر ببالي أنه من المؤكد أن الانتهاء من إنشاء منتزه ديتشنغهام كان في الفترة التي أقام فيها شاتوبريان في المنطقة وليس قبل ذلك. مثل هذه المنتزهات التي تعطي للنخبة الحاكمة المجال لأن تكون محاطة أينما نظرت بمساحات شاسعة من الأراضي، لم تكن موضة شائعة قبل منتصف القرن الثامن عشر والأعمال الضرورية لتخطيط وتنفيذ إنشائها امتدت لأكثر من عقدين أو ثلاثة عقود. ومن أجل اكتمال الممتلكات كان من الضروري في معظم الأحيان شراء أو مبادلة أراضٍ عديدة، ونقل شوارع وطرق سفر وأحيانًا مناطق سكنية بأكملها، لأن المطلوب كان أن يطل البيت باستمرار على طبيعة مفتوحة وخالية من أي أثر بشري. ولهذا السبب كان من الضروري خفض الأسيجة ووضعها في خنادق معشوشبة فيما يُعرف باسم Haha[1]. وقد تطلب حفر هذه الخنادق العمل لآلاف الساعات. ومن الطبيعي أن هذا التدخل العميق ليس فقط في الأرض ولكن أيضًا في حياة الجماعات المحيطة لم يمضِ دون نزاعات. فيروى مثلًا أنه في تلك الفترة المذكورة قام أحد أسلاف إيرل فيريرز، المالك الحالي ل «ديتشنغهام هول» بإطلاق النار على أحد موظفيه الإداريين خلال مواجهة حادة بينهما، فأرداه قتيلًا، وحكم عليه من قبل نبلاء مجلس اللوردات بالموت وشُنق علنيًّا في لندن بحبل من

(1) هو نظام متبع في هندسة الحدائق حيث تستبدل الأسيجة العالية بخنادق، مما يعطي انطباعا خادعا باتساع الحديقة لكن عندما يقترب المرء من حدودها يندهش لهذه الخدعة ومن هنا سيمت بالإنجليزية بـ: Aha أو Haha. المترجم.

حرير. العمل الأقل تعقيدًا في إنشاء منتزهات المناظر الطبيعية المعروفة أيضًا باسم الحدائق الإنجليزية كان على الأغلب هو زراعة الأشجار في مجموعات صغيرة وفي نماذج منفردة، ولو سبق ذلك في أحيان كثيرة إزالة مساحات من الغابات لا تناسب التخطيط الشامل للحديقة وحرق الأحراج والشجيرات سيئة المنظر. واليوم ونظرًا إلى أنه لا يوجد سوى ثلث الأشجار التي زُرعت في الماضي، يمكننا أن نتصور مدى الفراغ الرهيب المحيط بالبيوت الريفية الإقطاعية في نهاية القرن الثامن عشر. وقد قام شاتوبريان في وقت لاحق أيضًا بمحاولة - تعد بالمقارنة مع الحدائق الإنجليزية متواضعة - لتحقيق نموذج الطبيعة المثالي المرتبط بهذا الفراغ. عندما عاد في 1807 من رحلته الطويلة إلى إسطنبول والقدس، اشترى في فاليه أو لوب Vallée aux Loups، غير بعيد عن بلدة أولناي Aulnay بيتًا بحديقة في موقع خفي عن الأنظار بين تلال تغطيها الغابات. وهناك بدأ كتابة ذكرياته، وقد كتب أول ما كتب عن الأشجار التي زرعها وقام برعاية كل واحدة منها بنفسه. الآن، هكذا يكتب، ما زالت الأشجار صغيرة وأنا الذي أمنحها الظل حينما أقف بينها وبين الشمس. لكن في وقت ما بعد ذلك عندما تكبر وتنمو ستعيد لي الظل الذي منحته إياها وستحميني في أيام شيخوختي، كما حميتها في شبابها. إنني أشعر أنني ممتن للأشجار، أكتب لها سونيتات ومراثٍ وأناشيد، وكالأبناء أعرف كل واحدة منها بالاسم وأتمنى فقط أن أموت تحتها.

هذه الصورة التُقطت لي قبل عشر سنوات في ديتشنغهام، في عصر يوم سبت عندما فُتح البيت الإقطاعي للجمهور ضمن فعالية لأغراض خيرية. وشجرة الأرز اللبنانية، التي استندتُ إليها وكنت لا أزال غير عالم بالأشياء السيئة التي حدثت منذ ذاك الحين، هي واحدة من أشجار أخرى كثيرة زُرعت عند إنشاء المنتزه ولم يعد لها وجود الآن.

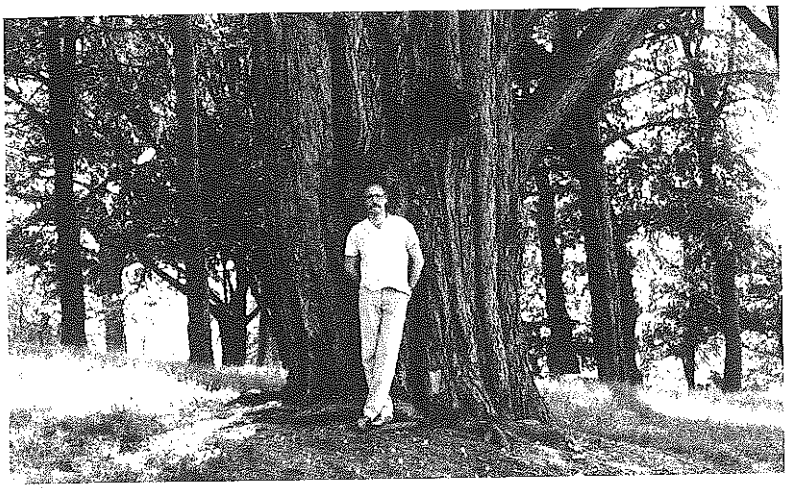

تقريبًا منذ منتصف السبعينات بدأ عدد الأشجار يقل بشكل ملحوظ. ووقعت خسائر كبيرة خصوصًا في أنواع الأشجار الأكثر انتشارًا في إنجلترا.، وفي إحدى الحالات وصل الأمر إلى انقراض نوع بأكمله. ففي عام 1975 وصل مرض الدردار الهولندي القادم من الشاطئ الجنوبي إلى نورفوك. وبمجرد انقضاء صيفين أو ثلاثة، لم تعُد في محيطنا شجرة دردار واحدة على قيد الحياة. في يونيو 1978 يبست أشجار الدرادر الستة التي كانت تظلل بركة الماء في حديقتنا خلال أسابيع قليلة، بعد أن ورفت بخضارها الفاتح البديع. انتشرت الفيروسات بسرعة رهيبة وتخللت الجذور في جادات كاملة مما تسبب في تضييق المسام الشعرية، وأدى خلال فترة وجيزة إلى جفاف الأشجار. كما أن النماذج المنفردة منها قد هلكت أيضًا، بعد أن تمكنت خنفساء القلف التي تنشر المرض من العثور عليها بثقة تامة. كانت ثمَّت شجرة داردار، لم أرَ لها مثيلًا في الكمال وقارب عمرها المئتي عام، تقف في حقل مفتوح غير بعيد عن بيتنا وتحتل جزءًا هائلًا من الفضاء. وأتذكر أنه وبعد أن هلكت معظم أشجار الدردار في منطقتنا جراء المرض، ظلت أوراقها التي إن تعد فلن تحصى

بحوافها الرقيقة المسننة وافتقادها قليلًا للسيمترية، تهتز مع النسمة، وكأن الوباء الذي أفنى كل جنسها، قد مر عليها دون أن يترك أي أثر. وأتذكر كذلك أنه ما كاد أسبوعان يمران حتى أصبح لون هذه الأوراق، التي بدت حصينة، بُنيًا والتفت حول نفسها، وأنها استحالت قبل حلول الخريف إلى تراب. وفي الوقت ذاته بدأتُ ألمح أن قمم أشجار المُران قد بدأت تخف كثافتها وأن أوراق الشجرة قد قلت وتناثرت وعرفت أشكال تحورات غريبة. والشجرة نفسها بدأت تورق مباشرة من الجذع الصلب وفي الصيف بدأت تتساقط منها كميات كبيرة من ثمار البلوط الصلبة المشوهة والمغطاة بمادة لزجة. أما أشجار الزان التي كانت حتى هذا الوقت في حال جيدة نسبيًا فقد تضررت بسبب استمرار الجفاف الشديد عدة أعوام متتالية. أصبح للأوراق نصف حجمها الطبيعي فقط والثمار كانت كلها بلا استثناء مجوفة. وأشجار الحور ماتت واحدة تلو الأخرى في المرج. ولا تزال بعض الجذوع الميتة تقف منتصبة وبعضها سقط محطمًا على النجيل وبهت لونها بفعل الطقس. وأخيرًا في خريف 1987 ضربت عاصفة، لم يسبق لأحد هنا أن رأى مثلها من قبل، كل أنحاء البلاد. ووفقًا للتقديرات الرسمية فإن أربعة عشر مليون شجرة ناضجة راحت ضحية لها، ناهيك بالشجيرات والأجمات. كان ذلك في ليلة 16/ 17 أكتوبر. دون سابق إنذار جاءت العاصفة من بيسكايا على الساحل الغربي الفرنسي وعبرت بحر المانش ومرت بالأجزاء الجنوبية الشرقية من الجزيرة البريطانية باتجاه بحر الشمال. صحوت نحو الساعة الثالثة صباحًا، ليس بسبب الصخب المتزايد، بل بالأحرى بسبب سخونة الطقس الغريبة وضغط الهواء الآخذ في الارتفاع في الغرفة. وعلى النقيض من عواصف الاعتدال الشمسي التي شهدتها هنا لم تأتِ هذه العاصفة في شكل زوابع ضاربة، بل جاءت دفعة واحدة ومستمرة ومنتظمة تزداد قوتها شيئًا فشيئًا. وقفتُ أمام الشباك

ونظرت عبر زجاج النافذة الذي أوشك على التحطم من فرط الضغط إلى نهاية الحديقة حيث كانت قمم أشجار المنتزه الأسقفي المجاور محنية ومشقوقة مثل نباتات الماء في تيار مائي مظلم. تحركت سحابات بيضاء تجاه الظلام الرابض هناك ودائمًا ما تكرر صدور وميض مرعب من السماء، كان سببه كما عرفت فيما بعد تلامس خطوط الجهد العالي. ثم لا بد أنني في وقت ما أدرت ظهري للنافذة لبعض الوقت. عمومًا، ما زلت أذكر أنني لم أصدق عينيَّ عندما عاودت النظر إلى الخارج من جديد، فهناك حيث مرت تيارات الهواء بالكتلة السوداء للأشجار لم أرَ سوى أفق فارغ وباهت اللون. بدا لي كأن أحدهم قد أزاح ستارة جانبًا وكأنني أحدق في مشهد عديم الملامح يغيب في العالم السفلي. وفي اللحظة نفسها التي شهدت فيها هذا الضوء الليلي الساطع غير المألوف فوق المنتزه، عرفت أن الدمار قد طال كل شيء. ومع ذلك كنت آمل أن يكون لهذا الفراغ المرجف تفسير آخر، لأنني لم أسمع في هدير العاصفة ولو أدنى إشارة لهذه الجلبة الصاخبة التي اعتدت سماعها عند وقوع الأشجار. ولم أدرك إلا لاحقًا أن الأشجار التي ظلت راسخة حتى النهاية بفضل جذورها، قد تهاوت تدريجيًا وأن قممها التي اشتبك بعضها ببعض خلال هذا السقوط القسري البطيء لم تتحطم، بل بقيت سليمة إلى حد كبير.

مساحات كاملة من الغابات تهاوت أشجارها بهذا الشكل وكأنها حقول قمح. عند الفجر هدأت العاصفة قليلًا، بحيث تجرأتُ على الذهاب إلى الحديقة. فزِعًا وقفت وقتًا طويلًا وسط الدمار. ظننت أنني داخل ما يشبه النفق الهوائي، وكانت قوة امتصاص الهواء الساخن جدًّا بالنسبة لهذا الوقت من السنة لا تزال كبيرة جدًّا. الأشجار التي تخطى عمرها مئة عام وكانت تزين طرفي الممشى المؤدي إلى الجزء الجنوبي من الحديقة، هوت كلها على الأرض وكأنها قد فقدت الوعي. وتحت أشجار البلوط التركية والإنجليزية وأشجار المران والدلب والزان والزيزفون، تهشمت وتحطمت أيضًا الشجيرات الصغيرة التي كانت تنمو في كنفها، مثل شجيرات العفص والطقسوس والبندق والغار والبهشية والردندرة. أشرقت الشمس ساطعة. استمر هبوب الريح بعض الوقت، ثم ساد الهدوء فجأة. لم يتحرك شيء بعد ذلك سوى الطيور التي كانت تسكن في الأشجار والأجمات والآن ترفرف أعداد كبيرة منها في اضطراب وسط الأغصان التي احتفظت بخضارها حتى الخريف. لا أدري كيف تجاوزت اليوم الأول بعد العاصفة، لكنني أذكر أنني - وقد اعتراني شك فيما رأته عيناي - قد ذهبت في منتصف الليل إلى المنتزه مرة أخرى. وبسبب انقطاع الكهرباء في المنطقة كلها، غرق كل شيء في ظلام دامس. لم يعكر الانعكاس الخافت لمساكننا ولطرق المرور صفو السماء. عوضًا عن ذلك بزغت النجوم في حلة رائعة، لم أرَ مثيلًا لها إلا في طفولتي في جبال الألب، أو في حلم في الصحراء. تنتشر الإشارات الوامضة من الشمال القصي إلى الأفق الجنوبي، حيث كانت الأشجار تحجب الرؤية فيما مضى. الدب الأكبر وذيل التنين ومثلث كوكبة الثور والدجاجة والفرس الأعظم والدلفين. كانت تدور دورتها دون أي تغيير، وبدت لي أروع من ذي قبل. وبقدر ما ساد السكون في تلك الليلة ما

بعد العاصفة، استمر عويل المناشير صاخبًا طوال أشهر الشتاء. وحتى شهر مارس واظب أربعة إلى خمسة عمال على تقطيع الأغصان وحرق المخلفات وكشط الجذوع وتحميلها. وفي النهاية قام حفار بصنع حفر كبيرة ووُضعت فيها جذور كان بعضها بحجم حمولة عربةٍ لنقل القش. وبهذا قُلب كل شيء رأسًا على عقب بالمعنى الصحيح للكلمة. بطبقة من الطين الثقيل غُطيت تربة الغابة التي نما فيها في العام السابق زهور الخربق الأسود والبنفسج وشقائق النعمان وسط نبتات السرخس ورقع النبتات الطحلبية. النبات الوحيد الذي ظلت بذوره في عمق التربة لفترة غير معلومة، وظهرت منه فسائل في التربة المتحجرة تمامًا، هو حشيشة المستنقعات. ولأنه لم يعد ثمَّت ما يحجب أشعة الشمس، فقد دُمرت خلال فترة وجيزة كل نباتات الظل في الحديقة، وتنامى لدى المرء إحساس بأنه يعيش على طرف بادية. وحيثما كانت العصافير قبل وقت قصير تصدح بالغناء عند طلوع النهار بأعداد كبيرة، إلى درجة تجعلك تغلق أحيانًا شباك غرفة النوم، وحيثما كانت القُبَّرات تحلق قبل الظهيرة فوق الحقول، بل حيثما كان المرء يسمع أحيانًا في ساعات المساء بلبلًا يغرد من وسط الأغصان المتشابكة، لا يكاد يُسمع الآن ولو صوت حيّ واحد.

10

في المؤلف الموسوعي الذي خلفه توماس براون ويضم كتابات متنوعة عن البستنة النفعية والبستنة من أجل الزينة وعن مقبرة أواني الدفن في برامبتون وإنشاء التلال والجبال الصناعية والنباتات التي ذكرها الأنبياء ورواة الأناجيل المقدسون، وجزيرة أيسلندا، واللغة السكسونية القديمة وإجابات عرافة دلفي، والأسماك التي أكلها مخلِّصنا،

MUSÆUM CLAUSUM

or

Bibliotheca Abscondita

وعادات الحشرات والصيد بالصقور، وحالة شره مرضي في الشيخوخة، كما توجد أشياء أخرى كثيرة، من بينها أيضًا كتالوج يضم أسماء كتب غريبة وصور ومقتنيات قديمة وأشياء أخرى عجيبة، من بينها أشياء قد تنتمي فعليًّا لمقتنيات براون الخاصة النادرة، لكن معظمها أشياء لا وجود لها سوى في بيت الكنز الخيالي في رأس براون الذي لا يمكن الوصول إليه إلا عبر الحروف المدونة على الورق. في مقدمته إلى قارئ مجهول يقارن براون مؤلفه المعنون «Musaeum Clausum المتحف المغلق» بمؤلفات وأعمال شهيرة معاصرة عن الطبيعة والفن مثل متحف ألدروفاندي Musaeum Aldrovandi ومتحف كالتسولاري Musaeum

Calceolarianum وCasa Abbellitta أي البيت المزخرف ومخازن الإمبراطور النمسوي رودولف الثاني الفنية في براغ وفيينا. ويضم هذا «المتحف المغلق» مطبوعات وكتابات نادرة من بينها نص للملك سليمان يمتلكه أمراء بافاريا عن ظلال التفكير ومراسلات بالعبرية بين مولينيا دو سيدان وماريا شورمان فان أوترخت، وهما السيدتان الأكثر علمًا في القرن السابع عشر، ومختصر عن علم النباتات البحرية يحتوي على كل المعلومات عن كل ما ينمو على صخور الجبال والوديان في أعماق البحار، كل أنواع الطحالب والشعب المرجانية وسرخس الماء، وأشياء لم ترَها عين من قبل، عن أعواد النباتات التي تحركها تيارات الماء الدافئة وجزر النباتات الطافية التي تتحرك كاملة مع الرياح التجارية من قارة إلى أخرى. إضافة إلى ذلك تضم مكتبة براون الخيالية مقتطفًا نقله سترابو عن الرحالة العالمي بيثياس المرسيلياني يقول فيه إن الهواء في أقصى الشمال ما وراء جزيرة ثولي لزج لزوجة القناديل البحرية وله كثافة خانقة عند التنفس، وكذلك قصيدة مفقودة لأوفيد، كُتبت باللغة القوطية أثناء منفاه في توموس، وعُثر عليها ملفوفة في قماشة مشمعة على حدود المجر في سابريا، تمامًا هناك حيث مات أوفيد – حسبما نُقل إلينا – لدى عودته من البحر الأسود، سواء بعد العفو عنه أو بعد وفاة الإمبراطور أوغسطس. وإلى جانب الغرائب العديدة التي يمكن رؤيتها في متحف براون، ثمَّت رسم بالطباشير لسوق المخيرة العربي الذي يقام ليلًا لتجنب القيظ، ولوحة تصور معركة بين الروم والأزياجيس فوق نهر الدانوب المتجمد، وصورة خيالية لبراري البحر أمام سواحل البروفانس في فرنسا، وسليمان الفاتح على الحصان أثناء حصار فيينا، وأمامه مدينة من الخيام البيضاء الناصعة تصل لعنان السماء، وصورة للبحر بها جبال جليد عائمة تجلس عليها حيوانات الفظ والدببة والثعالب والطيور البرية. وسلسلة من

الاسكتشات توثق لأفظع وسائل التعذيب مثل الإعدام بطريقة القارب الفارسية، وتقطيع أوصال الجسد تدريجيًّا عند تنفيذ أحكام الإعدام في تركيا وحفلات المشانق عند الطراقيين والوصف الدقيق الذي قدمه توماس مينادوي لسلخ الجلد من جسد حي من خلال البدء بفتحة بين لوحي الكتف. وفي مكان ما بين الطبيعة واللاطبيعة نجد أيضًا: بورتريه لسيدة إنجليزية جميلة مرسومة باللون الأسود، وأن هذا اللون الأسود جعلها أجمل بكثير، من لونها الباهت الذي وُلدت به حسبما يقول براون. وأسفله كُتب باللاتينية:

«Sed quandam volo nocte nigriorem» أي، داكنة كالليل ولكنني أحب ذلك. وبخلاف الكتب والأعمال الفنية المذهلة يحتفظ «المتحف المغلق» بميداليات وعملات، وحجرًا كريمًا من رأس عُقاب، وصليبًا منحوتًا من جمجمة ضفدع وبيض نعام وبيض طائر الطنان وأزهى ألوان ريش الببغاء ومسحوقًا لعلاج الإسقربوط مصنوعًا من أعشاب بحر سرقوسة المتسلقة. ومستخلص الكاشونده الراقي المستخدم في الهند الشرقية لعلاج الاكتئاب. بالإضافة إلى كوب محكم الإغلاق يحوي روحًا مستخلصة من أملاح أثيرية تتطاير بسهولة تحت تأثير ضوء النهار، لذا يمكن للمرء أن يتأملها ويدرسها في ضوء العقيق الأحمر أو حجر الباريت. كل هذا مذكور في السجل المليء بالغرائب للباحث في الطبيعة والطبيب توماس براون، كل هذه الأشياء وأشياء أخرى غيرها لا أودّ الاسترسال في الحديث عنها الآن، لكن ربما يكون ثمَّت استثناء وحيد وهو ساق البامبو المستخدمة كعصا للترحال التي نجح راهبان فارسيَّان في عهد الإمبراطور البيزنطي جستنيان في تهريب أولى بيوض دودة القز في داخلها، بعد أن أقاما في الصين لسنوات طويلة لمعرفة أسرار صناعة الحرير ونقلاها إلى العالم الغربي.

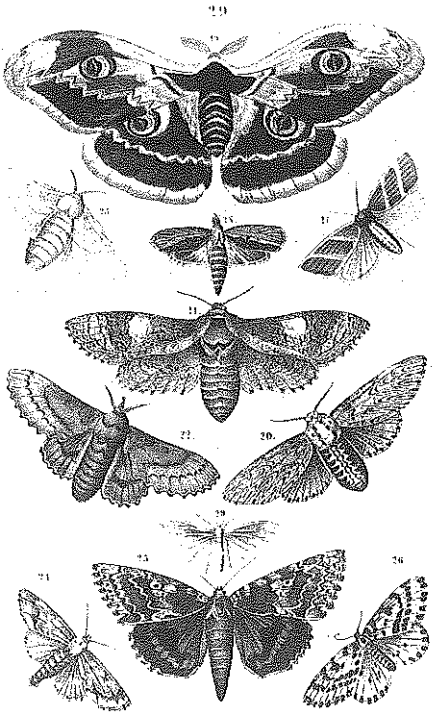

تنتمي دودة القز التي تعيش في أوراق التوت الأبيض والمسماة باللاتينية bombyx mori إلى فصيلة القزيات Bomycidae، وهي تندرج تحت رتبة حرشفيات الأجنحة *Lepidoptera* التي تضم أجمل أنواع حشرات العث: عثة الهرة Harpyia Viula وعثة الأطلس Bombyx Atlas وعثة الراهبة Liparis Monacha وعثة أبو الوشي الصغير *Saturnia pavonia*. لكن فراشة دودة القز المكتملة (لوحة 29، الصورة رقم 23) نفسها غير لافتة لنظر، ولا يتعدى قياس حجمها عندما تبسط جناحيها بوصة بالعرض في بوصة بالطول. ولون الأجنحة أبيض رمادي مع خطوط بنية باهتة وبقعة قمرية الاستدارة عادة ما يصعب التعرف عليها. والشغل

الشاغل الوحيد لهذه الفراشات هو التكاثر، يموت الذكر بعد التزاوج، وتضع الأنثى على مدى عدة أيام ثلاث مئة إلى خمس مئة بيضة وتموت أيضًا، وتخرج اليساريع من البيض - كما يرد في موسوعة صدرت عام 1844 - وقد زُودت بفراء مخملي أسود. وخلال حياتها التي تدوم لستة أو سبعة أسابيع تنام أربع مرات وفي كل مرة من المرات الأربع تخرج من جلدها القديم، في شكل جديد، ودائمًا ما يكون بياضها أنصع وتكون أنعم وأكبر، أي أجمل وتصبح في نهاية المطاف شفافة تمامًا. وبعد بضعة أيام من الخروج الأخير من جلدها، يلاحظ المرء احمرارًا بالرقبة، وهي علامة على أن وقت التحول قد أزف. يتوقف اليسروع عن الأكل، ويكون في حركة دائبة، ويسعى دائمًا للصعود إلى الأعلى، محتقرًا العالم في الأسفل ومتجهًا نحو السماء، حتى يجد المكان المناسب ويستطيع البدء في غزل خيوطه التي ينتجها من عصارات صمغية موجودة في أمعائه. وإذا ما شرَّح المرء يسروعًا بطول الظهر، بعد إماتته بالكحول الإيثيلي، فسيجد حزمة من الأنابيب الملتفة على بعضها عدة مرات وتبدو مثل الأمعاء. وهي تمتد إلى الفم، حيث تكون لها فتحتان رقيقتان، تخرج منهما العصارة المذكورة. في اليوم الأول، يغزل اليسروع نسيجًا واسعًا غير منتظم وغير مترابط، يكون الهدف منه هو تثبيت الشرنقة. ثم يصنع من خلال تحريك رأسه باستمرار رواحًا وغدوًّا وإفرازه لخيط يصل طوله لما يقرب من ألف قدم الغلاف البيضاوي الفعلي من حوله. وفي هذا الغلاف الذي لا يسمح بدخول الهواء ولا الرطوبة يتحول اليسروع إلى حورية من خلال خروج أخير من الجلد. ويستمر طور الحورية من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع، حتى تخرج الفراشة الموصوفة أعلاه. وطن دودة القز هو كل هذه البلاد الآسيوية التي تنمو فيها أشجار التوت الأبيض - طعام دودة القز - بشكل بري. فهي تعيش في هذه الأشجار وسط الطبيعة معتمدة على نفسها. لكن بسبب نفعها تولى الإنسان رعايتها. يذكر التاريخ الصيني في هذا الصدد أنه

قبل ألفين وسبع مئة عام من بدء التقويم الميلادي، قام إمبراطور الأرض هوانغ تي، الذي حكم لأكثر من مئة عام وعلم رعيته صنع العربات والسفن والمطاحن، بدفع زوجته الأولى سي - لينغ - تشي إلى الاعتناء بدود القز والقيام بتجارب لاستخدامها، وبهذا تسهم الإمبراطورة بعملها في مضاعفة سعادة الشعب. ولذلك أخذت سي - لينغ - تشي دود القز من شجر حديقة القصر ووضعته تحت رعايتها في المقاصير الامبراطورية، حيث ترعرع في حال جيدة جدًّا محميًّا من أعدائه الطبيعيين ومن التقلبات الجوية الحادة غير القليلة في الربيع، بحيث كانت هذه بدايةَ ما عُرف لاحقًا بتربية دود القز المنزلية. وقد أصبحت لاحقًا مع فك الخيوط من الشرنقة ونسجها وتطريز القماش، من الوظائف الرئيسة لكل الإمبراطورات، ومن أياديهن انتقلت إلى كل النساء. وخلال أجيال قليلة شهدت تربية دود القز ومعالجة الحرير ازدهارًا كبيرًا جدًّا لقي من الحكام دائمًا كل أنواع الدعم الممكن، بحيث أصبحت الصين في نهاية المطاف هي بلد الحرير وبلد ثروات الحرير التي لا تنضب. طاف تجار الحرير الصينيون كل ربوع آسيا بقوافلهم المحملة بالحرير التي احتاجت من بحر الصين إلى ساحل البحر المتوسط نحو مئتين وأربعين يومًا. ورغم أو ربما بسبب هذه المسافة الشاسعة وأيضًا بسبب العقوبات الوحشية المفروضة على نشر علم صناعة الحرير وسبل إنشائها خارج الإمبراطورية، ظل إنتاج الحرير لآلاف السنين مقصورًا على الصين، إلى أن وصل الراهبان المذكوران بعصيّ تجوالهما المجوفة إلى بيزنطة. وبعد أن تطورت صناعة الحرير في البلاط اليوناني وفي جزر بحر إيغه، استغرق الأمر نحو ألف عام أخرى قبل أن ينتقل هذا الشكل الفني من رعاية الحيوانات عبر صقلية ونابولي إلى شمال إيطاليا، إلى بيمونت وسافوا وإلى منطقة لومبارديا وأصبحت جنوة وميلانو هما عاصمتا صناعة الحرير في أوربّا. ومن شمال إيطاليا انتقلت خلال نصف قرن إلى فرنسا، وفي المقام الأول تحديدًا بفضل

أوليفيه دو سير Olivier de Serres الذي لا يزال يُعد ليومنا هذا أبًا للزراعة الفرنسية. فدليله لأصحاب المزارع الذي نشره عام 1600 بعنوان *Théatre d'agriculture et mesnage de Champs* وطُبعت منه 13 طبعة خلال فترة قصيرة، ترك انطباعًا عميقًا جدًّا لدى الملك هنري الرابع، إلى درجة أنه استقدمه إلى باريس كمستشار أول له إلى جانب رئيس الوزراء وزير المالية دي سولي De Sully، مع تكريمه بالكثير من الأوسمة وإسباغ النعم عليه. من جانبه أصر دو سير الذي لم يكن يحب أن يترك إدارة ضيعته لأحد آخر، على شرط وحيد لتقلد المنصب المعروض عليه، وهو إدخال صناعة الحرير إلى فرنسا. وللوصول لهذه الغاية لا بد من السماح باقتلاع كل الأشجار البرية في حدائق القصور في جميع أنحاء البلاد وأن تزرع محلها أشجار التوت. انبهر الملك بخطة دو سير، لكن من أجل تطبيقها عمليًّا كان عليه أن يتغلب على معارضة دو سولي الذي يقدره في العادة كثيرًا. لقد رفض دو سولي مشروع صناعة الحرير رفضًا باتًا، إما لأنه كان يرى فيه فعلًا حماقة لا مثيل لها، وإما لأنه كان يرجح أن يكون دو سير – وهو محق في ذلك غالبًا – منافسًا صاعدًا له.

MÉMOIRES

DE SULLY.

Livre Seizième.

Il ne s'agissoit plus que de donner une dernière forme aux conventions qui ve- 1603.

ترد الأسباب التي عرضها ماكسميليان دو بيتون دوق سولي لمليكه ملخصة في الكتاب السادس عشر من مذكراته التي تعد من أكثر الكتب المحببة إلى قلبي منذ اشتريتها بثمن زهيد قبل سنوات من مزاد في بلدة أيلسهام الواقعة شمال نوريتش، وفي طبعة جميلة صدرت في ليبج البلجيكية عام 1788 لدى دار F. J. Desoer, à la Croix d'or. المناخ في فرنسا، هكذا يبدأ دو سولي في شرح أسبابه، ليس مناسبًا لصناعة الحرير. فالربيع يأتي متأخرًا جدًّا، وحتى عندما يأتي تسود في العادة رطوبة عالية جدًّا، تسقط على الحقول أحيانًا وتتصاعد من الحقول أحيانًا أخرى. ووحده هذا الظرف الذي يصعب تغييره، له أثر سلبي جدًّا، سواء على دود القز الذي سيواجه صعوبة في الخروج من بيوضه، وأيضًا على أشجار التوت التي يعد الطقس المعتدل شرطًا أساسيًّا لنموها، خصوصًا في الوقت الذي تورق فيه. وبعيدًا عن هذه الأفكار الأساسية، يستطرد دو سولي، لا بد من أن يأخذ المرء في الاعتبار أن الأعمال والأشغال الفلاحية في فرنسا لا تمنح هذه الدَّعة الزائدة عن الحد لأحد سوى متعمدي الكسل. ولذلك فلا بد من التفكير إن كان من الضروري فعلًا لإدخال صناعة الحرير على نطاق واسع، أن يُحرم سكان الريف من أعمالهم اليومية المعتادة وبالتالي من كسبهم الوفير، من أجل مشروع مشكوك فيه من جميع النواحي. صحيح أن دو سولي يقر بأنه من المتوقع اجتذاب سكان الريف بسهولة لمثل هذا التغير في أساس معاشهم، فمن لا يرغب في الاستعاضة عن العمل الشاق المضني بعمل آخر، مثل صناعة الحرير التي لا تتطلب جهدًا؟ لكن هنا بالذات - هكذا يحاجج دو سولي أمام ملك الجنود في تحول يعد بالتأكيد حصيفًا جدًّا - يكمن السبب الأكثر أهمية في معارضة انتشار صناعة الحرير في فرنسا: إنه خطر أن يخسر سكان الريف الذين يُجند من بينهم خيرة الجنود والفرسان من خلال

ممارسة عمل يصلح في الحقيقة فقط للنساء والأطفال لياقتهم البدنية التي تعتبرونها جلالتكم لا غنى عنها لمصلحة الدولة وبالتالي لن يكون لدينا في القريب العاجل النشء الضروري لممارسة فنون القتال. وهذا الانهيار الذي يمكن أن يحدث لسكان الريف من خلال صناعة الحرير، يستطرد دو سولي، يشبه بالمناسبة فساد الطبقات المدينية من خلال الترف وكل توابعه: الكسل والتخنث والمجون والتبذير. تُنفق في كل أنحاء فرنسا أموال طائلة جدًّا على الحدائق البهية والقصور الفخمة وأغلى قطع الأثاث والزخارف المذهبة وأطقم المائدة من البورسيلين والعربات التي تجرها الخيول بأنواعها والحفلات ومشروبات الليكير والعطور، بل حتى المناصب تباع بأثمانٍ مضاعفة، والسيدات المؤهلات للزواج من الطبقة الراقية اللائي يُعرضن في المزاد لمن يدفع أكثر. إن إعطاء الانهيار العام دفعة إضافية من خلال إدخال صناعة الحرير في كامل الملكة، يكتب دو سولي، لهو أمر لا ينصح به الملك، مع الإشارة إلى أنه ربما ينبغي للمرء أن يتدبر في الفضائل التي يتمتع بها هؤلاء الذين يستطيعون العيش برزقهم القليل. ورغم اعتراضات رئيس الوزراء، فقد تأسست صناعة الحرير في فرنسا خلال عقد من الزمن، وذلك لأسباب أهمها مرسوم نانت للتسامح الديني الصادر عام 1598 الذي ضمن للهوغونوت الذين كانوا ملاحقين حتى هذه اللحظة حرية ممارسة عقيدتهم، على الأقل في حدود معينة، وضمن بالتالي لهؤلاء الذين لعبوا دورًا بارزًا في تأسيس صناعة الحرير البقاء في وطنهم. وتأثرًا بالنموذج الفرنسي، جاء تبني صناعة الحرير برعاية ملكية في إنجلترا في الوقت ذاته تقريبًا. أمر الملك جيمس الأول بزراعة حديقة من أشجار التوت على مساحة عدة فدادين في المكان الذي يوجد به قصر باكنغهام حاليًّا واحتفظ في قصره الريفي الأثير ثيوبولد Theobald´s في إسيكس ببيت الحرير الخاص به من أجل

تربية دود القز. كان اهتمام جيمس الأول بالمخلوقات الدؤوبة كبيرًا جدًّا إلى درجة أنه كان يقضي ساعات في دراسة عاداتها واحتياجاتها. وحتى عندما كان يقوم برحلات عبر مملكته كان يجلب معه دائمًا صندوق مصاغ كبيرًا ومليئًا بدود القز الملكي ويقوم وصيف خاص بالعناية به. زرع جيمس الأول أكثر من مئة ألف شجرة توت في مقاطعات شرق إنجلترا القليلة الأمطار، ووضع من خلال ذلك وعبر إجراءات أخرى أُسسَ صناعة مهمة، ازدهرت في مطلع القرن التاسع عشر، بعد أن لجأ أكثر من 50 ألفًا من الهوغونوت إلى إنجلترا بسبب إلغاء الملك لويس الرابع عشر لمرسوم نانت. واستقر عدد كبير من هؤلاء، كانت لديهم خبرة بتربية دود القز وإنتاج أقمشة الحرير، وحرفيون وعائلات تجار مثل لوفيفر وتييت ودي هاغ ومارتينو وكولمبين في نوريتش التي كانت آنذاك ثاني أكبر مدينة بعد لندن، وحيث كانت هناك أيضًا مستوطنة قوامها 5 آلاف شخص من النساجين البلجيكيين الوالوون والفلامنك الذين هاجروا إلى إنجلترا. وحتى عام 1750، أي بعد أقل من جيلين، تحول أسطوات صناعة النسيج الهوغونوت إلى طبقة التجار الأكثر ثراء ونفوذًا وثقافة في كل المملكة. كان النشاط الدائب هو السمة اليومية المميزة لمؤسساتهم ومؤسسات موردیهم، وقد قرأت مؤخرًا في كتاب عن تاريخ صناعة الحرير في نوريتش أنه عندما كان يمر رحالة عند حلول الليل تحت سماء نوريتش الحالكة الظلمة كالحبر، كان يندهش للبريق الذي يغشى المدينة والمنبعث من نوافذ صالات الورش التي كانت لا تزال تعمل لوقت متأخر. مضاعفة الضوء ومضاعفة العمل كانا خطين متوازيين للتطور، يسيران أحدهما بجانب الآخر. وإذا ما فكرت اليوم، حيث لم يعد يمكن لنظرتنا أن تخترق الانعكاس الخافت الذي يظلل المدينة ومحيطها، في القرن الثامن عشر، فإنني أتعجب للأعداد الكبيرة

من الناس - على الأقل في تلك الأماكن وحتى قبل الثورة الصناعية - الذين ظلوا معظم حياتهم تقريبًا مقيدين بأجسادهم الهزيلة إلى نول النسيج المصنوع من إطر وعوارض خشبية والمربوط بأثقال ويُذكر بآلة تعذيب أو قفص، وذلك في تكافل حيوي غريب.

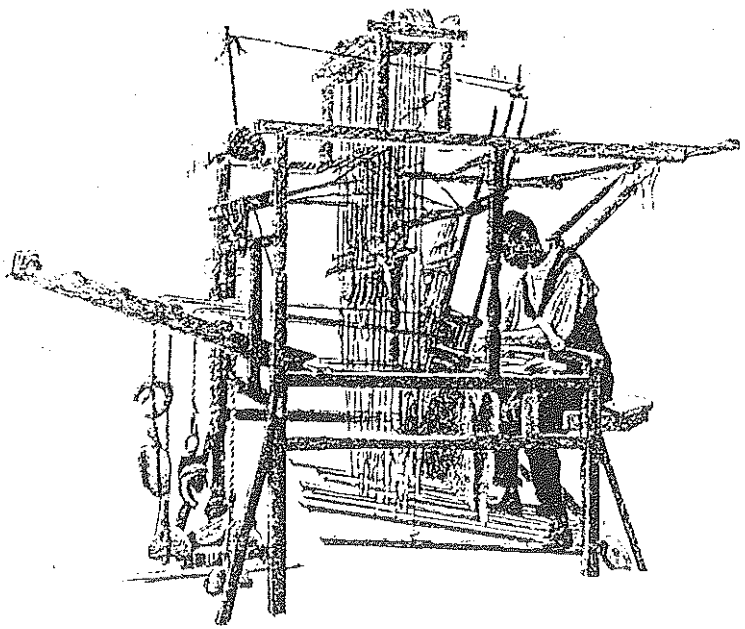

وربما لأنه يعد بالمقارنة بدائيًّا، فإنه يوضح أفضل من أي تحول لاحق لصناعتنا أننا لا نستطيع البقاء على الأرض دون أن نظل مقيدين إلى الآلات التي اخترعناها بأيدينا.

وحسبما ورد في مجلة عن علم خبرات النفس نُشرت في ذلك العصر في ألمانيا، فإنه من المفهوم أن يميل النساجون خاصة، وكذلك العلماء والكتاب الذين يعيشون ظروفًا مشابهة، إلى الميلانخوليا وإلى كل

الشرور الناجمة عنها في عمل يُرغم المرء على الجلوس محنيًّا باستمرار وأن يشحذ ذهنه طوال الوقت ويغرق في حسابات لانهائية لنسج النماذج الفنية المطلوبة. وأظن أنه من الصعب تكوين تصور عن الغياهب التي يمكن أن يسقط فيها الإنسان بسبب التفكير المستمر في العمل حتى ما بعد نهايته والإحساس الذي قد يمتد إلى الأحلام بأنه قد نسج الغرزة الخطأ. أما الوجه الآخر لعملة المرض النفسي للنساجين، وهو أمر يستحق الذكر هنا عن جدارة، أن كثيرًا من أنواع الأقمشة الحريرية التي أُنتجت هنا في مصانع نوريتش قبل عقود من انطلاق الثورة الصناعية كانت متنوعة بشكل بديع وبألوان تتغير حسب الضوء ذات جمال يفوق الوصف، وكأنها قد أُخذت من الطبيعة نفسها مثل ريش الطيور. على أي حال، هذا هو ما يجول برأسي دائمًا، عندما أرى خطوط الألوان الرائعة على حواف وما بين ثنايا دفاتر نماذج الأقمشة بأرقامها ورموزها الملغزة المعروضة في فترينات متحف «سترانجيرس هول» الصغير الذي كان في الماضي بيتًا خاصًّا لإحدى هذه عائلات نساجي الحرير المنفيين من فرنسا.

حتى أفول صناعة الحرير في نوريتش قرب نهاية القرن الثامن عشر كانت كتالوجات نماذج الأقمشة هذه موجودة في مكاتب المستوردين في كل أنحاء أوربّا، من ريغا إلى روتردام ومن سان بطرسبرغ إلى أشبيلية. وبدت صفحاتها بالنسبة لي كصفحات من الكتاب الحقيقي الوحيد الذي لا يضاهيه أي عمل أدبي أو فني أنتجه البشر. وقد وصلت الأقمشة من نوريتش إلى معارض البضائع في كوبنهاغن ولايبزغ وزيورخ ومن هناك إلى مخازن تجار الجملة وإلى المتاجر، وربما حمل بائع جوال يهودي في سلة ظهره طرحة عرس شبه حرير إلى إيزني أو فاينغارتن أو فانغن في جنوب ألمانيا.

All up

Blue Ground

ditto – 33 4 Martin

34 4 Dyed 6 July In the W.

½ doz 35 4 Cotham 2 / Pointer – 2

½ doz 36 4 Brownes W 2

ditto 37 4 Freeman

½ doz 38 4 Black Ground / Fox Jr. – 2

½ doz 39 4 Smith Jr.

½ doz 40 4 Brown Ground / Harvey No. 4

41 4 Dyed 6 July In the W.

– 42 4 Black & Saxon blue as No. 28 Davidson 2 / Pointer 2

– 43 2 Black Ground & Sax Green as No. 30 Baker 2

– 44 2 Sax Green Ground & Blossom as No. 40 Bacon

45 4 Black In the W. Dyed 6 July

90 Sattins 11½ : 29

1 . 10 . 0 / 46 / 1820 / 12 ~~

10 . 4

Dyed 17 June

Q

11 May 1790

Sewell

Dark Green warp as No. 4

– 1 4

Hastings

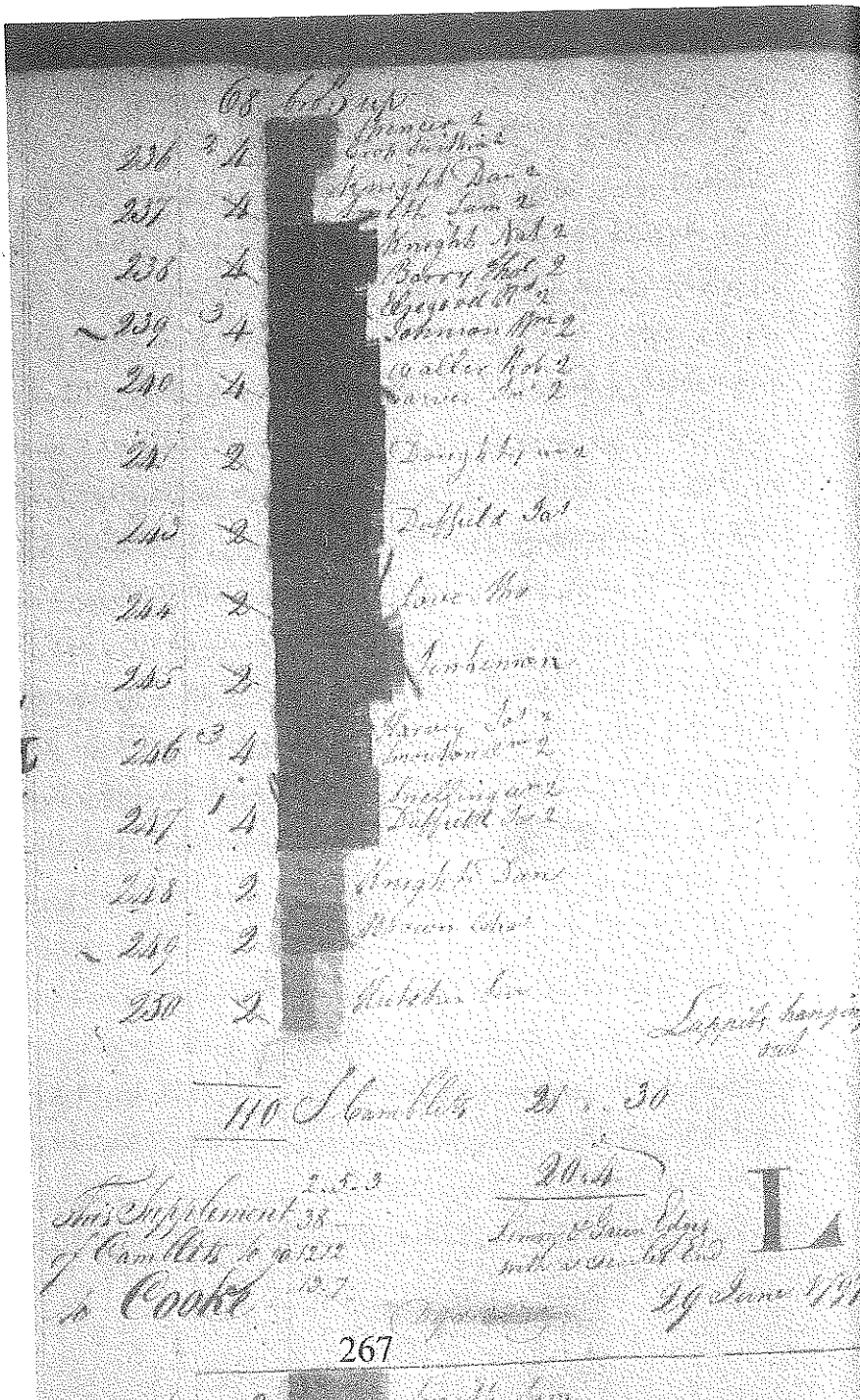

وبالطبع بُذلت أيضًا في ألمانيا المتخلفة آنذاك، حيث كانت الخنازير لا تزال ترعى مساءً في ساحات القصور في بعض مدن مقار الحكم، أقصى الجهود للنهوض بصناعة الحرير. ففي بروسيا سعى الملك فريدريش الكبير بمساعدة المهاجرين الفرنسيين لإحياء صناعة حرير ترعاها الدولة من خلال تخصيصه لأراضٍ لإنشاء مزارع كبيرة وتوزيع دود القز مجانًا. ومنح مكافآت معتبرة لمن يشتغلون بتربية دود القز. وفي عام 1774 جرى إنتاج نحو سبعة آلاف رطل من الحرير فقط في مقاطعات ماغدبورغ وهابرشتات وبراندنبورغ وبومريا. كما حدث شيء مماثل في سكسونيا وفي مقاطعة هاناو وفي فورتمبرغ وأنسباخ وبايرويت، وعلى يد أمير ليشتنشتاين في ضياعه في النمسا وفي راينالاند بفالتس على يد كارل تيودورالذي أسس أيضًا بمجرد قدومه إلى بافاريا عام 1777 إدارة عامة للحرير في ميونيخ. وقد أُنشئت على الفور في فرايزينغ وإيغلكوفن ولاندسهوت وبورغهاوزن وشتراوبنغ وبالطبع في ميونيخ عاصمة الولاية حدائق مهمة لتربية الحرير وفي كل طرق المنتزهات وبجانب أسوار المدينة وبطول كل الشوارع زُرعت أشجار التوت وبُنيت بيوت للحرير ومغازل لحل الخيوط، ومصانع وعُين لذلك جيش من الموظفين. لكن الغريب أن صناعة الحرير التي دُعمت بحماس كبير في بافاريا وإمارات ألمانية أخرى قد أُجهضت قبل أن يكتمل تطورها. واختفت أشجار التوت ثانية وقُطعت حطبًا للمدافئ وأُحيل الموظفون للتقاعد وحُطمت مراجل الحرير وماكينات حل الخيوط والحاضنات أو بيعت أو نُقلت. بتاريخ 1 إبريل 1822 أبلغت إدارة حدائق البلاط الملكي البافاري اللجنة العامة لاتحاد الزراعة أن صبّاغًا عجوزًا يدعى زيبولت - حسبما ورد في الملف الذي لا يزال موجودًا ليومنا هذا في مكتبة ميونيخ العامة - كان موظفًا لدى إدارة صناعة الحرير التابعة للحكومة السابقة كأمين على دود

القز ومشرف على تسليك وحل خيوط الحرير خلال السنوات التسع بأجر قدره 350 فلورين، قد قدم تقريرًا للإدارة أفاد فيه بأنه خلال فترة عمله قد صدرت أوامر على أعلى المستويات بزراعة عدة آلاف من أشجار التوت في كل أطراف المدينة وترقيمها وأن هذه الأشجار نمت بأحجام مذهلة وأنبتت أوراقًا رائعة. ومن هذه الأشجار، قال زيبولت، لم يبقَ الآن سوى واحدة في حديقة مصنع أوتسنشنايدر للنسيج أمام بوابة الدخول، وأخرى، حسبما يعرف، في حديقة المبنى الذي كان في السابق دير طائفة القديس أوغسطين، التي قامت أيضًا بمحاولات محدودة لتربية دود القز. إن السبب الرئيس لانهيار صناعة الحرير بمجرد إدخالها، لم يكمن في عدم تحقق المرجو منها تجاريًّا، بل في المقام الأول في الأسلوب المستبد الذي سعى به السادة الإقطاعيون الألمان لتطوير هذه الصناعة مهما كان الثمن. ويتبين من مذكرة للمبعوث البافاري إلى كارلسروه السيد الدوق رايغرسبيرغ يشير فيها إلى أقوال مفتش المزارع كال، وهو الموظف الوحيد الذي كان لايزال يعمل في صناعة الحرير في شفيتسينغن، أنه في راينلاند بفالتس حيث كانت صناعة الحرير تمُارس على أوسع نطاق، كان على كل فرد من أفراد الرعية وكل موظف وكل مواطن أو ساكن مؤقت في المدينة، يمتلك أكثر من فدان من الأرض، بغض النظر عن ظروفه والغرض الذي يستخدم فيه حقوله، أن يزرع ست شجرات مقابل كل فدان. وكل مواطن نال المواطنة حديثًا شجرتين وكل ساكن مؤقت شجرة، وكل صاحب رخصة مطعم أو مخبز من الرعية وأيضًا كل صاحب منصب في البلاط أو مؤجر لمحل أو صاحب إرث عليه أن يزرع عددًا معينًا من الأشجار، كما توجب زرع أشجار التوت في ساحات البلديات والشوارع والسدود والخنادق الحدودية للمدن بل حتى في المقابر أمام الكنائس، بحيث إن الرعية أصبحت مرغمة على

شراء مئة ألف شجرة سنويًّا من مشاتل شركة الحرير الحكومية. وقد أُلقيت مهمة عزق التربة وزرع أشجار التوت على عاتق أصغر اثني عشر مواطنًا في كل بلدية، ما أصبح عبئًا شخصيًّا عليهم. بالإضافة إلى الكلفة العالية لتعيين تِسعة وعشرين رئيسًا مسؤولًا عن صناعة الحرير وكذلك تعيين المشرفين المختصين لكل منطقة على حدة مع تمتعهم بالحرية الشخصية والإعفاء من السخرة، وحصولهم على بدل غذاء وبدلات يومية تبلغ 45 كرونة. وكانت النفقات المترتبة على هذا المرسوم تُغطى جزئيًّا من أموال البلدية والجزء الآخر كان يفرض على الناس دفعه عن طريق الضرائب. مثل هذه الأعباء التي لم تكن القيمة الاقتصادية الحقيقية لمشروع صناعة الحرير لتبررها إطلاقا، اقترانًا مع الغرامات المالية والعقوبات الجسدية القاسية على أي جريمة متعلقة بالحرير الذي يعد في حد ذاته شيئًا جيدًا، قد جعلته مكروهًا إلى أقصى درجة عند الشعب وأدى ذلك إلى تقديم عدد لا نهائي من الالتماسات وطلبات الإعفاء والدعاوى والقضايا، أغرقت السلطات القضائية والإدارية العليا في بحر من الأوراق والمراسلات إلى أن قرر الأمير المنتخب ماكس يوزف بعد وفاة كارل تيودور أن ينهي هذا العبث الذي يزداد تفاقمه باستمرار من خلال إلغاء كل هذه الإجراءات القسرية. أيضًا لم تأتِ التقارير التي وصلت في عام 1811 إلى مجلس بلاط الحرب الإمبراطوري في فيينا - أي في فترة انهيار صناعة الحرير في ألمانيا - مما يسمى بكتائب الحدود المكلفة بدراسة تربية دود القز في الطبيعة، بأي خبر سار. فمن كتيبة الحدود الفالاخية الإيليرية في كارانسيبيش ومن كتيبة حدود البانات الألمان رقم 12 في بانشيفو جاءت تقارير دوَّنها العميدان ميخائيليفيتش وهودينسكي وبها نقاط تتشابه تقريبًا حتى في ألفاظها ومفادها أنه بعد الآمال الأولى في إمكانية تربية الدود بشكل جيد، طاح الدود من فوق أوراق الشجر ومات

بفعل العواصف أو الأمطار الفجائية، أو بفعل هطول البرَّد كما هي الحال في غلوغو وبيرلاسفاروش وإسبيتي حيث أنهى الدود سباته الأول وفي هومولیتز وأوبوفا حيث أنهى سباته الثاني. إلى ذلك عانى دود القز، كما ورد أيضًا في التقرير، من أعدائه العديدين، العصافير والزرازير التي التهمت بنهم شديد الدود الذي وُضع لتوه على أوراق الشجر. أما العميد مينيتوفيتش من كتيبة غراديشكا، فيشكو ضَعفَ شهية الدود ومن التقلبات الجوية الفجائية ومن الحشرات المتوحشة من ناموس ودبابير وذباب. ويقر العميد ميليتش من كتيبة حدود برود رقم 7 بأن الديدان التي كانت لا تزال متبقية على الأشجار والفراشات التي انبثقت من شرنقاتها في الثاني عشر من يوليو قد احترق بعضها بسبب الحر الشنيع، أو ماتت لأنها لم تعد قادرة على التهام أوراق الشجر التي أصبحت قاسية. دون مراعاة لهذه الانتكاسات أيَّد مستشار الدولة البافاري يوزف فون هاتسي بقوة، في كتاب أصدره عام 1826 بعنوان *Lehrbuch des Seidenbaus für Deutschland* أي كتاب تعليمي لصناعة الحرير في ألمانيا، صناعة الحرير كأحد الفروع المهمة للاقتصاد الألماني الصاعد تدريجيًّا، في ظل إمكانية تجنب القرارات الخطأ والأخطاء التي ارتكبت سابقًا. يسير كتاب هاتسي الذي أُعد كبرنامج تعليمي متكامل على نهج كتاب الدوق داندالو من فاريزي الصادر عام 1810 في ميلانو بعنوان Dell arte di governare i bachi da Setta، وكتاب بونافو De l´ éducation des vers à soie وكذلك دليل بولاتسانو لصناعة الحرير وكذلك كتاب كيتنبايل دليل إرشادي لمعالجة أشجار التوت وتربية دود القز. من أجل إعادة إحياء صناعة الحرير في ألمانيا، يكتب فون هاتسي، لا بد أولًا من مراجعة الأخطاء السابقة التي نتجت حسب رأيه عن الإدارة السلطوية للأمور والتطلعات الاحتكارية للدولة وجهاز إداري يخنق بلوائحه المثيرة للسخرية أي روح

للمبادرة. لايحتاج إنتاج الحرير، حسب رأي فون هاتسي، إلى مبنى خاص أو مؤسسات تظل كلفتها باهظة باستمرار وتشبه الثكنات والمستشفيات، بل يجب أن يُنتج بالطريقة نفسها التي كان يُنتج بها في سابقًا في اليونان وإيطاليا. وكأنه خُلق من عدم، يُربى الدود في غرف وأجنحة عادية وكأنه أمر ثانوي، على يد النساء والأطفال وخدم البيت، على يد الفقراء والمسنين، باختصار كل هؤلاء الذين لا يزالون محرومين من أي كسب. وحسب فون هاتسي، لا يجلب هذا النوع من صناعة الحرير ذي الأساس الشعبي مزايا اقتصادية لا جدال فيها في التنافس مع الدول الأخرى فحسب، بل سيؤدي كذلك إلى تحسين الوضع الاجتماعي للنساء وكل قطاعات الشعب غير المعتادة على العمل المنتظم. بالإضافة إلى ذلك، فإن في مراقبة هذه الحشرة غير اللافتة للنظر وهي تتطور تدريجيًّا في ظل رعاية البشر وتُخرج في النهاية هذه المواد النافعة، لهي وسيلة حصيفة لتعليم الشبيبة. وحسبما يكتب فون هاتسي فإنه ليس ثمَّت وسيلة أفضل لنقل فضيلة النظام والنظافة، التي لا غنى عنها لكل مجتمع، إلى الطبقات الدنيا من نشر صناعة الحرير على نطاق جماهيري. وهو يتوقع من خلال تربية دود القز في حِجر عدد كبير من العائلات الألمانية أن يحدث تحولٌ أخلاقيٌّ مباشرٌ للأمة. ويستطرد فون هاتسي داحضًا العديد من التصورات الخطأ والمسبقة المرتبطة بصناعة الحرير، كأن يُقال إنه من الأفضل أن تكون حضانة الدود في حوض من الروث أو في صدور الفتيات، وإنه يجب تدفئته على الفرن عندما يخرج الدود من بيوضه في الأيام الباردة وإغلاق ضُلف الشبابيك عند الرعد وتعليق حزمة من الشيح الرومي في النافذة للقضاء على الهواء الفاسد الملوث. لكن الأمر الأكثر عقلانية، يقول فون هاتسي، هو في الأساس المحافظة على الانضباط الصارم والنظافة وتهوية الحجرة يوميًّا وتبخيرها إن لزم الأمر

بغاز الكلور الذي يمكن إنتاجه بملح بحر رخيص مع مسحوق أكسيد المنجنيز الرباعي وبعض الماء. كما يسهل تجنب إصابة الدود بالصفراء والهزال والشرور الأخرى، وهكذا يكون من المضمون قيام صناعة شعبية مفيدة ومربحة من جميع النواحي من خلال المعرفة المتنامية بها التي تنتشر على أوسع نطاق. لم تجد رؤية مستشار الدولة فون هاتسي عن أمة توحدها صناعة الحرير وتثقف نفسها من أجل أهداف أسمى، صدى في عصره، على الأغلب بسبب التجارب الفاشلة السابقة التي تعود إلى الماضي القريب ولما يكن النسيان قد طواها بعد. لكن بعد انقطاع دام مئة عام أحياها الفاشيون الألمان ثانية بالإتقان الذي يتسمون به في كل ما يفعلونه، كما اكتشفتُ ذلك، ولدهشتي الكبيرة، عندما ذهبت في صيف العام الماضي إلى مركز السينما التابع لبلدية المنطقة التي نشأت فيها. كنت أبحث عن الفيلم التعليمي عن صيد الرنجة في بحر الشمال الذي تذكرته مجددًا في سياق عملي، ووجدت شريطًا أُنتج ضمن السلسلة نفسها عن صناعة الحرير الألمانية. على النقيض من فيلم الرنجة الحالك الظلمة المُصور عند منتصف الليل تقريبًا، كان فيلم صناعة الحرير مفعمًا بضوء ساطع يُغشي الأبصار حقًّا. انشغل رجال ونساء يرتدون معاطف المختبرات البيضاء في قاعات يغمرها الضوء وقد دُهنت حديثًا باللون الأبيض بماكينات غزل بيضاء وملازم أوراق ناصعة البياض كالثلج وشاش ناصع البياض وشرانق بيضاء ناصعة وأكياس كتانية ناصعة البياض من أجل إرسال البضائع. وقد كان للفيلم كله طابع واعد بالعالم الأفضل والأنقى من بين كل العوالم. وهو انطباع تأكد من خلال قراءتي للكتيب المصاحب له والمعد على الأغلب في الأساس للمدرسين وجاء فيه: استنادًا إلى الخطة التي أعلنها الفوهرر أمام مؤتمر الحزب عام 1936 والتي تقضي بأن تحقق ألمانيا خلال أربع سنوات الاستقلال في إنتاج كل

المواد التي يمكن إنتاجها بقدرات ألمانية. وأن ذلك ينطبق بالطبع أيضًا على صناعة الحرير. ووفقًا لبرنامج بناء صناعة الحرير الذي أقره وزير التغذية والزراعة ووزير العمل ووزير شؤون الغابات ووزير الطيران، سيجرى التدشين لعهد جديد في إنتاج الحرير في ألمانيا.

Beihefte der Reichsstelle für den Unterrichtsfilm F 213/1939

Deutscher Seidenbau II

Aufzucht der Raupen
Verarbeitung der Trockenkokons

Von

Prof. Dr. Friedrich Lange

Kreisbildstelle
Sonthofen in Immenstadt

W. Kohlhammer / Verlag / Stuttgart und Berlin

يعتبر اتحاد صناع الحرير في برلين، الذي ينضوي تحت اتحاد مربي صغار الحيوانات التابع بدوره لمنظمة الرايخ للاقتصاد الزراعي والسياسة الزراعية، أن واجبه هو رفع الإنتاجية في كل المؤسسات القائمة، والدعاية لإنتاج الحرير في الصحافة والسينما والإذاعة، وتأسيس مزارع

نموذجية لتربية دود القز لأغراض تعليمية، والإشراف على كل منتجي الحرير عبر تنظيم وتحديد رؤساء لمجموعات العمل المتخصصة على مستوى الولايات وعلى المستوى المحلي، وتوفير أشجار التوت وزراعة ملايين من أشجار التوت على الأراضي التي لم تستخدم من قبل، في الأحياء السكنية والمقابر وعلى أطراف الطرق والسُدات الترابية للسكك الحديدية وبطول الطريق السريع. إن أهمية صناعة الحرير لألمانيا، يستعرض البروفيسور لانغه مؤلف الكتيب رقم F213/ 1939 لا تكمن فقط في وقف الاستيراد من الخارج الذي يشكل عبئًا لا لزوم له لسوق العملات، بل أيضًا في الدور المهم الذي سيلعبه الحرير في إطار الجهود المتنامية لإقامة اقتصاد حربي مستقل. ولهذا السبب من المهم إثارة اهتمام الشباب الألماني في المدارس، لكن ليس قسرًا كما كانت الحال في عهد فريدريش الكبير. بل بالأحرى ينبغي اجتذاب المدرسين والتلاميذ لصناعة الحرير بمحض إرادتهم. وعن إمكانات قيام المدارس بعمل رائد في مجال صناعة الحرير، يكتب البروفيسور لانغه أنه من الممكن إحاطة أفنية المدارس بسياج من أشجار التوت وتربية دود القز في مباني المدرسة. وفي نهاية المطاف، يضيف البروفيسور لانغه، فإن دودة القز تعد بالإضافة إلى قيمتها النفعية الواضحة، مادة نموذجية للتدريس. ولأنه عمليًّا يمكن الحصول عليها مجانًا بأي كميات وتعتبر حيوانًا منزليًّا «مستأنسًا» يمكن تربيته دون قفص، يمكن الاستفادة من دودة القز في كل مرحلة من مراحل تطورها في كل أنظمة التجارب والاختبارات (في الوزن والقياس وما شابه ذلك). ويمكن من خلالها عرض بنية وخصوصية جسم الحشرة، وكذلك مظاهر الاستئناس والطفرات الانتكاسية والإجراءات الأساسية التي من الضروري أن يتبعها مربو الدود لمراقبة الإنتاجية وانتقاء الجيد من الدود وإبادة البقية

لتجنب الانحطاط العرقي. ويعرض هذا الفيلم ذاته لاستقبال مربي دود القز للبيض المرسل من منظمة الرايخ لصناعة الحرير في مدينة سيل، ووضعه في أرفف نظيفة وفقس البيض وتغذية الدود المتلهف للطعام وتنظيف مكانه لمرات عديدة وغزل الحرير في الحضانة وأخيرًا قتل الدود الذي لا يتم كما هي العادة بوضع الشرانق في الشمس أو إدخالها فرن ساخنة، ولكن باستخدام مرجل غسيل دائم الغليان. ثلاث ساعات يجب أن تظل الشرانق الموضوعة في سلال مسطحة فوق بخار الماء المتصاعد من المرجل. وعند الانتهاء من كمية يبدأ المرء بالدفعة التالية وهكذا دواليك حتى تُنجز أعمال القتل عن آخرها.

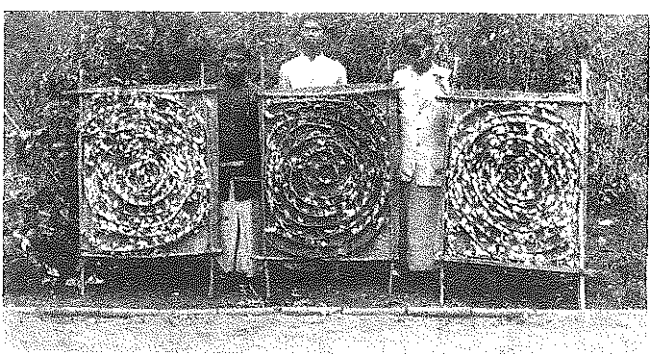

اليوم اختتم تدويناتي في 13 إبريل 1995. إنه يوم الخميس الأخضر، يوم غسل القدمين ويوم أعياد القديسين أغاثون وكاربوس وبابيلوس وهيرمينغيلد. في هذا اليوم بالضبط قبل ثلاث مئة وسبعة وتسعين عامًا أصدر هنري الرابع مرسوم نانت. وقُدم في دبلن قبل مئتين وثلاثة وخمسين عامًا العرض الأول لأوراتوريو المسيح لهيندل. وعُين وارن هاستينغ قبل مئتين وثلاثة وعشرين عامًا حاكمًا لإقليم البنغال، وتأسست في بروسيا قبل مئة وثلاثين عامًا رابطة العداء للسامية، كما وقعت قبل

أربعة وسبعين عامًا مذبحة أمريتسار في شمال الهند، عندما قام الجنرال داير، من أجل أن يقدم عبرة، بفتح النار على جمع متمرد قوامه خمسة عشر ألف شخص تجمعوا كلهم في الساحة المعروفة باسم جاليانوالا باغ. وربما اشتغل عدد غير قليل من ضحايا المجزرة آنذاك في إنتاج الحرير الذي كان يُمارس في منطقة أمريتسار وعمومًا في الهند بأبسط الأسس. وقبل خمسين عامًا من الآن ورد في صحيفة إنجليزية أن مدينة سيل الألمانية قد سقطت وأن القوات الألمانية تنسحب بشكل كامل باتجاه تل الدانوب أمام الجيش الأحمر الذي يتقدم دون رادع. نعم، وأخيرًا فإن الخميس الأخضر الموافق 13 إبريل 1995 هو أيضًا اليوم الذي فارق فيه والد كلارا الحياة بعد فترة وجيزة من دخوله المستشفى في كوبورغ. في أثناء كتابتي لهذه السطور وأنا أفكر في تاريخنا الذي لا يوجد به شيء سوى الفواجع، يخطر لي أنه في الماضي كان ارتداء فساتين طويلة وثقيلة من الحرير التفتاه الأسود أو الكريب دوشان الأسود هو الشيء الوحيد المناسب للتعبير عن الحزن العميق لدى نساء الطبقات الأرقى. وهكذا مثلًا ظهرت دوقة تيك في جنازة الملكة فيكتوريا مرتدية، مثلما يقال في مجلات الموضة المعاصرة، فستانًا يخلب العقل حقًّا، بغلالات كثيفة مموجة من حرير مانتو الأسود من إنتاج مصنع منسوجات الحرير ويليت أند نيفيو Willett & Nephew في نوريتش، مباشرة قبيل أن يغلق نهائيًّا. فقط من أجل هذه المناسبة ولإبراز مهارات أصحابه التي لا تُبارى في مجال حرير الحداد صنعوا فستانًا بطول ستين خطوة. وكان توماس براون الذي قد تكون له نظرة في هذه الأمور كابنٍ لتاجر حرير، قد علق في موضع ما من كتابه «أخطاء شائعة» لم يُتِحْ لي العثور عليه ثانية، أنه في عصره قد أصبح عرفًا في هولندا أن تُغطى في بيت الشخص الميت كل المرايا والنوافذ والصور التي تحتوي على مناظر طبيعية أو بشر أو

فواكه أو حقول بأوشحة حداد حريرية، حتى لا تلتهي الروح التي تغادر الجسد خلال رحلتها الأخيرة، سواء بتأمل نفسها أو بالنظر إلى موطنها الذي سرعان ما ستغادره إلى الأبد.

« صادم وغريب كحلم لا تريد
أن تستيقظ منه أبدا.. »
Roberta Silman -
The New York Times Book Review

يسرد «حلقات زحل» بأرشيف صوره الغريب وقائع رحلة على الأقدام يقوم بها زيبالد على الساحل الشرقي الإنجليزي. في هذه المنطقة شبه المقفرة التي شهدت على مر العصور فترات ازدهار خاطفة، سرعان ما زالت ليحل محلها البؤس والدمار، ينبش المؤلف قصصا ومصائر ومآلات غريبة، تتقاطع مع رحلاته في الذاكرة عبر مآسي التاريخ الحديث والمعاصر. مفتونا بتحولات الأشياء يرصد الراوي تناسخ عوالم بأكملها لكن الدمار «يلقي بظلاله على كل شكل جديد».
لوحة «درس التشريح» لرمبرانت وطفولة صاحب «قلب الظلام» جوزيف كونراد وحياة وأعمال الطبيب المولع بأسرار الكون توماس براون وحياة مترجم رباعيات الخيام ادوارد فيتزجيرالد وحرب الأفيون والامبراطورة الأرملة ونهاية الإمبراطورية الصينية ومذكرات شاتوبريان وغيرها من غرائب الأخبار، كلها قصص تلفها خيوط الحرير كما تلتف حول شرنقة دودة القز التي تلعب دورا محوريا في هذا الكتاب.

« يتمتع زيبالد بالمكانة الأدبية نفسها التي يتمتع بها نابوكوف، فهو يمتلك التمكّن الصارم والمنعدم الوزن في الوقت ذاته.» - Chicago Tribune

«تعطي الطاقة غير المألوفة للغة زيبالد بجديتها الاحتفالية ورشاقتها ودقتها انطباعا بأنها غريبة ومقنعة في الوقت ذاته.» - Susan Sontag

«ف. ج. زيبالد موهوب بقدرة إدراكية تقارب حد الهلوسة» - Der Spiegel

«كتاب جميل جدا، يكمن جماله في غرابته، زيبالد واحد من أكثر الكتاب المعاصرين غموضا، وهنا في **حلقات زحل** كتابٌ تتجاوز غرابته الكتاب الأسبق **المغتربون**.» - James Wood

«معظم الكتّاب -حتى الجيدين منهم- يكتبون عمّا يمكن الكتابة عنه، بينما أعظم الكتّاب على الإطلاق يكتبون عمّا لا يمكن الكتابة عنه، أعتقد أن أخماتوفا وبريمو ليفي على سبيل المثال وأيضا زيبالد من هؤلاء.»
- New York Times

ف. ج. زيبالد (١٩٤٤- ٢٠٠١) مواليد ألمانيا. من أعماله: المغتربون، فيرتجو، أوسترليتز، بعد الطبيعة، عن التاريخ الطبيعي للتدمير.

9789778280289
طبعة دار التنوير مصر
التنوير
بيروت • القاهرة • تونس
daraltanweer.com
الغلاف @awthings